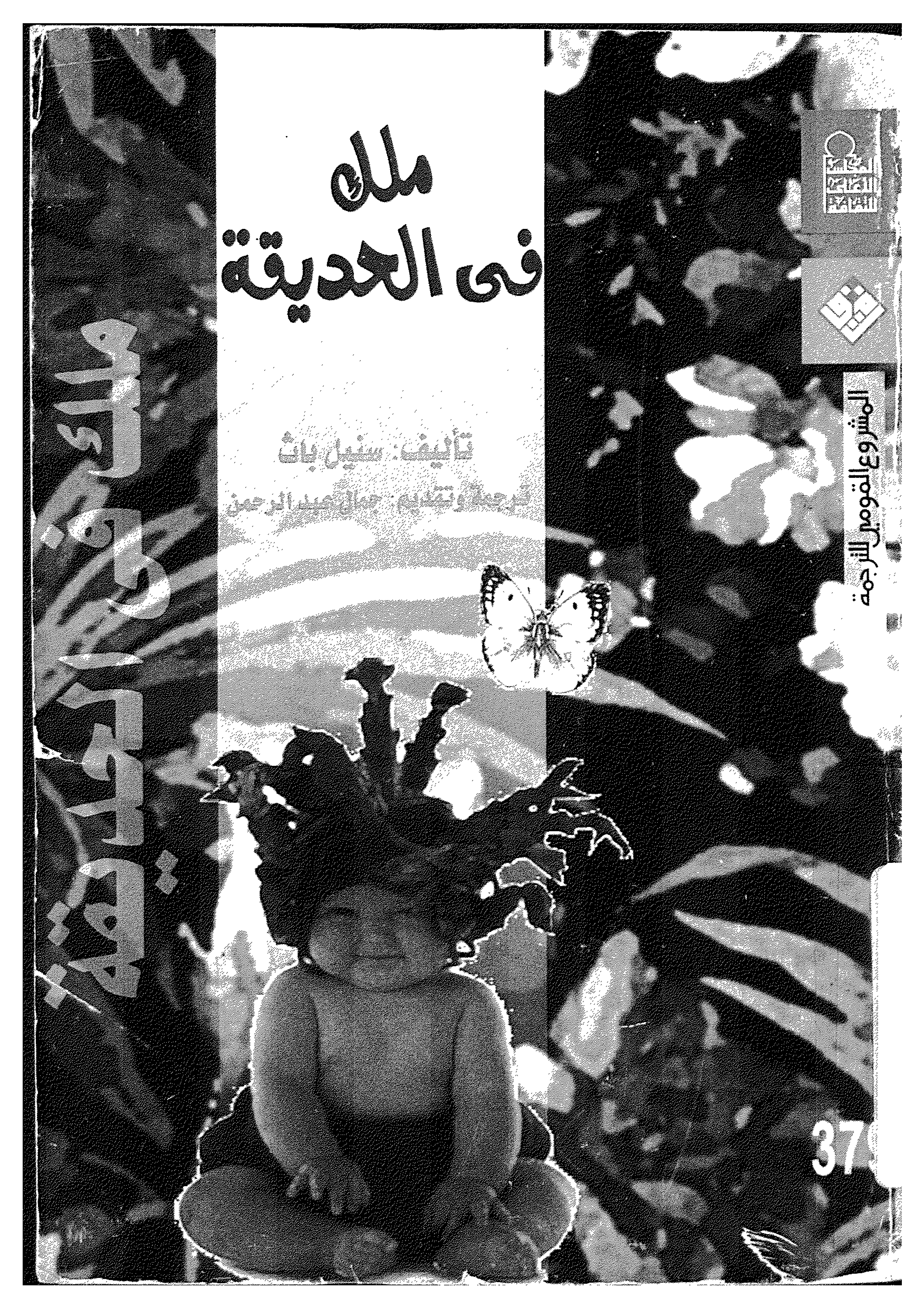

ملك
فى الحديقة
تأليف: سنيل باث
ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن
المشروع القومى للترجمة

اهداءات ٢٠٠٤
مجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المشروع القومى للترجمة

# ملك فى الحديقة

تأليف : سنيل باث

ترجمة وتقديم : جمال عبد الرحمن




٢٠٠٢

**المشروع القومى للترجمة**
إشراف **جابر عصفور**

- العدد ٣٧٩
- ملك فى الحديقة
- سنيل باث
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

**هذه ترجمة لكتاب :**

**Un rey en el jardín**

**تأليـف : Senel Paz**

**الصادر عن دار نشر : Al Fagura**



شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

**Tel :** 7352396 **Fax :** 7358084 **E.Mail:**asfour@onebox.com

# مقدمة المترجم

كان بعض أساتذتنا ينصح بأن يبدأ الباحث دراسته من حيث انتهى الآخرون حتى لا تتجمد مسيرة البحث العلمى بل تتواصل.

وأجدنى فى حاجة إلى العمل بهذه النصيحة ، وأن أدخل مباشرة إلى الحديث عن أدب كوبا لا عن أدب أمريكا الجنوبية ، خاصة وأنه فى السنوات الأخيرة أصبح بإمكان القارئ العربى أن يطالع دراسات كتبت بالعربية ، أو ترجمت إليها ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب "مسار الرواية الإسبانو أمريكية" لكل من داريو بيانويبا و بيناليستى (وقد نشر ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة «المشروع القومى للترجمة» فى مصر) (١) وكتاب "أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات" لمجموعة مؤلفين ( وقد نشر ضمن إصدارات عالم المعرفة فى الكويت) (٢) ، هذا بالإضافة إلى جهود الزملاء الذين كتبوا مقدمات للأعمال الأدبية التى ترجموها وهى الآن كثيرة.

أتحدث - إذن - عن الأدب الكوبى مباشرة ؛ فأقول باختصار إنه أدب نلمح فيه ميزتين: الأولى هى ارتباطه الوثيق بأدب أمريكا الجنوبية عامة، والثانية هى التزام الكتاب بالحديث عن الثورة التى قادها **فيديل كاسترو** عام ١٩٥٩ . ومن المهم أن نشير إلى أن حديث الكتاب عن

(١) العدد ٥١ . ترجمة د. محمد أبو العطا .

(٢) العددان ١١٦ ، ١٢٢ . ترجمة أحمد حسان عبد الواحد ، مراجعة د. شاكر مصطفى.

الثورة ليس بالضرورة تأييدا لها ، بل يصل بعضهم أحيانا إلى توجيه النقد إلى بعض جوانب الحياة فى كوبا تحت قيادة كاسترو.

ذكرت تيريسا خورخى كاربيو[٣] فى محاضرة لها عن ثقافة كوبا أن الأدب الكوبى يبدأ اعتبارا من عام ١٦٠٨ وأن أول أثر أدبى مكتوب فى كوبا عبارة عن قصيدة بعنوان «مرآة الصبر» للشاعر سلبيسترى دى بالبوا المولود فى إسبانيا ، وأضافت أن الإنتاج الأدبى الكوبى قد استمر منذ ذلك الحين على فترات متباعدة.

على أننا يجب أن ننتظر حتى نهاية القرن التاسع عشر -التى شهدت فترة الكفاح ضد المستعمر الإسبانى- حتى نستطيع أن نتحدث عن الأدب الكوبى . فى تلك الفترة كان هناك وعى بمساوئ الاحتلال الإسبانى ، وقد انعكس هذا الوضع على الإنتاج الأدبى، أما قبل ذلك فكانت السلطات الإسبانية تقف بالمرصاد لأدنى محاولة للتمرد من قبل مواطنى جزيرة كوبا.

نستطيع أن نقول - إذن - إن الأدب الكوبى الذى نعنيه يبدأ مع خوسيه مارتى (١٨٥٣- ١٨٩٥ ) الذى عبر عن طموحات شعبه وأمله فى التحرر من نير الاستعمار الإسبانى، ويعدّ مارتى بطلاً قوميًا فى كوبا ورائدًا من رواد الفكر فى أمريكا الجنوبية.[٤]

(٣) من وكالة الإعلام الوطنية بكوبا ، لدينا نسخة من المحاضرة ولا يوضح فيها المكان الذى ألقيت فيه .

(٤) كان خوسيه مارتى مناصرا للحقوق العربية وآمال شعوبنا فى التحرر من الاستعمار، وكان شديد الإعجاب بأحمد عرابى وعبد الكريم الخطابى ، وكان يهاجم الدول الاستعمارية ويعيب على أسبانيا مثلاً أنها تأكل " من عرق جيشها لا من عرق عمالها " .

فى القرن العـشرين برزت مجـموعة من الأدباء الكوبيـين فاقت شهـرتهم حدود بلادهم ، نذكر منهم: أليـخو كاربنتـيير ، وخوسـيه ليثاما ليما ، ودولثى ماريا لويناث ، وسنيل باث وغيرهم.

أعود إلى الحديث عن اتجاهات الكتابة فى كوبا فى مرحلة ما بعد الثـورة ؛ فـأقـول إن هذا الاتجاه الـذى نتحـدث عنه لا يـقطع الصلة بالماضى تماما ، فكاتب مثل أليخو كاربنتـيير يناصر الثورة لكنه ينتقدها فى بعض الأحيان ، ويستغل حركة الواقعية السحرية فى رواياته - وإن كان له منظور خاص يتـعلق بسحرية ثقافة أمـريكا الجنوبية التى تشمل ثقافة أهل القارة الأصليين وثقافات الزنوج.

نستطيع أن ندرج روايات سنيل باث ضمن هذا الاتجاه الأخير ، فهى تناصـر الثورة وتتحـدث عن ظلم الأغنياء للفـقراء ، لكن رواية "ملك فى الحديقة" - على سبيل المثال - نجد فيها أهم ملامح الرواية فى أمريكا الجنوبيـة ، كما نلمح فيهـا بين السطور بعض إشارات إلى مآخـذ على الثوار أنفسـهم وإن كانت هذه المآخـذ لا تبطل مشروعـية القيام بالثورة.

## سنيل باث كما عرفته :

كانت كتابة مقدمة لرواية سنيل باث تمثل ضرورة ، فهنا فى مصر لم يتحـدث عنه أحد على حد عـلمنا ، اللهم إلا مقال وحـيد كتـبه سامح كريم فى صحيفة الأهرام فى أعقاب حصول المؤلف على جائزة المكسـيك الدولية عـام ١٩٩٠ ، وهذا المقال لا يتـعرض إلا للقـصة الفائزة بالجائزة.

ولد سنيل باث عام ١٩٥٠ فى منطقة جبلية رائعة الجمال بوسط كوبا ، تنمو فيها أنواع شتى من النباتات والأشجار . أسرته ريفية فقيرة لا تمتلك أراض ، و كان أهله يعملون -كأجراء- فى زراعة التبغ ورعى الأغنام . عاش سنيل فى هذا الجو حتى عام ١٩٥٨ عندما أجبرت الحرب أهله على الرحيل إلى منطقة قريبة لا تزال أسرته تقيم فيها إلى اليوم.

عندما مات جده تولت أمه رعاية الأسرة فعملت كخادمة منزلية ثم كعاملة فى مصنع للتبغ ، أما سنيل فقد ذهب إلى المدرسة الحكومية، وتميز بنبوغه فى العلوم وبحبه للقراءة والكتابة . كانت أسرة سنيل من الأميين ، ولذلك فقد تولى هو نفسه تعليم أمه وجدته القراءة والكتابة . فى تلك السنوات اكتشف سنيل حبه للكتب وميله إلى الكتابة ، وفاز بعدة جوائز أدبية على المستوى المدرسى.

بعد إتمام المرحلة الثانوية اختير كواحد من أفضل الطلاب لكى ينضم إلى مدرسة الموهوبين على المستوى القومى فى كوبا ، اعتبارا من ذلك التاريخ وحتى تخرجه فى الجامعة كانت دراسة سنيل على نفقة الحكومة.

اتجه سنيل إلى الأدب فالتحق بكلية الإعلام بجامعة هافانا وتخرج منها عام ١٩٧٣ . كانت الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٧٦ فترة عصيبة فى كوبا ، فقد شهدت تحركات سياسية تهدف إلى التحكم فى حياة العمال والكتاب وإجبارهم على تبنى النموذج السوفيتى . وإزاء الرقابة

الصارمة بدأ الكتاب فى الهجرة إلى الخارج ، وعموما فقد شهدت تلك الفترة قطيعة بين النظم اليسارية الدولية والثورة الكوبية. أما الكتاب الشبان أمثال سنيل فقد مثلت تلك السنوات بالنسبة لهم فترة إبداع ، وعندما أنشئت وزارة الثقافة فى كوبا عام ١٩٧٦ بدأت الأوضاع تتحسن.

مارس سنيل العمل الصحفى على المستوى المحلى ، وبدأ فى صقل موهبته فى الكتابة الأدبية ، لكنه لم ينشر أعمالا إبداعية حتى عام ١٩٧٨ حين اشترك فى الورش الأدبية القومية ، وفاز حينها بجائزة القصة القصيرة . بعد ذلك بعامين حصل على جائزة دافيد التى يمنحها اتحاد الكتاب فى كوبا عن مجموعته القصصية "ذلك الطفل". اعتبارا من ذلك التاريخ ، وضع سنيل فى قائمة أفضل الكتاب فى كوبا، وذاع صيته بين القراء ، وفى عام ١٩٨٠ انتقل للإقامة فى العاصمة هافانا وعمل فى وزارة الثقافة وفى إحدى المجلات الأدبية ثم مدرسا لفن الكتابة للسينما والتليفزيون.

إذا تحدثنا عن الملامح الشخصية للكاتب فإن أول ما يلفت الانتباه هو تواضعه وحياؤه الشديدان ، إضافة إلى اعتزازه بنشأته الريفية الفقيرة . أذكر مثلا أنه حين طلبت منه أن يمدنى ببعض مقالات تتحدث عن أعماله أرسلها إلىّ ، وكتب يقول فى تواضع جم: " إذا رأيت أن ما كتبه النقاد فيه تقريظ لرواياتى فليس ذلك إلا لأنهم أصدقاء لى وأرادوا مجاملتى" ، هكذا يقول سنيل وكأنه يعتذر عن شىء لم يختلف عليه أحد: إنه كاتب متميز رغم حداثة سنه حين نشر روايته الأولى.

وكاتبنا محدِّثٌ جيد ؛ فأذكر أننى حين استمعت إليه للمرة الأولى ذات مساء فى مدريد وهو يقرأ فصلا من رواية "ملك فى الحديقة" كان حديث الجميع بعد انتهاء الندوة يدور حول قدرته غير العادية على جذب انتباه سامعيه . كان سنيل متأثرا بما يقرأ إلى أقصى حد ، وكان من الواضح أن الرواية تتناول جوانب من حياته الشخصية، وبالفعل فإن سنيل يقول ذات مرة "هناك الكثير من السيرة الذاتية فى روايتى ، لكننى فى العادة أكذب كثيرا فيما يتعلق بما حدث لى " (٥) .

تتحدث الكتب التى تتناول أدب كوبا بالتحليل عن سنيل باث فتصفه بأنه "كاتب من الطراز الأول رغم أنه شاب" ، ذلك لأن كل أعماله التى نشرها فازت بجوائز محلية أو دولية، رغم ذلك إلا أن كاتبنا له رأى غريب فى أعماله ، فهو يقول فى تواضع صادق إنه لا يدرى إن كانت أعماله تستحق النشر. رواية "ملك فى الحديقة" على سبيل المثال امتدحها الجميع فى كوبا وفى خارجها ، وفازت بجائزة النقاد فى كوبا ، لكن سنيل يقول إنه لا يدرى سببا لهذا الاحتفاء . وذكر لى ذات مرة أنه تردد كثيرا قبل إرسال الرواية إلى الناشر ، وأنه بعد إرسالها ندم كثيرا ، فقد كان يريد إجراء تعديلات عليها .

عزوف سنيل عن نشر أعماله هو الذى سبب حيرة لدى البعض ، وقد سألته إن كانت الكتابة للسينما قد استحوذت عليه فهجر كتابة

(٥) انظر Saul Ibargoyen ( "La narrativa de Senel Paz" en Plural Mexico)

الرواية ، فأجابنى قائلا "بل تركت النشر لا الكتابة . لدى بعض الأعمال ولم أستقر على نشرها بعد" .

**أعماله :**

نشر سنيل كثيرا من القصص القصيرة يتركز معظمها حول الطفل والشاب الصغير . وكان التيار السائد فى كوبا خلال سنوات هو الحديث عن تربية الطفل والشاب فى المجتمع الاشتراكى . وقد نُشرت أعمال أدبية كثيرة فى هذا الإطار من بينها قصص سنيل باث ، فالمجموعة القصصية التى تحمل عنوان "ذلك الطفل" تتضمن عدة قصص مثل "إجازة" و "اليثيا ألونسو ترقص فى رأسى" و "رودولفو" و "لا تقل لها إنك تحبها" و "مثل تلميذ بسيط" و "دانييل" و "تحت شجرة السوسن" . . . إلخ ، وكل هذه القصص تدور حول نفسية الطفل ، وبعضها يتحدث عن الشاب فى مرحلة المراهقة.

أما قصة "الذئب والغابة والرجل الجديد" فهى تتحدث عن الشباب والحرية ، وقد فازت بجائزة المكسيك الدولية لعام ١٩٩٠ ، ويعتبرها النقاد حدا فاصلا فى تطور القصة القصيرة فى كوبا.[٦] .

كما نشر سنيل أيضا "الأختان" وهى قصة قصيرة ، و"عزيزى دييجو" وهى مسرحية نشرت فى إسبانيا والمكسيك . هذا بالإضافة إلى "ملك فى الحديقة" التى فازت بجائزة النقاد فى كوبا لعام ١٩٩٣

(٦) انظر Francisco Lopez Sacha "A mi querido colega Victor Fowler para dias de mayor entusiasmo" (en La Gaceta de Cuba, Num. 2 marzo-abril 2000, p. 29)

**ملك فى الحديقة :**

تتحدث الرواية عن معاناة أسرة ريفية فقيرة فى كوبا فى عهد ما قبل ثورة ١٩٥٩ . والمؤلف يروى الأحداث من وجهتى نظر: وجهة نظر الطفل ذى الخيال الواسع ووجهة نظر الجدة التى تتسم بالواقعية الشديدة . الطفل الذى لا نعرف له اسما يسمع لغة الزهور والدجاجات وعباد الشمس والفراشات والبغلة. . .إلخ. ، وروايته الخيالية للأحداث تتعارض تعارضا شديدا مع الواقع المؤلم الذى عاشه المجتمع الكوبى قبل الثورة: استغلال الغنى للفقير والاستيلاء على أرضه (السيدة فلورندا استطاعت فى النهاية أن تطرد أسرة الطفل من الأرض ومن البيت ، والسيدة انريكيتا استغلت خادمتها مقابل قروش زهيدة ثم طردتها من بيتها شر طردة) .

يتناول سنيل كذلك وضع المرأة المتدنى فى كوبا رغم تأثيرها الكبير على النشء. إن الجدة دائمة الحديث عن رغبة فيليكس فى إنجاب أولاد ذكور ، بل إن الجدة نفسها لن تسامح ابنتها على أخطائها الكثيرة إلا إذا تحولت البنتان إلى ولدين!! والأم تتحدث عن ضرورة تعليم الطفل ، أما البنتان فيكفى أن تتزوجا برجلين صالحين . مجتمع كوبا قبل الثورة يحتقر المرأة ويسىء إليها ، أما عندما تنتصر الثورة فإن المرأة تخرج إلى الشارع وتشارك فى الاحتفالات -وما يلى ذلك من نشاط اجتماعى- جنبا إلى جنب مع الرجل.

يختلط الواقع بالخيال فى الرواية ، فبعيدا عن الخيال المحض الذى تجود به قريحة الطفل (امتطاء الفراشة والتحليق عاليا ، حواراته مع

عباد الشمس والدجاجـات . .إلخ) فإننا لا ندرى على وجه اليقين هل كانت قـصة الرجل الجريح المخـتبئ بين شجـيرات الخروع خـيالا من خـيالات الطفـل أم كان حـدثا من أحـداث الرواية ؟ ويدور فى نفس القارئ نفس الـتساؤل بشـأن ذلك الحصان الذى جـاء إلى حقل عـباد الشمس كسحابة حمراء .

الطفل الملك -وهـو دون شك سنيل الصـغـيـر- يحـتل البطولة المطلقة : مداخلاته تحتل ما يقرب من ثلثى الرواية ، هذا بالإضافة إلى أن حـديث الجدة مـوجـه إليه هو دون إخـوته فى أغلب الأحـوال ، والمؤلف يريد إبراز الفرق الجـوهرى بين رواية الطفل للأحداث ورواية الجدة ؛ فهذه واقعية وتلك خيـالية . إنه يستخدم الفعل المضارع دائما مع الطفل ، أمـا الجدة فـهى تستـخـدم الفعل الماضى . ولكى يؤكـد المؤلف الفرق بين الطفل والجدة فإنه يستخدم إمكانيات الطباعة الحديثة فـيكتب مـداخلات الطفل بحـروف عـادية ويكتب مـداخلات الجـدة بحروف مائلة.

أسلوب سنيل ساحر ، فـالقارئ لا تكاد تفارقه الابتسـامة عندما يطالع مـا تكتبـه الجدة عن ابنتـهـا -هى دائمة السـخط عليهـا وعلى أحفادها الذين يختلفون اختلافا جذريا عن أطفال زمان ، زمانها هى- وقد وصل سنيل فى بـعض الأحيان إلى حـد استخـدام العاميـة حتى لكأنك تستمع إلى فلاحة عجوز لا إلى كاتب من الطراز الأول . هذا الاستخدام للعامية يجـعل اتصال الكاتب بالقارئ اتصالا وثيقا ، لكننا لا ينبغى أن نظن أن اختيـار الألفاظ والتعبيرات العاميـة وتوظيفها دون

إخلال باللغة الفصحى عملية سهلة . إن الكتاب الذين استطاعوا ذلك قلائل.

تبقى نقطة أخيرة وهى تتعلق بالمؤلفين الذين تأثر بهم سنيل باث. يحدد إيفراين باراداس (٧) اسمين على وجه التحديد هما خوسيه مارتى وجارثيا ماركيث ، ويسوق أدلة على تأثر سنيل بمارتى لا نملك معها إلا أن نقره على ما ذهب إليه ، أما ماركيث فيذكر اسمه دون دليل.

سنيل يعترف بتأثره بكل من خوسيه مارتى وأونيليو خورخى كاردوسو (١٨٨٦ - ١٩١٤) ويرى أن هناك تشابها كبيرا بين أعماله وأعمال رينالدو أريناس المولود فى ١٩٤٣ والمتوفى فى نيويورك. يقول إن هناك أوجه تشابه كثيرة بين "ملك فى الحديقة" ورواية "قبل الفجر" لأريناس ، ويعزى ذلك إلى تشابه الظروف العائلية لكل منهما وإلى نشأة كل منهما فى الريف.

أما من ناحيتى فإننى أجد أكثر من سبب يدعونى إلى التفكير فى تأثير الروائى الإسبانى ميجيل ديليبيس: مداخلات الجدة فى "ملك فى الحديقة" تذكرنا - من عدة أوجه - بحديث زوجة ماريو فى رواية "خمس ساعات مع ماريو" ، ثم هذا الطفل الملك يذكرنا بطفل أمير احتل البطولة فى رواية "الأمير المخلوع" لديليبيس . وهناك جانب آخر: سنيل يكتب صفحتين كاملتين من روايته دون وضع علامات

(٧) انظر Efrain Barradas (Un rey en el jerdin : verosimilitud, historia y estilo (,en Casa de las Americas ) Cuba).

ترقيم حتى تكون للنص أكثر من قراءة ، وهو ما يذكرنا بما فعله ديليبيس فى إحدى رواياته.

الرواية فى النهاية مسلية وممتعة خاصة بالنسبة للقارئ الذى نشأ فى الريف المصرى قبل أن تدخله الكهرباء ، إذ سيجد فيها ما يذكره بأيام جميلة خلت لم يتبق منها إلا الذكرى. سيجد القارئ كذلك من خلال الرواية أن تشابه ظروف الحياة فى كوبا ومصر أكثر مما يظن الكثيرون.

لا يسعنى فى النهاية إلا أن أعبر عن خالص شكرى لسنيل باث الذى تحمل فى صبر أسئلتى الكثيرة ، وقدم لى كل ما احتجت إليه من عون ، وللأستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة على استجابته الفورية لنشر هذا الكتاب فى إطار المشروع القومى للترجمة.

**جمال عبد الرحمن**

بنى مجد فى نوفمبر ٢٠٠١

# ( ١ )

بيتى هناك ، تحيطه الأعشاب والشجيرات وشجر اللبلاب الذى يتسلق الجدران ، والذى يصل مستوى ارتفاعه إلى السقف ، والزهور كلها متفتحة ورائحتها عطرة ، سواء تلك التى تتفتح نهارا أو تلك التى تتفتح ليلا ، والبريق يلمع ، ومن فوق تبدو السماء كبيرة والسحاب أبيض ، ومن جميع الجهات تبدو التلال بعيدة جدا . مراتع الخيول والأشجار الصغيرة تبدو زرقاء ، كما تظهر أراضى السيدة فلورندا وقد حرثت، وتظهر طيور مالك الحزين.

وهأنذا أكاد أقترب من الطريق ، جالس على الحشائش، عار أتأمل ، الآن أرى أختاى اللتين تعانيان من نوبة برد تنظران من النافذة وتتباريان أيهما تصل بصقتها إلى مسافة أبعد ، وفى النافذة الأخرى - الزرقاء - أرى أمى تطرز وشعرها ملئ بالزهور وتهش عن رأسها الفراشات ، وفى آخر البيت ، بمعجزة تقريبا، أرى جدتى تمر وهى تدخن سيجارها . السيجار لا أراه ، لكننى أعلم أنها تدخن.

أنا أريد أن أتواجد حيث أنا ، وأن أكون فى نفس الوقت داخل البيت ، وأن أعرف كيف الحال الآن تحت المقاعد وخلف الأبواب ، وماذا تفعل الكراسى وحيدة فى الصالة. يقولون إن البيت ينهار ، سينهار بين لحظة وأخرى. مسكينة جدتى، ستضطر إلى أن تخرج مسرعة نحو شجرة الكاميتو. إنها لا تخرج إلى فناء البيت مطلقا ولا تطل من النوافذ أو من الباب كثيرا. يمنعها من ذلك أحد نذورها

الخمسة ، ومع ذلك فقد خرجت ذات يوم . كنا نحن الأخوة الثلاثة نسير كل واحد خلف الآخر ونحن نغنى ، وكنا قد وصلنا إلى هذا المقطع من الأغنية الذى يقول " شمعة فى اليد ، شمعة فى اليد" حين رأتنا الجدة بجوار النباتات . انطفأت منا الشموع ونادتنا الجدة "تعالوا أنتم الثلاثة" ، وبدأ حلول الظلام . قالت الجدة: " من هنا إلى هنا مكان البنتين ، ومن هنا إلى هنا للولد ، كل واحد فى مكانه، لا يلعب الأولاد والبنات معا" . قالت ذلك ودخلت المنزل كالبرق قبل أن يسقط شعاع على النباتات وقبيل أن يبدأ الرعد. كان معى فى جيبى قواقع من تلك التى تجلب لى الحظ ، فكان نصيبى فى التقسيم أشجار الخروع وعباد الشمس والنخلتين خلف المطبخ ، وهو أفضل مكان فى الحديقة.

منذ ذلك الحين وأنا أتجول فى الفناء ، أضطجع على الأرض وأشم وأتأمل ، هذا ما أفعله . ليس هناك شىء يعجبنى كالتأمل. فى وقت الظهيرة يخرج من الحقول بخار أرى البيت من خلاله يتراقص ، تتراقص الأشجار، تتراقص الأرض ، وتتراقص النخلتان. أكثر ما أنظر إليه هو البيت بسقفه المصنوع من الخوص ، ثم السماء ،لأن فى بعض الأيام تمر سحابة عبارة عن حصان أحمر. فى بعض الأحيان تنشغل أمى فى التطريز بجوار النافذة وحينئذ أنظر إليها. شعر أمى أسود وأطول من شعور كل النساء، تزينه بأزهار صفراء وحمراء . إذا لم تكن هناك زهور صفراء فلا بأس ، أما الزهور الحمراء فلا تنقصها أبدًا ، نهارًا أو ليلاً . لا تنقصها الزهور الحمراء و أحضرها أنا لها دائمًا .أنا الآن بين أشجار الخروع وعبرأوراقها الكبيرة التى تشبه المظلات أرى أمى تطرز بجوار النافذة . أمى لها جناحان كبيران

أبيضان ينبتان عند ظهرهـا. الجدة لا تدعنا نتحدث عن ذلك ، خاصة أمام الجد ، وتجبر أمى على أن تضع على كـتفيها تلك الملاءات الملونة فلا تضعـها عنها أبدًا ؛ لهذا تبـدو أمى من بعيد كبـاقة من الزهور ، ويختلط الأمر على الفراشات فتطير حتى النافذة . أتمنى أن تخرج أمى إلى الفناء ، لا بالثوب الباهت وإنما بالجونلة الحمـراء الواسعة وحذائها العالى وشعـرها المليء بالزهور وفى يدها إبريق من عصيـر الليمون . كـانت أمى قبل ذلـك تأتى إلى الفناء كـثيـرًا ولم يكن يهـمنا فى أى جانب تسـير وكنا نحن الأخـوة الثلاثة نسـير بجـوارها ونصطاد نحن الأربعة الفـراشات و نغنى . أما الآن فـلا ، إنها لا ترفع عينيـها عن التطريز ولا تشكو حتى لو وخزت الإبرة أصابعها .

ليس هناك بيت به فراشات و دبابيـر مثل هذا البيت. إن الجارات تأتين ومعهن أكياس لاصطياد الفراشات ثم يثبتنها من أجنحتها فى فناء بيوتهن بإبر الخياطة، لكن الفراشـات تعود بمجرد أن تطلقها الجارات. يعجـبها أن تمكث هنا معـى. ذات مرة وجدت عظمة فـرسمت ثلاثة صلبان على عـيون السمكة التى فى ركبـتى. يجب أن نفعل ذلك إذا وجدنا عظمـة ، وأردنا أن تسقط عيون السـمكة، بعد ذلك يجب أن نلقى العظمـة وراء ظهـرنا دون أن ننظر أين سـقطت ، لكننى دائمـا أذهب وأنظر، وعندما ذهبت تلك المرة نادتنى فراشة " يا ولد" . كنت ذات مرة أسـير فى الـفناء كالعـادة ، لكننى كنت أسيـر ببطء ، كنت أخطو خطوة ثم خطوة أخرى صـغيرة على أطراف أصابعى كـحركات لص ، وشاهدت - كم كـانت جميلة! - فـراشة ترفرف بجناحيـها

ببطء فوق عباد الشمس. كانت تبدو كزهرة فوق زهرة ، كانت تبدو مثل أمي في الحديقة ، كانت تبدو كشيء لا مثيل له. كانت تتلألأ ، جناحاها كبيران ، صفرتهما زاهية . كانت تحرك ملايين الأرجل وتقلب ملايين العيون وقرون الاستشعار، لكنها لم تشم رائحتي حين اقتربت . لم أكن أتنفس. لم يكن يُسمع سوى صوت الحشائش، وتقدمت. تقدمت وفجأة قبضت قبضة و أمسكت بها وقفزت سريعا فوقها فأقلعنا طائرين. كانت مندهشة ، مسرورة، خائفة، تضحك كمنتصرة دون أن تفهم. وارتقينا ثم ارتقينا. " أمي ، تعالى انظرى ، تعالى" . كانت الزهور هناك أسفل منا وكذلك عباد الشمس . " إلى اللقاء يا عباد الشمس ، يا أمي ، يا جدتي ، يا أخوتي" . كم ارتفعنا ! يا للضحك ، يا للسعادة ! يا لها من أجنحة كبيرة! كان البيت يصغر و الفراشة تطير وتدور ، وفجأة بدأت في الاهتزاز ، "ألا تقدر عليّ؟" "هيا أيتها الفراشة الصفراء إلى أعلى ولا تهبطي إلى أسفل" . اقتربنا من الأرض ودخلنا من النافذة . "أمي، جدتي، ها أنذا أمتطي الفراشة" في اتجاه الحائط. سأموت. والآن في اتجاه المرآة. لكن لا . "انظروا" ثم نخرج ونرتفع إلى مستوى أعلى من مستوى المنزل وأعلى من مستوى شجرة الصنوبر. أعلى من أي شيء. ألا تستطيعين الارتفاع أكثر من ذلك أيتها الفراشة؟ " إلى أعلى أيتها الصفراء" " هل تعبت؟ هل ترفرفين بصعوبة أيتها الفراشة؟" "حلّقي" ها هو البيت من أسفلنا يكبر . " هل تلهثين؟" شجرة الصنوبر ثم فروع شجرة الصنوبر وفي النهاية هبطت وهي تتنفس

بصعوبة ومغـشيا عليها ، أما أنا فقد نزلت مـزهوا وقبعتى فى يدى . نظرت إليها ورأيت أنها لم يعجبها ما فعلته بها. دنوت منها وقلت لها تعـالى مرة أخـرى إلى فنائى غدا ولن أفـعل بك ذلك مرة أخـرى" ، وخرجت مسرعا وباكيا.

الوعود التى قطعتـها جدتى على نفسها خمـسة. أولها ألا تقص شعرها، إذ طلبت وهى فتاة صغيرة من تمثال يسوع الموجود فى الصالة - وكان ملكا لأمها- أن يوقع بزوجة أبيها عقابا كبيرا. طالت ضفائرها منذ ذلك الحـين وطالت. هى تمشطها فى أوقـات المساء وتـلفهـا عدة لفات حـول رأسها ثم تعقـدها عند الرقبة. ومن الوعـود الأخرى أن ترتدى الثياب البـيضاء دائما وأن تضع حول وسطها حـزاما أصفر إلى أن تنام ، وذلك لأنها عندما تزوجت جدى طلبت من العذراء أن تهبها ولدا جمـيلا مـثل ابنها. كانت جـدتى تعلم أنه لو ولد لهـا ابن ذكر فسيقلع جدى عن شرب الخمر ، ورغم أن العذراء وهبتها أمى إلا أن جدتى كانت قـد اشترت القماش وظنت أن عـدم ارتدائه إلحاد . وقد قطعت على نفسـها الوعد الثالث خوفـا من أن تفقد بصرها كعـماتها الثـلاث رحمـهن الله ، وهدا الوعـد هو أن ترتدى بلوزات مرسـوم عليـها عـيون القـديسة لوثيـا وألا تخلع هذه الرسوم أبدًا . الـوعد الرابع، هذا الذى لا يدعها تخرج إلى الفناء أو تطل من النافذة أو من البـاب لفتـرات طويلة ، كـان شكرا للسـماء أن أرسلت الماعـز التى أنقذتنى وأنا صغير . والوعـد الأخير هو أن تصلى لا أدرى كم صلاة وكم دعاء عند الذهاب للنوم وعند الاستيـقاظ ، هذا بخلاف الأشعار

التى ترددها طوال النهار. هكذا فقط امتنع جدى عن الشراب والقمار. لا يريد الجد حتى مجرد سماع الحديث عن ذلك. ليس على الجد ولا على أخواتى ولا علىّ نذور . وأمى عليها نذر واحد لا يدرى أحد كنهه ولا من أجل ماذا. أتمنى لو أن أحدا قطع على نفسه وعدا أن أمشى حافيا حتى يوم زواجى مثل ابن السيدة روسا.

الجدة ليست أطول منا كثيرا ، لذلك كل شئ فى البيت موضوع على ارتفاع منخفض حتى أننا -نحن الأطفال- نكاد نصل إليه. وهى نحيفة ، وهى آخر من يأكل خلف الموقد، وتأكل ما يتبقى فى الأوانى، وتشرب بعد ذلك قدرا صغيرا من القهوة، تضعه فى زجاجة داكنة اللون حتى نظن أنه دواء ، ترتدى جونلة واسعة، جيوبها عميقة، نجد فيها نحن الأطفال ما يكون قد ضاع منا، بغض النظر عن المكان الذى فقدناه فيه. وفوق الجونلة مريلة بنفس الاتساع و نفس اللون الأبيض ولها جيوب أيضا تحفظ فيها التبغ. تلف هى السجائر بنفسها وتدخنها متخفية خلال النهار دون أن يراها الجد. وفى المساء والليل -عندما يكون الجد موجودا- تحفظ السجائر فى المطبخ وتتمشى قليلا لكى تأخذ نفسا. تسرنى رؤيتها وهى تطبخ أو عندما تتمشى فى الردهة حين تتحرك جونلتها فتمس الأرض أو وهى تبرّد القهوة باللبن بأن تفرغهما من إبريق وتصبهما فى إبريق آخر. وليس هناك أحسن من أن تجلس على مقعدها فينطبق المقعد انطباقا، أو أن تعقد يديها فوق المريلة ، وأن تبدأ - فى أية ساعة كانت- فى حكاية قصص عندما كانت هى أو أمى أو نحن صغارا، أو عندما كانوا يعيشون فى

جهة أخرى. حينذاك لم تكن الفراشات تطير. كانت القطط تأتى وتجلس للاستماع إليها، وكان الظلام يأتى بعد ذلك. أما إذا ظهرت خلال ذلك أول فراشة ليلية وهى تلمع فكان لابد أن تكون الحكاية مسلية جدا حتى لا أنظر إلى الفراشة ولو بطرف عينى مرة ما. الفراشات الليلية صديقاتى. الجد يمنع أن نكلّم الجدة بصوت عال، أو أن نغضبها. يجب أن نحسن الأدب معها ، وأن نساعدها على أن تتخلص بعض الشىء من أعبائها حتى تستريح فى أوقات الظهر، فالجدة من ذهب ولا توجد مثيلتها، ويوما ما سنفتقدها وحينئذ سنعرف قيمتها. الجدة بها شامة فى ذراعيها وشامات صغيرة ومستديرة فوق يديها. إنها جدتنا.

جدى لا يتواجد فى البيت إطلاقا . يخرج قبل أن نستيقظ نحن الأطفال. قبل ذلك يحمل إلينا القهوة إلى مضاجعنا ويقبّلنا قائلا "كونوا مؤدبين ولا تكونوا مزعجين وإلا فلن أحضر لكم شيئا عندما أعود" . يجهّز العربة والبضائع ويضع البغلة مارجريتا فى العربة ويخرج إلى الطريق بقبعته البالية وبنطلونه الواسع وهو يغنى أغنية ما من الأغنيات الكثيرة التى يعرفها. يعود فى الليل تقريبا، بعد أن نكون وأمنا قد اغتسلنا وأصلحنا من شأننا، وعندما تكون الجدة تمشط شعرها وتبقى جالسة فى مقعدها. هى أكثر من ينتظره. تنتظره أمى أيضا وهى تطل من النافذة أو وهى تطرز فى صمت. تترك عملها كل فترة وتذهب إلى الطريق وتنظر إلى بعيد. تسأل الجدة "أهو قادم؟" فتجيب أمى "لا ، حتى الآن" . أما إذا رأته فإنها تصيح فجأة "هاهو

قادم، ها هو قادم" وتصلح من وضع الزهور على رأسها. وإذا كانت الجدة هـى التى رأته فإنهـا تنادى : "يا أولاد، يا أولاد، انظروا ها هو فيليكس. اذهبوا للحـاق به" وتنفض ثوبها وتعدل تسريحتـها. أما إذا رأيناه نحن فإننا نخرج مسرعـين "جدى، جدى، ماذا أحضرت لنا؟" وإذا كانت الفراشـات الليلية هى التى رأته فإنها تشكل حومـة ضخمة طائرة ومـضيـئة فى الطريق حـتى نعرف أن جـدنا قادم. يأتى بعـربة البضائع ومـرتديا بنطلونه الواسع. نطير لاستقباله ، ويالـها من فرحة ومن قفزات! : "جدى، جدى. أنا الذى رأيتك أولا" . كم تسرع أمى وجدتى ! و كم هـما مسـروروتان وتلحقـان به أيضا، فـتحمـلان عنه الأشيـاء الثقيلة. إنه يـحملنا ونحن سعـداء. يقبّلنا ويبـتسم. لم يبع شيئا. هل كنا مؤدبين؟. اليوم لم يحضر لنا حلوى. "لم تحضر لنا يا جـدى؟ . يالك من شرير!" . تـنبعث منه رائحـة الحـقل والطريق. يتركنا نحضر البغلة والعربة حتى البيت ، ويجرها كل منا لحظة ، دون أن نتشاجر. حينئذ تبـدأ الجدة فى إعداد المائدة ، وتبتسم للمرة الأولى خـلال اليوم. يجلس هو على أفـضل مـقعـد. " انزلوا من فوقـه يا أولاد، ودعوه يستريح، فالمسكين جاء مرهقا، ولا تسدوا له النافذة ، فالهواء يدخل منهـا" . ثم ترينه ما حطمناه فيتشـاجر ويؤنب ونرتعد. تنظف المائدة ، وعندئذ يكون مـاء الحمـام جاهزا. تقف أمى بـجوار الطشت ومعها الفرشاة ومرآة الحلاقة الصغيرة. ونريه نحن أكبر فراشة اصطدناها و أكبر قـوقعة وجدناها وآخر قفـزة اخترعناها، ونطلب منه أن يقوم ببعض الأشياء العجيبة، أن يخرج أوراق الكوتشينة من أذنيه،

أن يغنى أو أن يرقص ، وهو قد خدعنا ، لأنه أحضر بالفعل قراطيس وردية مليئة بالحلوى ، لكن لا لكى نأكلها الآن وإنما بعد تناول الطعام. لهذا نتناول طعامنا كله. ذات مرة أهدانى الجد ثلاثة أباريق من الفخار وثلاثة أطباق من الألومنيوم وصنع هو بنفسه الكراسى التى نجلس عليها ووضع عليها الحروف الأولى من أسمائنا . ولو أن إحدى القطط ولدت فإن الجد يأخذ القطط الصغيرة من ذيولها ويضعها فوق جذع الشجرة الذى يدق فوقه الحطب ثم يقطع رأسها بضربة واحدة بالساطور. عقب ذلك لا نريد أن ننظر إليه أو أن نقبّله، لكن الجدة توضح لنا أن ما فعله الجد ليس إثما لأن القطط لا تزال مغمضة العينين و لم تر الدنيا. إن الذنب الأكبر هو أن نتركهم أحياء يقاسون دون وجود شيء يأكلونه.

الجد هو الذى يذوق الحساء ، وهو الذى تقدّم إليه الأطباق أولا ، وهو الذى يرأس المائدة، وهو الذى يقرر متى نستطيع أن ننهض ، وهو الذى يمتدح ضفائر جدتى وزهور أمى. وأمى تريه تطريزها وهو يقول ما إذا كان التطريز جيدا و بأى لون يجب أن تكون العصافير المرسومة وألوان العرائس ، وهو أكثر الناس علما بالتوابل والحلويات المنزلية، وهو الذى يحدد مواعيد الهدوء وأوقات الضجيج ودائما يقول "هيا نتمشى" فنخرج للتجول فى الطريق أو نصل حتى النهر ونجلس تحت أشجار الورد لكى نشم رائحتها ونستمع إلى حكاياته عن جزر الكنارى ، رغم أن الجدة - إحقاقا للحق- أفضل منه فى الحكايات. نفضّل أن يرقص ويغنى وأن يصنع الأعاجيب . والجد كبير

السن جدا لكن شعره أسود وضحكته مرحة، ويا لرشاقته وهو يدخن! وله شامتــان فى جبهتــه ، وفى الليل تضع له الجدة المراهم وتدلّك له جــسده لأنــه يشكو من آلام غــريبة أعــلى الساق . الجــد هو الجــد: ساحر، رغم أن الأمور لا تسير معه أحيانا على ما يرام . إن الجدة - لكى تذهب به إلى إحدى العيــادات - قد باعت الدجاجات والملابس التى كانت تمتلكها وباعت أسنانها الذهبيــة وأجّرت البغلة ماجريتا لمدة شهرين . أما نحن فقد حملتنا إلى بيت جدينا لأبينا.

نعم ، عندما يمــرض أحد أو- ببساطة - عندمــا تقف الجدة فى مواجهــتنا وتقول " لقد ساء الأمر" فإنهم يحــملوننا إلى بيت جدينا لأبينا . وجــدتنا بنفــسهــا هى التى تصــحبنــا ، ونحن الذين نطأطئ الرءوس ولا نريد أن نذهب ، لأن أمى تقــول إنها تفــضّل الموت على التواجد هناك . فى أحيان أخــرى يتركوننا فى بيت القابلة أو فى بيت كلوتيلدى ابنة عم أمى أو فى بيت السيــد خيرفاسيــو الذى لا أدرى ما هى صلة قرابته لنا . لا يتركــوننا نحن الثلاثة فى مكان واحد ، وإنما يتــركــون كل واحــد منا فى مكان ، أو يتــركــون أخــواتى فى مكان ويتركوننى فى مكان آخر بعد أن يوصونا بأن نتصرف بأدب وبأن نأكل مــا يقــدم لنا وبألا نطلــب شيــئــا بأى شــكل وبألا نرفض أبدا . ولا تستطيع جــدتنا أن تسمع شكوى منا لأى ســبب . وإذا أمضــينا اليوم جالسين فى مقاعدنا صامــتين ومنفذين الأوامر فذلك خير . فى بيت مونديتو يتركوننى أنا فقط لأن أخواتى قد كبرن وابن مونديتو أيضا قد كبر وربما يكون قليل الحــياء مثل عمه رحمــه الله . يقول جدى لأبى

إننا لا يمكن أن نتواجد فى بيتـه نحن الثلاثة ولا اثنين منا إلا إذا كان لضرورة قـصوى لأننا بكل تأكـيد نسـبب إزعاجاً لجـدتنا لأبينا ولأننا نمرض لأتفه الأسباب ولأننا كثـيرون ، أما إذا ذهب أحدنا فى أسبوع وآخر فى أسبوع آخر وآخر فى أسبوع آخر فنعم . ويقول أيضاً إن أمى تستطيع أن تزورهم فى أى وقت تشـاء ، فهى لم تكن المخطئة بل إن المخطئ كان والدى و أننا لا ذنب لنا . أما من لا يروق لهن أن تذهب أمى فهن عـماتى الطويلات العانسـات ، فبمجـرد أن يسمعن اسمـها يضـعن مكنسـة بملح وراء البـاب ويحـتـجبن فى حـجـراتهن وهن متحفـزات . وأقل ما يعجبهن فينا أننا نتفـحص كل شىء وأننا نتبول فى السرير من قلة أدبنا ، مع أنهم يوصـوننا بعدم فعل ذلك . المكان الذى نستطيع أن نتـبول حيث نشاء هو بيت العـمة كلوتيلدى . هناك ننام نحن أولاد العم الصغـار كلنا معا وفى الصبـاح لا يدرى أحد من هو الطفل الذى تبـول. ولكن مـا يحدث هو أننـا لا نتبـول فى بيت العمـة كلوتيلدى ، لا أخواتى ولا أنا . لا أدرى ما إذا كـانت جدتى لأبى يروقـها أن تأتـى أمى ، فعندمـا تحضرنا جـدتى أوعندمـا تأتى لتأخـذنا تجلس الجدتان فى غـرفة الطعـام وتشرعان فـى الحديث عن الأشخـاص الذين تعرفـانهم . وإذا تعيّن علـى عماتى المرور فـإنهن يحيين " كيف حالك يا أديلا ألـفيرا؟ " ثم يمضين . رغم كل ذلك يكفى أن يـقـول جـدى لأبى إننا يـمكن أن نذهب إلى هـناك لكى نذهب. يكفى أن يقول إن أمى يمـكن أن تذهب لكى تذهب ، فلا أحد يجرؤ على مخالفة ذلك الجد . ولا حتى الدجاجات .

لا يمكن لأحد أن يقول " لا " في ذلك البيت ولا يمكن لأحد أن يتكلم مع الأعشاب أو أن يتحدث مع فراشة أو شجرة . يقدمون لأحدنا الطعام دون أن يسألونه ماذا يحب ، وعلينا أن نتناول الأكل كله دون كلام ، ويحدث نفس الشيء إذا كان الأكل هو قلقاس أو عجة الصباح، فبمجرد أن أفكر في الاحتجاج تنظر إليّ عماتي شزرا و تقلن إنه إذا لم يعجبني الطعام فلأرحل . ويسألنني إذا كنت آكل في بيتي أفضل من هذا الطعام ، وأن هذا الطعام لا أدفع فيه شيئاً، لا أنا ولا أمي . إن الواحد منا يجب أن يعمل وأن يكون يقظاً، فالجد لا يقول " أحضر ماء . اذهب وغيّر هذه البطانية التي في الشمس . ابحث عن البيض في عش الدجاجة التي أسمعها تصيح " لا ، بل يقول "الزير ليس به ماء والبطانية تحترق من الشمس وأسمع دجاجة تصيح" ويجب أن أكون قريباً حين يقول ذلك ، ويجب أن أعرف أن هذا واجب الأولاد . ياحظي التعس إذا لم أسمعه ورأى بعد لحظة أن البطانية لا تزال في الشمس! . من حسن الحظ أن الجدة وعماتي يسارعن بإبلاغي ما يريد الجد، فآخر ما يردنه هو أن يرينه عصبيّاً .

أنف هذا الجد طويلة وهي ترتكز على شاربه . تتحرك عندما يأكل . وهو لا يتواجد في البيت مطلقاً إلا في ساعة الغداء أو في ساعة العشاء . يقول إن البيت للنساء والأطفال. الشيء الوحيد الذي يقوم به في البيت هو ملء الساعات في الظهر وعند النوم . إذا خرج منه ريح بصوت مسموع فحين يفعل ذلك لا يستطيع أحد أن يضحك أو أن ينظر إلى شخص آخر. لا يستطيع ذلك حتى لو

كانت الـرائحة كريـهة . يجب أن يظل أحـدنا فى مكانه وأن يتظاهر بأنه لم ينتبـه لذلك . إذ لا يمكن ألا نحتـرم الجد. حتى البـقرات لا يسـتطعن ذلك، فهـو إذا دعاهن تـدخلن إلى الحظيرة طائعـات دون خوار ، وهن يستسلمن للحـلب فى هدوء . وعندما تراه الدجاجات يأتى فـإنهن يخـرجن من المطبخ دون أن يطردهن أحـد ويتـصـايحن بصوت منخفض، وترفع القطط ظهـورها وتمشى على أطرافها ، إذ ما معـنى أن تنام القطط تحت المائدة بدلاً من صيـد الفئـران ؟ لا يدخن أحد أمـامه . صوته لا يكون رقيـقاً إلا إذا وجه حديثـه إلى الجدة . حينئذ تهدأ عيناه وتلمعان . الجدة اسمها زنيدة وهى ليست صينية ولا سوداءً لـكنه يدعوها هكذا : صـينية أو سـوداء . يتحـدث إليهـا فى عذوبة حـتى لو كان لمجرد أن يطلب أن تقـرّب إليه شيـئاً على المائدة ليس فى متناول يده . وعندما يمـر بجانبها يوقفهـا ليصلح لها وضع خصلة شعـر أو لكى ينزع عنها شيـئاً ما قد علق بها ، وتـستغل هى الفرصـة وتصحح وضع ياقة قمـيصه . يناديها إلى فناء البـيت عندما يروق له ويتحادثان بصوت منخفض تحت الشـجرة ، اسمه باستور ، لكننا نحن الأخوة عندما نكون بمفردنا ولا يسمعنا أحد ندعوه "زيندو العجوز" .

فى فـجر ذات يوم كنت مع الجـدة فى غـرفة الطعـام أنتظر أن ينقشع الضباب حتى أذهب إلى الحـظيرة وأرى أعمامى وهم يجلبون آخر البـقرات عندما دخل الجـد . ظللت ساكناً تماماً ، جـالساً على مقـعدى . سـألنى فجـأة : "هل تعلم فى أى يوم نحن ؟" لم أكن أعرف، فنظرت إلى جدتى كى تساعـدنى . أجاب هو بنفسه " اليوم

هو يوم العيد وسنشوى خنزيراً . لكن ليس هذا هو المهم وإنما المهم هو أن أباك سيأتى وستتعرف عليه . مشّطوا له شعره وألبسوه ثيابه مبكراً ويجب ألا تتسخ ملابسه حتى يجده أبوه مهندماً "

أول ما قررت أن أفعله هو ألا آكل يوسفى ولا جوافة حتى أشعر بجوع شديد فآكل كثيراً أمام أبى عندما يضعون المائدة. وعندما علمت عماتى بمقدم أبى فرحن جدا وقلن إنهن سينظفن البيت وسيغسلن الأثاث . ومشّطن لى شعرى وألبسونى ثيابى . ذهبت إلى الفناء مرتديا قبعتى لكى أختار المكان الذى سأنتظر فيه أبى .عندما رأتنى الدجاجات أخرج سألننى "إلى أين يذهب هذا الطفل بكل هذه الأناقة ؟ أيظن أنه مونديتو جوتييريث؟" ، لكننى لم ألق بالا لهن وقلت للرياحين التى تتفتح فى الساعة العاشرة أن تتفتح فى التاسعة، وطلبت من رياحين المساء أن تفوح عطرا فى النهار وطلبت من الفراشات أن ترقب الطريق وأن تطير عندما يظهر أبى ، وطلبت من القطط أن تصيد كل منها فأرا وأن تستقبل أبى والفأر بين أسنانها حتى يعرف أنهم صيادون مهرة . توقفت فى وسط الورود ، تراودنى فكرة أن أظل هناك وأن أتظاهر بأنى لم أشهده حتى يسأل " ومن هو هذا الرجل الذى يحرس الشجرة ؟" "هذا هو ابنك" ، لكن الشمس كانت حارة فذهبت الى ظل شجرة الفناء وأخذت فأسا أقطع بها الحطب وأردت أن يقول أبى " ومن هو هذا الرجل الذى يعمل بجد ؟" فتجيبه الجدة أن هذا ابنك ، لكن بدا لى من الأفضل ألا أفعل لأن أعلى جذع الشجرة به نتوءات قبيحة المنظر، فذهبت إلى

شجـرة الصفـصاف ووقـفت هناك أنتظره فى وضع بدا كـوضع رعاة البقر أمثاله "من ذلك الرجل الجاد المهيب الذى يقف هناك ؟" " إنه ابنك" . " لا أصدق . ياله من كبير وجميل . تعال إلىّ يا بنىّ أريد أن أسلم عليك . كـيـف حـال إخوتـك وأمك ؟ بلغـهم تحـيـاتى" وتخيلت أنه سـيقول عندما أقـترب منه "إنه شبهى . الآن سـأقوم أنا بتربيته. سأصحبه الى كاماجى وسأدخله المدرسة" .

أبى هو ذلك الرجل الذى تعلق صورته فى الصالة ممـتطيا حصانا عندما كـان شابا صغيـرا. كانت له معجـبات أكثر مما كان لأعـمامى أرماندو وألبرتو مجتمـعين. هذا ما تذكره الجدة ، ليس لأنه ابنها وإنما لأنه لم يكن فى الحى أجمل منه أو من يضـاهيه رشاقة عندمـا يمتطى الحصان. أخواتى رأينه ذات مـرة وقلن لى إنه أطول من الجد وأضخم لكن له نفس صـوته ولـه نفس ضـحكة العم أرمـاندو وعـيـون العم أرمـاندو وأنف الجدة. العـم ألبرتو هو أكـثـر من يشبـهـه فى المشى والحـواجب ولأنه يتكلم هكذا كـمن يلقى الكلمـات من أحد جـانبى فمه. يروق للاثنين القمصان الكاروهات والقبعات السوداء ، ويبدوان كرعـاة البقر وهمـا فى الحقيـقة كذلك. أنـا أيضا أشبـهه. كل الناس يقولون ذلك. يعـرفون أننى ابنه بالشبه. تحدث لـى نفس الأشياء ولى نفس الشامة ونفس طريقة المشى والنوم، كل ذلك دون أن أراه قط إلا فى الصـورة المعلقـة فى الصـالة لأن الدم له قـوانينه. إنه نفس الدم. تقول الجدة إنه عندما كان طفلا كان أيضا صغيرا يبعث على الأسى، لكنه لم يكن يمرض كثيرا وكان يعمل أكثر منى. لا أستطيع أن أذكره

في بيتي. وعندما يقول أقارب أمي إنه قليل الحياء وإن أمي طيبة وإنني عندما أكبر يجب أن أرعى أمي وجدتي وأنه إذا احتاج مني شيئا أرفض وأن عليه أن يتذكر أنه لم يهتم بي في صغري- عندما يقولون ذلك أقول نعم إنني سأفعل ذلك ، لكنني أتحسر على أبي الذي قل حياؤه حتى أن كل الناس يتحدثون عنه بسوء.

أتخيل أحيانا أنني أبي وأنني مرسوم في الصالة أمتطي نفس الحصان وأنني أذهب إلى القرية وأحضر لجدتي الطلبات التي ‍ر حتى تحفظها في الخزانة القديمة. لا يمكن أن أنسى السكر المض أتزوج في الحال بأمي مرة أخرى. أحيانا أخرى أتخيل أنني أنام معه هو لا مع العم ألبرتو وأنه يغطيني حتى لا يلدغني الناموس. أتخيل أحيانا أنني أتجول راكبا الحصان الصغير ، لا مع العم أرماندو بل معه هو وأننا نتحادث: يسألني عن أخواتي وأدعوه لزيارتنا لكي نذبح أفضل دجاجة لدينا .

لكنه لم يكن قد جاء، وكان عليّ أن آكل برتقالة. وأكلت واحدة أخرى دون أن إنتبه ، ثم أكلت ثمرة جوافة دون أن أنتبه. وضاعت مني فرصة رؤية طعن الخنزير. لم أشاهد كيف أدخلوا فيه السكين ولا كيف يكون الخنزير المذبوح من الداخل. فرغت عماتي من تنظيف البيت والاستحمام. قالت لي جدتي نعم إن أبي سيأتي ، إنه على وشك الوصول. ذهبت إلى حيث النخل ونقلت الخبر إلى النخلات ، فهن صديقاتي وكن ينتظرن مجرد ظهوره حتى يهرعن لاستقباله. وضعت عماتي زهورا جديدة في كل الزهريات ووضعت الجدة مفرشا

أبيض نظيفا على ظهر كرسى لكى تفرشه عندما يكون أبى على مقربة من البيت. عندما سألتها مرة أخـرى قالت لى "هذا سيأتى فى الثانية عشـرة" لكن الثانية عـشرة مضت واضطررت إلى أن أقـول لرياحين 'الساعة العاشرة ألا ينغلقن فى الواحدة ورجوت زهور ياسمين الليل أن تظل رائحتهن تفوح. من حسن الحظ أن بعض العصـافير كانت تحتفل فوق الشجـرة ، أنا كنت أنصهر لأن شجرة الصـفصاف لا تغطى إلا

ستسألنى أمى بكل تأكـيد "ماذا قـال لك أبوك؟ هل وجدك جميلا؟ هل سألك عنا وعن أخواتك؟ وهل أعطاك نقودا؟"

سمعتُ عمتى روسا تقول فجأة وهى عند الباب:

- ها هو خواكين يأتى !

وألقت المكنسـة من يدها وأسـرعت إلى الداخل لتـعدل ثوبهـا. ردت جدتى وعماتى من المطبخ:

- ها هو خواكين يأتى !

وترك أعـمـامى الخـنزير الذى كـانوا يشـوونـه تحت الشـجـرة وأسـرعوا. جـدى وحـده هو الذى ظل هناك وعـدل وضع القـبعـة والحزام. بحثت القطط عن فئرانها وجاءت البقرات حتى السور ومعها أبناؤها حديثـو الولادة ، ولمع سقف البيت وهاجت الفـراشات وغنت العصافـير على الشجر وذهبت الدجـاجات حتى مقدمـة المنزل كما لو كانو قد وضعوا لها أذرة هناك.

خواكين أبى وقد رأيته على حصانه الأبيض يظهر ويختفى بين النخلات، لكن هناك فى الطريق . سيصل إلى باب المزرعة وسيسلك الطريق حتى البيت. فى تلك اللحظة لم يكن علىّ أن أخرج لاستقباله، بل بعد أن يعبر الترعة الصغيرة، عندما يبدأ الحصان فى الصعود وبعد أن يأتى متهاديا تحت ظلال الشجر. حينئذ سأرى وجهه.

خرجت جدتى لاستقباله مهرولة وهى ترتدى المريلة البيضاء المطرزة. ستأتى عماتى بعد ذلك وهن يضعن الزهور على شعورهن، ثم أعمامى والقطط والدنيا كلها تبتسم. وقد ظللت أنا حيث كنت ، تحت شجرة الصفصاف ، أضع إحدى قدمى على حجر ويدى فى وسطى كما لو كنت عمى ألبرتو وهو يتحدث. كان الجميع يأتون إلى الحديقة: رياحين الساعة العاشرة وزهور ياسمين الليل، وكانت الورود تسكب عبيرها وكذلك الياسمين. ها هو أبى يمر بين النخل. كان يضاهى النخل طولا ، و كانت النخلات قد أسرعت حتى حافة الطريق يصفقن له . كان الحصان الأبيض ضخما يلمع ، وكنت ترى أبى مبتسماً لا يعرف مفاجأة أننى هناك . وقد انفرط منى أول زرار فى القميص لشدة ما اتسع صدرى . لم تقاوم جدتى الإغراء فأسرعت . لحقت بأبى فى وسط البوابة و سمعت ضحكاتهم . مدّ إليها ذراعيه و رفعها على الحصان . كانت جدتى تقبله و نزعت عنه القبعة . قلت لنفسى "من الأفضل أن أذهب لأجمع الحطب تحت الشجرة" لكن لم يكن هناك وقت . كان أبى على وشك أن يرانى . كانت عماتى تنتظرن عند باب المزرعة . وضع أبى جدتى على الأرض ،

وفى قفـزة واحدة نزل وعـانق أول أخواته و قـبلها ثم فـعل ذلك مع الثـانية دون أن تتـركه الأولى و فـعل ذلك مع الثالثـة دون أن تتركـه الأولى أو الثانـية أو الجدة وحـان دور أعمـامى فى المعانقـة القوية . سمعـت صوت الربت على الظهر من مكانى وجاء الجـميع متعـانقين ضاحكين . كانوا يقـتربون من شجرة الصفـصاف. انفرط منى الزرار الثانى فى القمـيص وصاحت العصافيـر على كل الأغصان : "هاهم يصلون" . أخـيراً رأيت أبى . رأيتـه تمامًـا : مبـتسـماً، ظهـره إلى الشمس وقبعته فى يده . كم هو ضـخم وأسود الشعر وكم هى بيضاء أسنانه ! شعرت أنـنى لا أستطيع أن أقول " التحيـات يا أبى ، كيف حالك وكـيف حال زوجتك وأولادك الآخرين ؟" وشـعرت أننى لن أستطيع الإجابة عندما يسألنى عن إخـواتى وأسرتى . شعرت بالخجل لأن الكل يأتى ضاحكاً بينما أنا متجـمد ليس فىّ من حركة إلا عينان مفتوحتـان وكانوا على وشك المرور بجوارى دون أن يرونى . هاهو يمر . غيّرت من وضـعى مرتين متتاليتـين دون أن أتخلى عن تشبهى برعاة البقر، لكنهم لم يرونى . أطلقت كحـة ، قلت شيئاً ما : " ألم ترى لعبتى يا عـمتى روسا؟" . لم تسمعـنى . كانت الجدة هى التى أدارت ظهـرها ، لابد أنها هى صـاحبـة الزهور الكثيـرة المطرزة على مريلتهـا البيضاء . أبعدت بذراعـها أجساد العائلة وفـتحت طريقاً بين أبى وبينى ، أشارت إلىّ قائلة " أنظـر يا خواكين هاهو ابنك " لماذا لا توجد مـعى القوقعة التـى تجلب الحظ؟ كنت على وشك أن أجرى نحوه ، لكـن نظرته أوقفتنـى وانتظرت كلماته التى كـان سينطقـها .

قال: " عيون جاحظة كعــائلة أمه " وأقفل دائرة الأهل واتجه الجميع إلى البيت فخرج جدى بذراعيه مفتوحتين . قال له " ظننت أنك لن تجيء " . تعانقا ، سيصطحبه ليريه الخنزير المشوى بلا شك .

ذهبت أنا لآكل ثمـرة جوافـة وظللت حـيث كنت ، أبحث عن أعشاش الدجاجات .

عندما ولدت أيها السعيد يا للفيضان ! كانت تمطر منذ ثلاثة أيام. لكن لم يكن وابلاً من المطر هكذا. لا ، كان ذلك فيضاناً وهذا البيت ، هل ترون حالته السيئة و الفتحات التى به ؟ حينئذ كانت حالته أسوأ من ذلك . لم يكن هناك إبريق أو حلة أو طشت أو آنية من الفخار إلا و كنا نستقبل فيها ماءً يتساقط . وعلى أية حال فالماء كان يجرى فى الصالة لأنه كان يدخل من تحت الجدران ومن الأبواب. كانت الأفنية قد غرقت وكان محصول القصب نامياً . لم يكن بمقدور أحد مجرد التفكير فى الوصول إلى الطريق .فى ذلك الوقت عنّ لأمك أن تلدك لأنها هكذا . ولماذا كان ذلك؟ . مع أول آه اشتدت ظلمة السماء التى كانت مظلمة أصلاً . كان علينا أن نوقد الشموع ، لكن حتى الضوء نفسه لم يكن يرى مكانه. وقالت الرياح " هاأنذا يا بانشو " حينئذ انفصل سقف البيت طائراً . ذهبت إلى سلطان الله الأعظم ، ذلك القديس الذى أضعه فى الحجرة وأوقدت شمعة له خاصة . حتى ذلك لم يجد . حينئذ أدركت أن ذلك كان إعصارا أو فيضاناً كما يسمونه . كانت أمى تحكى أنه ذات مرة فى غابر الأزمان غضب الله من الناس لا أدرى لماذا فأرسل فيضاناً وهو ما يعنى أن تظل السماء تمطر أربعين يوماً حتى يغرق الناس كلهم . عقاب . لكن كان هناك رجل اسمه نويل كما تحكى أمى فصنع قارباً وغطى كل الفتحات جيدا وأركب فيه زوجا من كل الحيوانات التى كانت موجودة وطعاما كثيرا وبذورا، لأن فكرته كانت إنقاذ نفسه وأهله، وعندما يجف أو يقل الماء يخرج وينشئ ضيعة لا ينقصها شيء. قلت لنفسى : " هذا الماء هو الفيضان بعينه- لأننى لم أكن

رأيت السمـاء تمطر بهذا الشكل قط - وأننا سنكون من الغـارقين لأننا ليس لدينا قارب" وأوقدت شمعة أخرى لتمثال يسوع وهى آخر شمعة كانت معى ، وطلبت مـنه من كل قلبى ألا يبالغ. و لما لم يكن هناك مكان جاف فقد بدأت الصراصير والعناكب والعقارب فى الدخول إلى البيت . كنا علـى وشك أن نقتلهم فى البداية، لكنـنا عدلنا عن ذلك فيما بعد، فمن الكفر أن نقتل حـشرات لا تستطيع الدفاع عن نفسها. وأمك تواصل الولادة. كنت وجـدك نغيّر السـرير من مكانه كل لحظة لأن المياه كانت تتساقط وكـانت أخواتك يبكين وكل منهما تحمل مظلة تغطى بها استيلا حـتى جئت أنت فى النهاية فى الثـانية عشـرة ليلا بالضبط .لا أدرى فى أى يوم عـيد ميـلادك . ولم تضيع أنت دقيـقة واحدة فتـبولت هاهنا. كم كان بولك غزيرا! كم كنت نحيـفا! وكان يمكن أن نحصى عـدد فقرات ظهـرك. هل رأيت حثالة البـشر الذين يمـرون من هنا؟ . نفـس الشىء. نفس الشىء كـان ذراعـاك يبـدوان كشوكتين وكنت كلك مجـرد عينين وبطن. يا للحسرة التى انتابتنى! . قلت لنفسى "هذا لن يعـيش يا أديلا إلفيرا" . كم سـررنا حين علمنا أنك ولد، خاصة فيليكس ، فـقد أراد فى البداية ولدا فجاءت أمك، وأراد بعد ذلك حفيدا فولدت أخواتك. لو أن أخواتك يصبحن ذكورا فإننى أسامح أمك! . وقـد أتيت أنت ذكرا. استمـر المطر لكن السماء تفتحت، وفى النهاية توقف الماء. كان الوحل كثيرا لدرجة أنه لم يكن يمكن الخروج إلا بالقـفز من حجـر إلى حجر حـتى يصل أحدنا إلى المرحاض. حينئـذ حدث ما حدث : يبدو أن المطـر الغزير والرياح قد جعـلا الأرض تقوى فـخرجت منهـا أعشـاب وأعشاب يا بنـى حتى

أحاطت بالبيت والجدران فى أسبوع واحد وبدا كما لو كانت الحشائش ستبتلع البيت . لقد غطت الأفنية وتسلقت الجدران وغطت السقف بل ودخلت إلى البيت. كانت الحشائش تنبت تحت أرجل المائدة وخلف الأبواب بل وفى وسط الصالة . بين يوم وليلة وفيليكس - فيليكس المسكين الطيب دائما الذى لا يغضب ولا ينفد صبره أبدا- كان يستيقظ مبكرا يشق طريقا بفأسه حتى البئر وبستان الكسبرة والمرحاض والأماكن الهامة. لكنها لم تكن حشائش - تنبهنا لذلك فيما بعد- وإنما أزهار، أزهار من كل صنف تفتحت كلها فى آن واحد. يا للرونق! كان لدينا من كل الأزهار. وجاءت الفراشات كبيرة وذهبية ومتوسطة ووردية وزرقاء وحمراء وصغيرة وصفراء وذات لونين أو ثلاثة ألوان وذات أربعة أجنحة أو خمسة . كان أحدنا يجدها منذ الشروق . كان علينا أن نتحدث ونحن ندفعها عن أفواهنا . كانت تتساقط فى الزير أو فى أوانى المطبخ على الموقد وعلى أغطية زجاجات العطر . كنت أجن ، وكان يجب الاحتراس لئلا تختنق أنت، وقد كنت دائما كثير الصراخ. لم يكن من المجدى إبعادها ، فلم تكن تمشى. كنا نشرب القهوة بالملعقة. فى وقت الظهر لم تكن الفراشات تجد مكانا تقف فيه وكانت تتصارع على المكان. كان الحل الوحيد هو نشر ملاءات ملونة على بعد. وعندما كانت الفراشات تذهب للنوم فى الليل كانت تجيء فراشات الليل كثيرات براقة حتى أننا كنا نوفر الشمع والضوء اللامع. كان ذلك بمثابة ضوء القديس كنتين، فلم أر قط مثل تلك الفراشات مجتمعة. وكنا قلقين عليك لأنك كنت لا تزال ضعيفا تزداد نحافة حتى الشفافية تقريبا. كانت الجارات تأتين لرؤيتك أو لكى

يحضرن لك شرابا ما يكنّ قد سمعن عنه ، وكنت أنا ألفّك فى ملاءة وأدخلك تحت الناموسية حتى لو كان فى عز الظهر لكى لا ترينك على هذا الوضع فينصرفن ضاحكات. لم يصب أخواتك نصف ما أصابك من الأمراض. لقد أصابتك الحصبة ومقدمات التيفود والسعال والغدة النكفية وشلل الأطفال و التيفود والحصبة الألمانية والقيء والحسد والقمل والكوابيس. كل ذلك وأنت صغير. و يا لأمر إسهالك ! كنت تبدو نحيلا و يالها من رائحة كريهة!. كنت أقرأ عليك فقرة من التوراة مرات ومرات ولم تكن تشفى لا بالريحان ولا بورق الجوافة ولا بقشر الرمان ولا بعشب اليابان و لا بأى شيء. ولا بأغنية" صحة،صحة، يا عجز الضفدعة" والتى كنت أكلف أخواتك بترديدها حتى يهدأن، لأن الإثنتين كانتا تريدان حملك دائما. هن أيضا كنّ صغيرات وكن ينتهزن فرصة أقل غفلة منا عنك حتى يخرجن بك وهن يجررنك. ولم يكن هناك بصراحة ما نربيك عليه، لأنكم ولدتم فى أوقات عصيبة. لم تكن هناك حرب ولا أى شيء ولم يكن فيليكس يشرب ، لكن يا لها من أوقات صعبة وكم طالت!. بعد ذلك لو أن الألبان لم تسبب لك أذى! لكن لا ، فلم تتحمل نوعا واحدا منها وقد جربناها جميعا: لبن البقر، لبن الخيل والماعز وحتى عصارة النباتات وماء الأرز ، لكن كل ذلك كان يعادل بيض الكلاب، فلم يختلف الأمر إذا كان اللبن خالصا أم مخلوطا بالماء أو القرفة. كل هذا والبيت مليء بالفراشات والزهور كما لو كنا فى وقت احتفالات. كان الناس يتهامسون: رغم حالتنا السيئة إلا أن لدينا وقت للعناية بالحدائق . بالنسبة لى فأنا مقتنعة تماما بأن ما أصابك هو عين السيدة

فلورندا. إن نظرتهـا قوية لدرجة يجب الاحـتراس منها، فـذات مرة كانت فى الـفناء شجرة فـاكهـة مثـمرة كنت أنوى أن أعد مـن ثمرها حلوى لفيليكس وجاءت هى فى الظهر وأثنت عليها مرة واحدة فقط. فى المساء كانت الشجرة ذابلة و فى اللـيل سقطت. أتى عليها الصبح وهى متعـفنة تغطيها الديدان . لابد أن يكون للإنسـان عين قوية لكى يحسـدك أنت ، لأنك كمـا أقول لك تبعـث على الخوف. أنت الآن دميم ، لكن حينئـذ لم يكن لك شبه. كنت على وشك الموت. لابد أن يكون ذلك، فلم تكن تحتـمل شيئا فى المعـدة. الجانب الحسن فى كل ذلك هو أن جدك المسكين قد ترك الشـراب تماما تلك المرة . كان يخرج ومعه البغلة والعربة كل صباح محملا بالحلوى والطلبات ليبيعها فى الحقول . كـان يذهب وهو لم يكد يتناول مجرد رشفـة قهوة. لم يكن هناك فطور، إذ كنا نترك اللبن القليل للطفلتين . خيط ، زراير، إبر، فرش ، تماثيل من الجـبس، أمشاط وفلايات. هذه هى الأشـياء التى كان يبـيعهـا، بالإضافة إلى الشـتلات التى كانوا يطلبـونها منه، وبيض دجـاجتى الملونة التى كـان قد أهداها إلىّ عندمـا كنا فى فـترة الخطوبة. كان يبيع البيض كثيرا لأن كل بيـضة تقريبا كان بها صفارين لونهمـا أحمر. كـثير من الناس كـانوا يعتقـدون أنها تجلب لهم الحظ وأنها مفيدة للصوت وللرجـال. بعض الناس كانوا يشترون هذا البيض والبعض الآخر لا يشتـرونه لكنه كان مبتهجا. سـعادة الحياة تلك التى لم تفارقه أبدا، بروحه المرحة وبخـفة ظله، فكان يصنع ألعابا سحرية بثلاث زجاجات ويقوم ببعض الخدع مستخدما ورق الكوتشينة ويرقص الرقصـة الكوبية فى أى مكان يطلب منه ذلك ويغنى. أمـا إذا قال له

أحد -لأن الناس فى كل مكان كانوا يعرفون عيبه والناس أشرار- "خذ رشفة يا سيد فيليكس" فإنه كان يرفض . منذ أن ولدت لم يعد للشرب أو للعب القمار حقيقة. وما عرف بعد ذلك، فالمرض كان يأتى إليه سيرا . سمعت دائماً أن أفضل طريقة لكى يعزف سكير عن الخمر ولا يستطيع شمها ولو من على بعد هى أن نأخذ ثلاث سمكات من نهر وأن تحمص مع القرفة و أن تطحن وأن نضع للإنسان كمية ضئيلة جداً على أى مشروب يتناوله . إنه علاج مقدس لكنه يسبب أعراضاً جانبية وإسهالاً شديداً . لم أقدمه لفيليكس قط وكذلك لم أضع له قليلاً من لبن الخنزير حديث الولادة فى القهوة و هو علاج يقولون إنه مفيد . ما الذى كان فيلكس يعود به إلى البيت؟ عدة ريالات لا تكفى لكى نبدأ. و حتى هذه الريالات لم تكن كل يوم . كان ذلك هو الشيء الوحيد الذى نمتلكه و كنت و أستيلا نغسل و نكوى للغير و لكن لم يكن عندنا زبائن باستمرار . أتذكر أنه كانت هناك فترة لم يكن فيليكس يجد فيها عملا ولا تحت الأرض، وكانت استيلا صغيرة ، وقد استطعت أنا عن طريق غسل الملابس أن أنفق على البيت لمدة تزيد عن عام. كانوا يدفعون لى ريالا مقابل تنظيف وكى سترة بيضاء مبطنة. لكى أشترى لك دواء شلل الأطفال اضطررت ذات مرة إلى نزع عملة كانت أخواتك يضعنها على السرة . لهذا تبدو سرتهن الآن بارزة كما لو كانت بزازة. حينذاك رهنّا نصف أراضى السيدة فلورندا. بعد ذلك رهنّا النصف الآخر وبعنا لها البقرة والكتاكيت التى كانت تبيض وطلبنا منها قرضا، وهكذا كنا نسيِّر الأمور . بشكل أو بآخر لم نكن ننام دون عشاء. لكن فيليكس بدأ

يشكو من آلام فى الساق. فى البداية ظننت أنهـا روماتيزم فأعددت له دواء، لكننا بعد ذلك لم نـعلم كنه ذلك الألم ولا كيفـية تسكينه. لم يكن يسكّنه شيء. لم يبـق أمامى أنا واستيـلا إلا أن نوقد شـموعـا لسلطان الله الأعظم وأن نصـلى ونردد دعاء القـديس أليخـو وأدعيـة أخرى. إننى حينذاك قد ارتكبت الخطأ الجسيم الذى ارتكبته والذى لا أدرى حتى الآن ما هو، فحينذاك أعرض الله عنى حقيقة. كان الله قد أعرض عنى قبل ذلك مرتين أو ثلاث مرات ، لكن ليس بهذا الشكل أبدا حـتى أننى لم أعـد أعـرف أى طريق أسـلك. حـسنًا، كل ذلك حدث فيما بعد وأنتم تذكرون. لقد تركت الحكاية الأصلية. الأمر هو أنك لم تكن تشـفى وكان قلـبى ينفطر لرؤيتك هكذا ضـعيـفا كـثيـر التبـول. كلما كنت أحـملك لكلى أنظفك مثـلا كنت ألاحظ أنك لا تزن شيئا، فظننت دائمـا أنك لن تعيش. لم يكن ممكنا . وكان أمرك معـجزة. كنت تعيـش على العلاج. كنت تعيش عـلى العلاج وعلى الوعد الكبير الذى قطعته على نفسى أمام الله وأمام العذراء. لكن بعد مرور عام رضيت وذهبت إلى حجـرتى دون أن يرانى أو يسمعنى أحد و قلت للسـيد المسـيح " سيـدى قد أدركت أنه ليس هناك مـا يمكن عمله. أنت الذى أعـطيت و أنت الذى تأخذ فلا تجـعله يستـمر فى المعـاناة . لا أريد إلا أن تدعنى أسـمّنه قليـلاً حـتى لا تضـحك منه الملائكة الآخرون فى السـماء " . عليك أن تصدق أن بعـد هذا الحوار بأسبوع كنا جميعـاً جالـسين فى الـصالـة : أنـا أحـمـلك بين ذراعىّ وأغنى لك حتى تنام ، لا لأن صوت بكائك كان مـزعجًا - إذ كانت قواك خائرة حتى أنك لم تكن تسمع - فسـمعنا صوت حيوان يزمجر

على الباب كمن يريد أن يدخل . كانت أبوابنا مغلقة إذ كان الوقت أسبوع القداس و لهذا فالشيطان يسير مطلقا . لم يكن فيليكس موجوداً . حملتك أستيلا و بحثت أنا عن الساطور . عندما فتحت رأينا ماعزاً سوداء - ببيتا - عيونها غائرة تبعث على الأسى . لقد تحسرت عليها أكثر مما تحسرت عليك ، كم كانت حالتها سيئة تلك الماعز. أدخلناها و كانت إحدى أرجلها مكسورة و بها ديدان و كان ضرعها متورماً و مليئاً بالحبوب . كانت تتألم كثيراً و لم تكن تدع أحداً يلمسها . لكنها تركت فيليكس يلمسها . عندما جاء عالجها. يا للحنان الذى ربط لها به رجلها و الذى عاملها به يوماً بعد يوم بكل هدوء . و كان يحلبها بالتدريج فيمرر يده على ظهرها و يتحدث إليها حتى أفرغ منها كل الأذى المركز الذى كان بها : كان لبناً كثيفاً كريه الرائحة . كانت الحشائش الطازجة تفيض فى الأفنية و يبدو من لونها الأخضر أنها كانت مغذية ، صدقونى إن الماعز بدأت تتحسن وتتحسن و بعد شهر كانت على ما يرام . من السهل أن نحكى ذلك، لكن لم يكن هناك أحد يصدق ما حدث بمجرد أن يرى لأننى أقول لكم أن تلك الماعز كانت حالتها سيئة جداً . كان ذلك معجزة ، واحدة من أكبر معجزات الله . هى الآن تجرى و تصيح وتتبول وتلعب مع الأطفال كما لو أن شيئاً لم يحدث لها . إنها الماعز ذات أجمل صوت سمعته فى حياتى و نحن حتى الآن لا نجرؤ على شرب لبنها . و ذات مرة فى الظهر ، كأننى أرى ذلك الآن ، دخلت فى الظهر من الفناء إلى حجرتى و معى بعض الملابس لأن السماء كانت على وشك أن تمطر و رأيت يا بنى الماعز مضطجعة فى السرير فوقك

و أنت ترضع ثديها و هي ساكنة كما لو كـانت إنسانة و كما لو كانت تعرف ما تفـعله . نظرتْ إلي نظرة هائلة . عندها صحت " سـبحان الله، أسـرعى يا أستـيلا إلى هـنا و انظرى هذا " كـانت أستـيـلا ستطردها لكنى صـحت بها ألا تفـعل ، لأن هذا اللبن لن يضرك - تأمل - لأن ذلك كان شيئاً غـريزياً منكما . و بالفعل منذ ذلك الحين تكفلت ببـيتـا بتـغذيتك في أوقـاتك بشكل أفـضل من أمك و بدأت تتحـسن و تسمن . و كم تحسنت ! يا عـجباً لأمـر الله ! لقد أرسل إليك هذه الماعز خصـيصاً من أجل الوعد الذى قطعـته على نفسى . وإلا فلماذا لم يحلبها أحد قط و قـد تحسنت ؟ . عندما علمت السيدة فلورندا بما حدث كان علينا أن نهديهـا الماعز ، لكن ذلك لم يهم فقد واصلت أنت التحسن : ذهب عنك الإسهـال وأخذت لون بنى البشر ومشـيت . كنت مسرورة لكنك لم تكـن تتكلم و ظننت أن عيبـاً ما سـيظل بك فهـذا منطقى و علينا أن نكون ممتـنين و أمكننا أن نكون مطمئنين إلى أنه سيكون هناك رجل في العائلة مـستقبلاً .وذات يوم، كان عمرك ثلاث سنوات ، و كنت تفهم كل شئ أكثر من أخوات ، كانت أمك واقفة عند باب غرفة الطعـام. كان يوماً مشمساً ودخلت أنت من المطبخ ومكـثت تنظر إليـها و تنظـر ثم نظرت إلىّ و قلت - بوضـوح مثلمـا تتحـدث الآن - أن أمك لهـا جناحان ، هل كـانت حمامة ؟!

ذات مساء ذهبت وأمي إلى الحقل . بدأنا نسـير و نسير و عندما نظرنا رأينا أننا كنا في ملاءة مـزروعة بنبات عباد الشـمس . أينما كنا ننظر كانت أعـيننا ترى عباد الشمس . أعـجبنا الزرع كثيـراً و كانت الرياح تحـركـه برقـة فتـشـابكت أيدينا و بدأنا نرقـص و نغني بأعلى صوتنا. لا أدرى كم من الوقت استمرت هذه اللعـبة . عندما إفترقت أيدينا- وكنا قد تعبنـا- عاودنا النظر إلى ما حولنا و ألفينا الحـقل أكثر جمـالاً ، إذ كان أشد صـفرة - بل أقل صفـرة- و أكثر احـمراراً . نظرت و نظرت و فـجـأة بدأت أجـرى . إيه . عـدوت على أطراف أصابعى و ذراعاى مـفتوحتان . فتـحت أمى قميصها فـبرز جناحاها الكبيران . أخذت هى أيضاً تعدو و تقـفز و تدور حول نفسها و تفتح عينيها و تغمضهما فتمتلئ مخيلتنا بعباد الشمـس ، باللـون الأحـمـر والأصفر حتى إلتـقينا و تعانقنا . أدركنا حينئذ أن السـماء تنتهى هناك عند التقـائها بالتلال . فكرنا فى البداية أن نعـدو إلى النهر و أن نلقى على النار ملء الأوعيـة ماء و أن نصرخ طلبـاً للنجدة و لكن فى تلك اللحظة نفسها سمعنا جلبة خيول كـثيرة انتبهنا جيداً : لم تكن السماء تشتعل ، بل كـانت كوكبة من الخيول الحمـراء تلوح فى الأفق وتتقدم مسرعة صوبنا . وصلوا. عندما داس أول حصان بأقدامه زراعات عباد الشمس أحدث شـراراً و أثار مجموعة من الفراشـات وهبت فراشات الليل مذعـورة . جريت نحـو أمى . وصل الحصان ووقـف متحـفزاً بيننا. رأيت شعره متوهجاً و رغوة فمه الوردية و ذيله الكثيف . أردنا أن نمتطيه بـقفزة واحـدة . وقف على قدمين و لمعـت عيناه . وصل بقية أفراد القطيع بألوانهم الحمراء والذهبية والبرتقالية وابتعد الحصان ،

لكنه لم يشأ أن يرحل لأن أمى كان جناحاها ممتدان و كان شعرها مليئاً بالزهور . وقف مرة أخرى على قدميه و رقص وقدم أطرف ما يمكنه تقديمه . ربما تمنى لو عاد ، لكن رفاقه كانوا قد ابتعدوا فركض وراءهم و هوأشد إحمراراً من ذى قبل . بعد قليل لم يكن القطيع سوى قطع ذهبية تلوح فى الأفق . انطفأت الأطراف الأخيرة المشتعلة فى السماء ، وعندما لم يتبق شىء من كل ذلك ، ولا حتى أقل ضوضاء لحوافر الخيل ، بدأ المساء يحل. استقرت الفراشات والزهور من جديد فغطت نباتات عباد الشمس وغطتنى أنا وأمى ونحن صامتين، لكن أيدينا كانت متلاقية. عدنا إلى البيت وجلسنا على الدكة ونحن شاحبان. أدركت جدتى أن شيئا خطيرا حدث لنا فأحضرت لكل منا كوب ماء من الزير.

وذات ليلة كنت أتصور أننى نبات عباد الشمس. صاحوا " يا ولد، يا ولد" و لم أجب. كنت أعرف أن أمى هى التى تنادينى لكننى لم أجب. عندما أظن أننى عباد الشمس فلا يجب أن يقاطعنى أحد. لكن النداء استمر "يا ولد، يا ولد" . وسمعت ضوضاء ونحيبا وصوت الرياح التى تهب على السطح و قلت "إن أمرا ما يحدث لأحد" . هنا لا أستطيع أن أتخيل أننى عباد الشمس. فتحت عينى ووجدت الجو كله ضوء. ضوء أبيض باهر يضئ كل شئ، والرائحة رائحة زهور. كانت أمى إلى جوارى تلفها ملاءة وضمتنى إلى صدرها. رأيت أنها جميلة كمريم العذراء. تخيلت أننى عباد الشمس فوقفت عاريا على صدرها ورأيت خلف كتفها ضوءا ورأيت جدتى بيضاء وسط الضوء الأبيض والشموع وهى تنحنى على سرير أبيض

يبدو منه - وسط الظلام- وجـه جدى هادئا شاحـبا. تقدمنا كـمريم العذراء والطفـل يسوع. وصلنا. انحنينا على السـرير. رأينا فتـحات أنف جدى سوداء عـميقة. أزحت من عـلى شعر أمى فراشـة متربة. قالت لى أمى "انظر إلى جدك يابنى". أجـبت: "إنه سحر يا أمى. ستـرين الآن ماذا يفعل. لنبـحث عن الشئ الذى فقـده". لكن مريم العـذراء عانقـتنى بشدة وأخـذت تبكى و أخـذت جدتى تبكى أيضـا وجاءت الجارات. قـلن: "يا إلهى، هذا العويل الذى نسمعـه، ماذا حدث؟ أهذا هو السيد فـيليكس؟" "اذهب يا بدرو إلى البلد لترسل البرقـيات" "أوقدوا الشـموع" "أعطونى الولد". لم أكتـشف أنا ما الذى أخفاه الجد، وامتلأ البيت بالناس وامتلأت الجدران بالظلال. لم يكن الجـد يتحـرك، لكنه كـان يعلم أننى سـأكتـشف الحـيلة، فطالما اكـتـشفت حـيله. نظـرت من النافـذة ووجدتهـا. صـحت: "إنهـا النجـمة. إنها النـجمة. إنهـا النجمـة". قالوا: "أسـرعوا. أعـصاب الطفل". حملونى وقالوا "أعـدوا له الينسون". نظرت أنا إلى جدى الذى لم يدافع عنى. صحت: "جدى، جـدى، أخرج لى أرنبا من رأسك وورقـة كـوتشـينة من أذنك يا جـدى". صـاح بى الناس "يا ولد!". وظهرت الـفراشة الصـفراء وابتـسمت لى قائلـة "تعال إلى الفناء، تعال إلى الفناء". ربتت بيدها على رأسى وقالت: "تعال إلى الفناء. لا تبك. تعـال إلى الفناء". "يا فراشة". ظهـر عبـاد الشمس وقـال لى "لاتحـزن. إنهـا أمـور الحيـاة. تعـال إلى الفـناء. سنلعب الدومينو ولا تحزن". قلت "فليأت جدى" وجاء جدى بشامته الحمراء مبتسما. النجمة والفراشة و أنا كنا رفقاء العبة. وعباد الشمس والجدة

كذلك كانوا باستمرار يقدمون القهوة ومشروب الكاكاو الدافئ . وكان جو الليلة يشتد بردا. فزت أنا فى كل اللعبات و كان الجميع - الجد والفراشة - يضحكون من نكاتى . كان عباد الشمس و النجمة يشجعانى فى كل لعبة و أعلنوا أننى ملك الدومينو و أمير الليل والساحر القادم .مرت فراشة دون أن تنظر الىّ . رأيت أخواتى وقد جلسن على نفس المقعد. كان أصدقائى يلاطفوننى ويريدون أن أنام ، وفجأة لم يكن جدى معنا. انتهى وقت الفجر عندما جاء الأجداد والأعمام والعمات فقبلونى وابتسموا لى. امتلأ الفناء بالضباب وأعدوا لى مزيدا من الينسون. وقبيل الفجر أعدوا لى مشروبا آخر. كثيرات من النسوة العجائز حملننى و كن يرددن أننى أشبه أبى ، وردت جدتى وخالاتى بالإيجاب وهن فخورات. كل النسوة كن يلبسن الأسود وكن يسرحن شعرى بأيديهن. ملأت رائحة القهوة البيت وأنا تعجبنى القهوة ، أشم رائحتها ، أشربها وأنظر إلى جدتى وهى تعدها. هم يعدونها فقط فى الصباح ، وإذا جاء ضيف يقدمون لى قهوة مخففة. لهذا أذهب أحيانا إلى أول الشارع وأعود وأقول - بصوت أحاول أن يكون مغايرا لصوتى- "قد حضر ضيوف. أعدوا القهوة" . لكنهم بدلا من ذلك يضربوننى بالمكنسة و أختفى تحت السرير وأنا أضحك. أخرج الزهور التى أحضرتها من جيوبى وأختار أجملها وأقدمها إلى أمى.

عادت مريم العذراء إلى الظهور. كنت أمثل حكاية السحابة الحمراء وكان الجميع ينصتون إلىّ. جاءت تبحث عنى. قالت "إنك عريان" . قبلتنى ولفتنى بملاءة وحملتنى . وقالت "سنتناول طعام

الإفطار . الآن لكى تذهب إلى بيت جـدك" . كان الضوء خافـتا ولم يكن أحد يتكلم. أخذت أشم وأنظر إلى الشموع البيضاء حول السرير ورأيت جدتى وشعرها غير مـرتب. كانت تبكى وتبكى وهى خافضة الرأس. شعرت بيـديها وهى تلاطفنى. قالت لى "كـان جدك يحبك كثيرا" . عندما سمعتها شعرت برغبة فى البكاء. ورغم أننى أغمضت عينى إلا أننى رأيت جدى فى آخر المسـاء وهو قادم يغنى خلف عربته المحملة بالبضائع الرخيصة. فى الحقيقة لم يكن يأتى ، بل كان يبتعد رغم أنه فى مواجهتنا. كان يـردد: "مع السلامة" . كانت الريح تحرك بنطلونه الواسع وترفع كـومة من أوراق النـباتات الجـافة حولـه. كان كثـير من الأرانب والحـمام يذهبـون معـه، وكانت أوراق الكوتشـينة تتساقط من جيوبه. سمعت جدتى تقول - وهى بجانبى تضغط على يدى بيديها- "آه أيها المسكين، من أين سنأكل الآن؟" .

عندما ألبسونا ثيابنا لكى نذهب إلى بيت جدى لأبى أخذنا نبكى وعانقنا أمى. عندئذ قال جدى لأبى أننا حزينون جدا ومن الأفضل أن نعلم الحـقـيـقـة. ذهبت بنا أمى إلى المطـبخ وقـالت لنا ببطء : "لا تتحـدثوا عن جدكم مـرة أخرى. إن الله قـد أرسل إليه لكـى يخرج أوراق الكوتشينة من أذنه. سندفنه هذا المسـاء. لا تبكوا أمام أمكم" . بينما كانت تقول لنا ذلك كانت الزهور تتساقط من شعرها.

كان أبى وأمى جيران قبل أن تعلن خطوبتهما ، لكن ذلك حدث فى المكان الذى وضع فيه الرخ بيضته . لم يكن هناك حينئذ إلا جبال . حينذاك بدأت الحرب و لم يستطيعا الزواج. ذهب أبى لكى يحارب مع الثائرين ضد أسبانيا و جرحوه مرات عديدة و عانى كثيراً، كثيراً . عانى الجميع لأنه حينذاك انتهى كل شئ فى هذا البلد . لم يكن من الممكن الخروج إلى الطريق أو الذهاب إلى القرى أو الاجتماع بصديق و التحادث معه . لا شئ من ذلك لأن الناس كان يتعقبهم الإسبان وإذا تجاهلوا الأوامر كانوا يقتلونهم . أحياناً كان الأسبان يسمحون للنساء بالذهاب إلى القرى و كنّ يستطعن شراء أشياء كالأوانى و أدوات القهوة أما الملح و السكر فلا، لأنهم كانوا يفتشونهن و كنّ يتعرضن لسوء المعاملة . بعد ذلك انتهت الحرب وكان من الممكن الخروج و لم يكن أحد يطارد ، لكن كل شئ كان ممسوحاً كركبة عجوز، ولم تكن هناك طريقة أمام الشعب للحصول على شئ . يقول أبى أنه و أمى جلسا ذات مساء على سفح الجبل ليفكرا فى أمرهما و إلى أين سيتجهان وأنه نظر إلى جهة ما فرأى نحلة تحط على شجيرة ، ولم تكن الشجيرة شيئاً ذا قيمة، رأى النحلة تمتص رحيقها . يقول أبى أنه سمع صوتاً يردد: " افعل مثل هذه النحلة " و أنه نظر إلى أمى و أن أمى قد سمعت الصوت أيضا . فبدأ الاثنان العمل فى تلك اللحظة نفسها ، يغمرهما شعور جميل. لم يكن هناك أحد يعيش فى تلك الناحية ، وأبى هاجم الأدغال وحده و أخذ يعمل بيديه و يعمل حتى شيّد بيتا من حجرتين وصالة من أجود الأخشاب -لأن الأشجار كانت كثيرة جدا- وجهز حجرة

طعام ومطبـخا سقفه مـن الطوب وباب يفتح بشكل دائرى. تم طلاء الجدران بالجـير وزرعت أمي حديقـة صغيرة. كـان بيتهـا دائما أبيض نظيفـا. من حسن الحظ أن أمي - عندمـا بدأت الحرب- كـان لديها ثياب كثيرة فوضعتـها فى صرة وجـالت بـصرتها فى تـلك الجـبال و الحروب هنا وهناك ، لا تدعـها لأى سبب كـان. كانت إذا تمزقت منها تحيكها وإذا اتسخت لم يكن ذلك يهمها، بل كانت تتابع سيرها. وعندما انتهت الحرب يا سيدى ، وكان أهل كوبا حفاة عراة ، فتحت أمي صرتها وكان لديها ثياب للجميع. عند ذلك جاء قضاة إلى الريف وتزوج أبى من أمي و بعد عام ولدت أخـتى ايوسيبيا و بعـد عام آخر ولدت أنا، وبعد ذلك ولد أخى أناستاسيو، وهو يعيش إلى الآن وكان آخر الأولاد، لأن أمي ماتت من نوبة عصبية. كنت صغيرة ولا أتذكر عنها إلا أنها كـانت فى المساء - مثل الآن أو أكثـر ظلمة إذ أنه كانت هناك جبال من جـميع النواحى وأدغال وكانت هناك تلال عـالية جدا جـدا - كانت أمي تجلس فى المسـاء داخل الفناء تحت شـجرة وارفـة كـانت هناك مكان شجـيرات الخـروع تقـريبا ، وكـانت تطرز وتغنى أغنيات زمان لأنها كانت تغنى بشكل رائع وكان أبى يحب سماعها .

كان يقول لنا أنه فى محيط عشرة أميال لم يكن أحد يعرف أو يسمع عن امـرأة تطرز أحسن من أمي وأن الناس كـانوا يأتون إليهـا من كل ناحية ليطلبوا منها أشياء تطرزها. كنت وأختى ايوسيبيا نلعب بعرائس من قماش صنعت فى البيت وكنا نرعى اناستـاسيو الذى كان صغيرا. عندما كانت أمي لا تستطيع الرؤية لمواصلة عملها كانت تطلب إلينا أن نمشط لها شعرها الأسـود الطويل وكنا نمشط ونمشط ، حريصين على

ألا نجـذب ضفـائرها. كانت كل واحـدة منا تمشط ضفـيرة حـتى لا نتشاجر - كانت ضفيرتى أنا هى اليمنى- وهكذا حتى يأتى أبى. كنا نراه يأتى من بعيد ، يصفر حتى نلحق به. بعد ذلك كنا نأكل. كانت كل أيامنا تمضى جـميلة بهذا الشكل. لكـن فى ذلك الوقت حدث أن ماتت أمى. أنا متـأكدة أنها لو كانت تعلم ما سيـحدث لنا لما ماتت. حسنا، كـان أبى يكافح مرة أخرى حـول البيت لكى يبعـد الأدغال. يقول أبى إنـه جلس على جذع شجـرة لكى يستـريح ووضع يده فى ناحية - دون إرادة- فلـمس شيئا باردا. كانت كـرات كبيرة مـستديرة مليئـة بالملح. كم كان سـعيـدا بها!. يقـول أبى إنه فى تلك اللحظة نفسـها سـمع ديكا يصيح على بعـد فى حظيرة فذهب يـبحث عنه - ومعه كرات المـلح - رأى ديكا كبيرا ودجاجة ملونة يبـحثان عن عش ينامان فيـه. استطاع أن يمسك الدجاجة، أمـا الديك فقد هرب منه. وضعت الدجاجة اثنتى عشرة بيضة ، ولما لم يكن هناك ديك فلم تكن تصلح للتفريخ، وعندما ذهب أبى إلى البلد - وكان يذهب كل أربعة أو خمسة أشهر، فقـد كان بعيدا وكان لابد من الذهاب على حصان- اشترى أربع بيضات وأفرخت الدجاجة. بعد قليل كان هناك فناء ملئ بالدجاجات الملونة كدجاجتى هذه ، إلا أن تلك كانت أكبر، إذ كانت هناك أذرة وفيرة. بعد ذلك لم نكن نعيش بشكل سئ، فالحمد لله لم نكن نمرض أبدا وكانت تلك الأرض تخـتلف عن هذه الأرض المرهقة التى لا تنـتج إلا الزهور. هناك كنت إذا ألـقـيت حـفنة مـن البـذور ورويتهـا قليلا كنت تحـصد مـحصولا من أى شئ. ذلـك اليوم الذى

أحكى عنه رجع أبى من الجبل بكميـة من خلايا النحل التى وجدها . كان النحل يلسعنا نحن أما هو فـلا . فى اليوم التالى ذهب يبحث عن خلايا أخرى وهكذا كـان لدينا الكثير، ولما كانت الزهور مـتوافرة فلم يرحل النحل. وجمع أبى ثروة من العسل والشمع، وكنا كل يوم أكثر رخاءً مـن ذى قبل، وعـشنا كمـا يعيش الناس. منذ ذلك الحـين كنا نعمل كالكبـار فقد كنا يتامى وكان هناك الكثـير الذى يجب عمله فى بيت كبير فيه كل يوم أشخاص أكثر. كان أبى يتعاقد معهم للعمل فى مزارع التبغ التى كان يمتلكها. ولما كان أبى ابن جزيرة من كنارياس ، أى من الجزر الحـقيقـية، فقـد كانت تعجـبه زراعة التـبغ. كنا نغسل وننظف ونكوى ونحن صغـار، وكنا نعمل أى شئ عدا الطبخ، فـقد كان من نصيب امرأة سوداء تحدث معهـا أبى. كان أناستاسيو يساعدنا فيحمل إلينـا الماء ويجمع الحطب ويضع الأكل للخنازير. ذات مرة - وسـترون الآن من الذى سـيظهـر فى هذه الحكاية- كنت قـد ظللت أسبوعـا كاملا لا أنام فقـد كنت أسمع صوت حصـان يجرى فى كل ناحية، بل حـتى فوق سطح المنزل. فى النهاية استجـمعت قواى وفى الفجـر قمت لأنظر فوجدتـها مارجريتـا، البغلة الجمـيلة. ربطها أبى وأخذ يسأل فى كل مكان عن صـاحبها ولما لم يظهر لهـا صاحب قال لى "هذه البغلة لك ولكنك ستـعيرينى إياها للعمل" . قال أناسـتاسيو فى الحال "سنسميها مارجريتا" . وظل اسـمها مارجريتا كما لو كانت شخصـا. لم نعرف أبدا من أين جاءت، كالماعـز التى أنقذت الطفل. بعد ذلك أراد أبى أن نتـعلم نحن الثلاثة القراءة والكتابـة. كان يعرف

امـرأة. . . . . مـاذا كان اسـمـهـا؟ ياللعـجب! كـيف أنسى اسم الأسـتاذة! . كـانت صديقـتـه. كلمهـا أبى لكى تعلمنا وردت بأنهـا ستأخـذنى أنا فقط. كـان أبى يعطيـها من كل شئ : أرز، عـسل، دجاج، من كل مـا كان لديه فى مزرعـتنا. بقرة. كان اسم الأسـتاذة ميكائيـلا! تعلمت منها شـيئا فى مـستوى المرحـلة الإعدادية فى ذلك الوقت. لهـذا فإننى لا أردد كلمـات غيـر لائقة إلا إذا خـرجت عن طورى معكم، إذ أنكم مـن أمباجنا. لكن الأسـتاذة كانت تغـير على زوجهـا منى وكان هو أستورى بديـن -الأستورى هو إنسان جـاليقى بخيل جدا- فبدأت تضربنى وتقول أن رأسى به قمل وأننى أتبول عمدا فى السرير لكى أجعل رائحة فرشها كريهة، مع أن الحقيقة أنه إذا كان فى رأسى قمـل فقد انتـقل إلىّ من رأسهـا هى. هذا برغم أننى كنت أساعدها فى شئون البيت مثل أية امرأة كبيرة. انتظرت يوم الأحد لكى يأتى أبى ويأخذنى وقلت له أننى تعلمت الكثير وأننى أفتقد ايوسيبيا و أناستاسيو والمزرعة. يشهد الله أننـى لم أذكر له شيئا من سوء معاملة الأستاذة ولا من ظلمهـا. فى ذلك الوقت لم يكن بمقدور الأطفال أن يتهموا الكبار لأى سبب. أطفال ذلك العـصر كانوا يحترمون الكبار، لا كمـا يحدث الآن. لم يكن أبىٍ فى البداية يـريد أن يأخذنى، لكنه وافق فى النهـاية لأن الأستاذة أقـرّت أننى تقدمت كثـيرا وأننى أجـيد القراءة والكتابـة. هنا بدأت معاناتى فى الحيـاة، إذ كان أبى قد تزوج بامرأة وكان ذلك أمرا سيئا وخطيرا. كان اسمها باولينا أتناجا جارثيا. فليغـفر الله لها رغم كـثرة ذنوبها. ان الإنسـان لا يـجـب أن يتـمـنى شرا لأحد.

شيئـا فشيئا اختـفت رائحة جدى من البيت . وبقدر مـا اختفت الرائحة بقدر ما ضعف بصر جدتى. إنها الآن تجلس فى ناحية بمدخل البيت وهكذا تمضى ليلتـها. عند الفجر نأتى إليهـا لكى تعد لنا طعام الإفطار، وفى أحيان كثيـرة لا نجدها. نبحث عنها فى كل مكان حتى تحت السرير ولا نجـدها. أمى لا تفارق النافـذة وهى تطرز وتطرز ولا تنشغل بأن جدتى اختفت. علىَّ أن أكون يقظا حتى آخذ منها الملابس التى تنتهى من تطريزها وإلا فإنها تطرزها مرة أخرى، وأزيل من على شعرها الـزهور الذابلة. وفى النهار أيضا لا نعلم أين اخـتفت الجدة، أما فى المساء فإننا نجدها فى مكانهـا المعتاد بمدخل البيت. الريح ترفع لها ضـفائرها لكنها لا تجرؤ على بعـثرة شعرها، والريح أيضـا تحمل كلماتها إلى مسـافات بعيدة. نعلم أن الجدة على قيـد الحياة لأنها من حين لآخـر تداعب دجاجـتهـا الملونة النائمة بجـوارها. امتـلأ البيت بالحشـرات وتساقطت من السقف باسـتمرار نشـارة الخشب. لم تكن جدتى ولا أمى تـهتمـان بها وكـانت تتكوم على أكتـافهن. وإذا دقق الإنسان فإنه كان يسمع صوت الصراصيروهى تأكل الجدران. نعرف أن كل مكان فى البـيت به عنكبوت وعـقارب تتـرقب مرورنا لكى تقـفز فوقنا وتلسعنا . فى الفناء تطير جـياد الشيطان ، لكننى أبعدها لأننى أشـير بعـلامة الصلـيب وأقول "سـان جورج ،سـان جورج، سـان جورج" . ورغم ذلك فإن أحدها لسعنى . الريح تسقط أوراق الشجر بالحديقة وهذه الأوراق تغطى جدتى، إذ إنهـا لا تزيحها عنها. وهكذا تختفى جدتى مرة أخرى. تكتشـفها الفراشات عند المساء إذ تظن أنها أحد أعـمدة مدخل البـيت فتريد أن تدخل تحت القـشرة. بعض هذه

الفراشات تبلغ هدفـها لأن جدتى لا تذبها. عندما يتـعين على جدتى عمل شئ مـا فإنها تنهض وتذب عنهـا الفراشات ، لكنهـا تعود إلى مكانـهـا فى الحـال. لا هى ولا أمـى عـدن إلـى كنس البـيت ، والدجاجات تتجول فى الصالة والحـجرات ، لا يدفعها أحد ولا يلقى لها أحد طعاما. الدجاجات تنام حتى الظهر تحت الكراسى ولا تذهب إلى العشة. حـتى القطط لا تريد الإستيقاظ ولا تفتح أعـينها حتى لو مرت الفئران فوقها. نحن الأطفال نسير حيث يحلو لنا ، وأخواتى لا يخلعن حذاء أمى ذا الكعب الطويل.

ذات صـباح كنا فى المـطبخ : أمى تطرز ونحن ننظر إلى شـعلة الموقد حيث كـانت جدتى تغلى اللبن. سمعنا صـوت السيدة فلورندا عند الباب. جدتى - كما لو كانت تستيقظ لأول مرة منذ أيام- قفزت إلى الوراء وفـتحت عـينيـها التى لا لون لـها، ورفـعت الدجاجـات والقطط رؤوسها.

قالت جدتى بصوت منخفض: "كنت أعرف أن هذه على وشك المجئ". ذهبت إلى الصـالة وهى تجـفف يديها فى مـريلتـها وقـالت "صبـاح الخيـر يا سيـدة فلورندا كيف حـالك؟. ادخلى واجلسى". قالت ذلك بصوت رقيق أليف.

قالت الـسيدة فلورنـد "لقد حزنت لما أصـابكم يا أديلا إلفـيرا، لكننى مـعسرة وتعـرفين مـا أتيت من أجله. ألم يسلّم إليك كـارميلو الرسالة؟". أجابت جدتى: "لماذا لا ننتهز الفرصة وأعطيك الآن زهور

القرنفل التى طلبتهـا منى بالأمس؟" . اصطحبت السيدة فلورندا إلى الفناء. وقفت وأخوتى عند الباب نراقب.

- هاأنذا أحـضر قـرطاسين. سنرى مـا إذا كنت سأعـود وبهمـا فراشات.

تحدثنا بصوت منخفض وجاءت أمى أيضاً إلى الباب . قالت :

- " يا إلهى ماذا حدث ؟"

كان مـاء القهوة يـتساقط على الموقـد و كنا نحن و أمى نراه ، لكن الجدة هى التى كانت تغلى المـاء . لذلك لم يجرؤ أحد منا على عمل أى شئ .

ذهبت السيدة فلورندا بعد لحظة و ظلت جدتى جامدة فى مكانها قد أدارت لنا ظهـرها و كنا نحن ننتظر فى صمت . عـادت بعد ذلك تمشى نحـو البيت . كانت جـدة أخرى . كـانت عيناها مـتوهجـتين وأسنانها مطبـقة بعصبيـة . جرينا نحو أماكننا و بدأنا نتـصرف بشكل لائق. فجأة فتحت الأبواب و الشبابيك . قالت :

- الميت إلى المقبرة و الحى إلى الدجاج .

أمسكت مكنسـة و أخذت تضرب الدجـاجات بانفعـال حتى أن بعضهـن بدأن يطرن و خلفهن القطط . لم يتوقفـوا إلا عند الباب . ابتعـدت الفراشـات عن البيت . دخلت جـدتى إلى حجـرة الطعام وظلت أخواتى جامـدات فى مكانهن . صاحت جدتى فـيهن بصوت

غير مـعهود فيهـا : " ماذا تفعلون هنا ؟ عندما كنت فى مـثل عمركم كنت فى هذه الساعة أجلس مرهقة من العـمل . هيا اذهبوا و افرشوا الأسِرّة الآن و حذارى أن تكونوا قد تبولتم بالليل " و قالت لى :

-" و أنت لن تسير اليوم فى الأدغال كالفراشة . لقد انتهى ذلك العهد . إلى العمل فأنت قد كبرت . احمل الماء و ألق القمامة . ماذا يمكن أن ينتظر منك؟ . إننا نطعمك و نطعمك و لا ندرى فى النهاية لماذا . عندما تكبر ستكون شيطاناً أو ماسح أحذية أو لصاً أو تموت من الجوع . على الله العوض لو تعين علينا انتظارك !. من يربى الغراب يخلع له عينيه! "

لم أشاهد جـدتى بهذا الغضب قط و ظللت أنظر إليهـا . كانت هى أيضاً تنظر إلىّ و لكن كمـا لو لم تكن جدتى . صاحت " قلت لك هيا إلى الفناء . إلى العمل! " و ضربت الأرض بقدمها .

تساءلنا فى الفناء أنا و أخوتى " ماذا حدث للجدة ؟"

- هل تريد أن نضع ماءً للشجر أو شيئاً لقتل النمل ؟

- هل لدغتها حشرة؟

كانت الدجاجات تنظر إلينا من بعـيد و هى ترفع رؤوسها تحاول أن تسمع .

سألـتها أمى: "هـل قالت لك السـيدة فلورندا شـيئـا سيئـاً يا أمى؟" .

أجابت: "وأنت كالحمقـاء. ألم ترى أن ماء القهوة انسكب؟ لن نتناول شـيئـا الآن. فى هذا البيـت إذا لم أقل أنا ما يجب أن يفـعل سيموت الجـميع. دعى تطريزك واجمعى الثياب المتـسخة ، فلدينا كم كبير من الملابس للغسيل. هيا ! الآن!. هذا لن يؤجل إلى الغد".

نظرت أنا وإخوتى لنرى من سيتوصل أولا إلى مغزى ما يحدث. نظرنا إلى أمى لكنهـا لم تنظر إلينا. فى الحال اقـتربت منا الفـراشات والدبابير وسـألونا "ماذا يحدث للمرأة العـجوز؟". قلنا "لا ندرى. فجـأة أصبحت هكذا". قالوا: "لا تقـتربوا منها ولا تكلمـوها. إنها الآن فى الصـالة وقد فـتحت الصندوقـين. تبحث عن شئ مـا. هل فقـدتم شيئـا؟. لا تذهبوا. إنها يتطاير الشـرار من فمهـا" قالت لى الفراشة الصفراء "إن أمك تبكى أيضا".

عندما خرجت أمى بصرة الملابس المتسخـة جرينا نحوها لنرافقها إلى النهر. نفعل ذلك دائما، وبينما هى تغسل نقفز نحن بين الصخور ونسمع صـوت التيـار ونأكل الزهور الصفراء ونغـنى. قالت أمى "لا تأتوا معى. لا أريد أطفالا. إننى مرهقة".

فى المساء جلست جدتى مرة أخرى فى ركن من مدخل البيت. عندما اقـتربت منها أولـى فراشات الليل أخـذتها ورمتـها فى الأرض ووضعت قدمها عليـها. هربت الفراشات الأخريات. ذهبت أمى إلى مدخل البـيت. كنت وأخوتى نكتم أنفاسنا. قـالت: "قولى يا أمى، هل قالت لك السيدة فلورندا شيئا؟".

توقفت الجدة ومرت من الناحية التى كادت تسقط منها. كنا نحن الأطفال نقف فوق المائدة ننظر إلى ضوء المصباح. رأيناها تقترب. "يا إلهى" . أطفأت المصباح بنفخة وأنزلتنا. قالت:

"تلعبون بالشمعة لكى تتبولوا بعد ذلك فى السرير. اشربوا وناموا. من يرى أطفالا مستيقظين فى هذه الساعة؟!"

قالت أمى: "ألا تقولين لى يا أمى ما ذكرته لك السيدة فلورندا؟" .

أرقدتنا الجدة نحن الثلاثة فى السرير وكررت أمى سؤالها.

قالت الجدة: "ستذهبين إلى حيث يعوى الذئب يا استيلا، إلى حيث يعوى الذئب" . قالت ذلك وهى تنظر إلينا وتضغط بفكيها على سيجار لم تشعله. كان الشرر فى عينيها. "وأنتم! ناموا!" .

نمنا. اضطجعن هن أيضا. ظللت أنا أسمع أمى وهى تتقلب فى سريرها و وظننت أن أمرا ما ألمَّ بها. بعد كثير قالت جدتى بصوت غير معهود فيها:

- استيلا

- نعم

- أمهلتنا السيدة فلورندا أسبوعا لكى نغادر المزرعة. لا أدرى إلى أين سنذهب.

لم تتقلب أمى بعدها ولا مرة واحدة.

قالت جدتى : لو أن فيليكس هنا!" . تنهدت ونمنا.

فى اليوم التـالى استـيقظت جدتى مـبكرا أكثـر من أى يوم آخر وبدأت فى إعداد الإفطار . اسـتيقظتُ فى الحـال و ذهبت إلى المطبخ لأرافقـها . لم أدر هل ألقى إليهـا التحيـة، فقد ظل وجـهها كـاليوم السـابق . كانـت تنحنى على الكانون و تنفخ فى الشـعلة و عندمـا اتقدت الشعلة أضاءت وجهها . حينئذ ابتسمت و رأتنى . اقتربت من إحدى الفراغات الكثيرة فى جدران المطبخ و تبولت فى اتجاه الفناء.

قالت جـدتى بصوت غيـر معهـود فيـها "خذ القـهوة و اجلس هناك"

قلت "هذا ليس فنجانى "

قالت " لا تتناول شيئاً إذن -ألقت القهوة بالفنجان - لست على استعداد لتدليل الصغار. اذهب لتنام فلم يناد عليك أحد " .

لكننى لم أنم بل ذهبت إلى الفناء لكى أرى كيف يغطى الضباب الشجر بحيث لا يكشف إلا الأوراق العـالية و رؤوس عباد الشمس . ظهرت أخواتى و هن متشـابكات الأيدى و سألننى ما إذا كانت الجدة قد زال عنها الغضب فيذهبن إلى المطبخ . أجبتهن بالنفى و قلت لهن إن وجهها متغير و أنها تحطم الفناجين . قلن " إذن علينا أن نعمل " هنا خرجت أمى من حجرتها و بيدها التطريز . مرت بنا دون أن تنظر إلينا .

قالت اخواتى وهن عند البـاب " ها هو ابن السيدة فلورندا يأتى من هناك " .

قدمت جدتى قهوة للجميع و خرجت تلتقى بابن السيدة فلورندا قبل أن يصل إلى البيت و يتعين عليها أن تقدم له قهوة . عادت و هى أكثر تجهماً و جلست بجوار النافذة و بدأت تلف سيجاراً دون أن تنتبه إلى أن لديها سيجاراً مشتعلاً فى فـمها . عندما لفّت السيجار أشعلته أيضاً .

سألتها أمى : " ماذا سنفعل يا أمى ؟" . لكن جدتى بدلاً من أن تجيبها توجهت نحونا و انتزعت منا الفناجين إذ كان المفروض أن نكون قد إنتهينا من تناول القهوة ، فاليوم علينا أن نعمل أكثر من أمس وأننا نعيـش كسالى نمص دمـها كـأبناء العقـارب ،وأن علينا أن نذهب إلى الفناء و أن نسقى الشجـر وأن نلقى الحب للطيور وأن علينا أن نبحث بين الأشحـار وألا نعود إلى البيت إلا إذا وجدنا ثلاث بيـضات و إلا فليس هناك طعام للغذاء إذ ماذا نظن!

قالت أخواتى للدجاجة: "اسمعى أيتها الدجاجة" .

قالت الدجاجة: ماذا ؟

- لماذا لا تبيضين؟

- لأنكم لا تضعون لى أذرة

- بيضى ، فقـد سمعنا جدتنا تقول أنهـا ستمسك بكن جمـيعا وتذبحكن.

صاحت الدجاجة: "يا ديك، يا ديك، يا دجاجـات، اسمعوا ما تقوله البنات!

في البيت قالت جدتى لأمى:

- استيلا ، قولى للأولاد ألا يقطفوا ثمارا من أى شئ لأى سبب ولا حـتى ثمار الـتمـر الهندى. هذا المسـاء سـتأتى السـيـدة فلورندا لإحصائها على الشجر وغدا سيأتى رجل ليـجمعها ويبيعها فى البلد. عليهم ألا يقتربـوا من الزهور أيضا. لا شئ مما يوجد هنا الآن ملكنا. إذا رأيت قشرة ادفنيها.

قـالـت لنا أمى ألا نمر من تحت الأشـجـار وأنـا لا أدرى مـاذا تقصد، فالنخلتان وعباد الشمس ملكى. بعد ذلك رأينا جدتى تضع ماء ساخنا لشجرة الليـمون. لم نقترب لنقول لها أننا لم نجـد بيضا. بعد ذلك قالت:

- غدا سأذهب إلى البلد لأتحدث مع أناستاسيو.

قالت أمى: نعم يا أمى، هذا ما يجب أن نفعله، أن نتحدث مع خالى أناستاسيو لكى يساعدنا ويحصل لى على عمل.

- تعـجـبك فكرة الذهاب إلى المدينة، لكـن لا تفكرى فى أننى سأتركك تبحثين عن زوج آخر.

- ووعدك يا أمى؟

لم تجب جدتى. ظلت تنـظر إلى أذنيها وخلعت أمى قـرطها فى صمت وسلمته إليها. قالت جدتى:

- خذى دجاجتين أو ثلاثة كبارا وأعديهم. لا تنسى.

- لا توجد دجاجات كبيرة

- الموجود يا بنت. آه.

كانت زوجة أبى - التى يسمونهـا تينا رغم أن أسمها باولينا- لا تستيقظ فى الفـجر لإعداد القهوة . كنا نستـيقظ أنا و أختى من شدة خوفنا من العناكب و الصراصير . و لم يـكن باستطاعتنا التحدث فى المطبخ حتى لا تستيقظ تينا ، ولم نكن نستـطيع إشعال ضوء آخر غير ضوء الموقد حـتى لا نستهلك كيروسـين . إننى أتذكر الفزع و الرعب الذى كنا نشعر به .عندما كان أبى يـأتى بعد حلب البقرات كنا نقدم له القهـوة ثقيلة مُرةً فى فنجـان صينى أبيض . بعـد ذلك كان يذهب إلى عمله . كنا نعد قهوة باللبن لدستة العمال الذين كانوا يعملون معه و كنا ننادى أناستاسيو لكى يحـمل القهوة فى برّاد إلى الحقل . كنت أجلس أنا و أيوسيـبيا على كـرسى متعـانقتيـن و أقدامنا إلى أعلى ، نصلى حـتى لا يأتى عنكبوت إلى أن يتـضح النهار . عنـد ذلك كان يتعـين علينا أن نكنس الأفنية . تلك كـانت أفنية حقـيقيةً ، بأشـجار كثـيرة و أزهار . كنا مهمـا كنسنا تظل الأوراق فى المكان الذى نظفناه فى البداية . أسـوأ الأوراق كانت أوراق الصنوبر . كم كـانت كثـيرة أوراق الصنوبر تلـك ! . بعـد ذلك كنا نضع الماء للأشـجـار و الذرة للدجـاجات و كـنا نضع النخـالة للديوك . كـانت تينا تسـتيـقظ فى التاسعة أو بعدها و ذلك لا يحـدث فى أى ريف . كانت تجعلنا نقشّر الخضراوات و نجمع الأرز و الفاصوليا و نبحث عن البيض فى أعشاش الطيور و نغسل المقاعد و نمسح الأرض و نعمل و نعمل و نعمل دون توقف . فى الحادية عشرة تقريباً كنا نعد الموائد لحين قدوم رجال الحقل ،وكانوا جميعاً أهل جزيرة يأكلون كالثيرا . كانت أوانى تذهب وأوانى تعود . بعـد ذلك كنا نقدم القـهوة و الدخـان و ننظف الموائد حيث يـبدو أن

الذين أكلوا حيوانات . ثم نغسل الأوانى و نكنس المطبخ وصالة الطعام . بعد ذلك كانت تينا، على مضض ، تأخذ صحفتين كطبقين لنا و تضع فيهما قليلاً مما تبقى فى الأوانى، دون أن تسألنا مطلقاً عما إذا كان نوع الطعام يعجبنا . و كان لابد من الفراغ من الطعام فى صمت حتى آخر ملعقة دون كلام . كان علينا -أطفال ذلك العصر- أن نتحمل كل شئ. ثم بعد ذلك لم تكن لدينا لحظة فراغ أو لعب بالعرائس . لا شئ من ذلك بل العمل مرة أخرى . كان علينا أن نعيد المفارش التى توضع أمام أولئك الرجال إلى بياضها الناصع ، فلو كان بها بقعة فإن تينا لا تقبلها . حينذاك كنا نغسل فى طشت . نأخذ جذع شجرة ضخم مثلاً و نجعله على شكل طشت . كان منها أحجام مختلفة كل حجم له استعمال . لم تكن تينا تتركنا نضع صوراً لأمى فى أية ناحية فى البيت و لا أن نضع لها زهوراً فى كوب وراء الباب. كانت لدينا صورة صغيرة لأمى نخفيها فى مزارع البن و دائماً ما كنا نحافظ عليها نظيفة وجميلة ، لكن ذات مرة جاءت كلاب مهجنة وحطمت كل شئ فبكينا كثيرا. فى المساء كانت تينا ترانا وقد استحممنا نرقب وصول أبى عبر الطريق. وكانت ترسلنا لجمع الأرز وكنس الأفنية مرة أخرى وأشياء من هذا القبيل نستغرق فى إنجازها وقتا طويلا. لكن مهما كان الأمر كنا نتحمل، وكان أناستاسيو يساعدنا. وعندما كنا نرى أبى يبدو من بعيد عند التل كنا نلقى ما بأيدينا ونجرى لنختفى حتى نروّعه عندما يمر. كان هو يتصنع كما لو كان قد فوجئ كثيرا، وإذا كانت له رغبة فى اللعب كان يسقط من على بغلته بإتقان كبير وهو يضحك. بعد ذلك كان يركّبنا بغلته،

واحد منا كل يوم. عادة نكون قد جهـزنا له الحمام وإناء به ماء نظيف فاتر إذا كان يريد الحلاقـة. كنا نمسك له الموسى والفرشاة والصابون ذا الرائحة ، وكنا ننظر إلى مـواضع إصاباته فى الحرب. كنا نتبـعه أينما ذهب كالكلاب الصغيرة. وفى أيام الأحد كان يضطجع ظهرا ليستريح تحت أشجـار الصنوبر حيث الهـواء العليل. وكنا نضطجع إلى جـانبه نحادثه ونداعـبه حـتى يغلبنا النعاس جـميعـا. كان أحيـانا يحكى لنا أكاذيب كـبرى ، لكن حذار أن يضحك أحـد. من هذه الأكاذيب أنه وهو صغـير ربى حـيوانا على عصـير القـصب وكانت للحـيوان سن واحدة وذراعان طويلان يصـلان إلى الأرض. فى البيت لم يكن أحد يعلم عن الحيوان شيئا . وذات يوم نسى أن يضع طعاما للحيوان فظهر له وقت النوم وقال له من الشباك "تاتا، أعطنى عصير القصب. تاتا، أعطنى عصير القصب" . كل ذلك كان يضايق تينا، وكانت تتجول فى البيت وهى تسخر. أحيانا كانت تتصنع المرض حتى ينصبَّ اهتمام أبى عليها هى، أو تشكو منا أننا لا نعمل وأننا لا نسـمع كلامها. كذب. لكننا لم نكن نسـتطيع أن نرد ، وكان أبى يغـضب لدرجة أنه عـاقبنا ذات يوم. لم يضربنا أبى إطلاقا إلا فى يوم أعطانا فـيه علقة. كنا فى الفجر نعد الـقهوة وجاء هو بحبل طبّقه أربع مـرات وأوسعنى ضربا. بعد ذلك ضرب ايوسيبيا . كان أناستاسيو حاضرا وقد اتسعت حدقتاه هكذا ينتظر دوره سـاكنا. لكنه لم يضربه. لم نعـرف لماذا ضربنا ولم نجرؤ على السؤال. لابد أننا فعلنا شيئا ما. حتى تينا رأت أن الأمر زاد عن حده فقامت وسألت أبى ماذا حدث. سألنا أبى "هل تعرفون لماذا أضربكم؟ هل تتذكرون أختى أورستـيلا؟ لا أريد أن أسمع اسمها فى

هذا البيت. في هذا البيت اورستيلا ماتت" . لكن ذلك حدث مرة واحدة. كان أبي يحبنا كثيرا وكان لطيفا جدا. على الرغم من محاولات تينا لأخذه منا فإنها لم تفلح تماما، ولم تفلح خاصة في إبعاده عن أناستاسيو الذي كان يحبه أكثر لأنه أصغرنا ولأنه ولد. حينئذ فكرت تينا في التفريق بيننا أنا وايوسيبيا ولم نكن قد افترقنا قبل ذلك أبدا. كانت تغتاظ من ايوسيبيا أكثر لأن الجميع كانوا يقولون أنها تشبه أمي، فطلبت من أبي أن يعيرها لاختها التي كانت تريد فتاة تساعدها وترافقها. رفض أبي في البداية لكن تينا حاولت وحاولت حتى أقنعته. أظلمت الدنيا في وجهي من الحزن واللوعة ولم نجتمع أنا وأختي بعد ذلك قط لأنها عادت وهي في الخامسة عشرة وأحبت شابا تزوجته ورحل بها بالقرب من كاماجواي، يعني بعيدا بالفعل. حينئذ كانت تينا تجعلني أعمل ضعف ما كنت أعمل. كانت تلك أشد سنوات عمري مرارة ، لا بسبب العمل وإنما بسبب المعاناة والإهانات والكلام البذئ. أحد رجال الجزر الذين كانوا يعملون مع أبي أعجب بي وكنت على استعداد للزواج منه، لا لشئ إلا لمفارقة تلك المرأة المتوحشة، لكن كيف كنت سأترك أبي بمفرده؟ ثم إن الرجل كان يكبرني كثيرا. لكن بعد ذلك تدخلت العناية الإلهية، فبدأت هي تشكو من الآلام وتعاني حتى أنني أشفقت عليها. كانت بدينة لدرجة لا تتصورونها ، وفي خلال أشهر لم يكن أحد يعرفها من النحافة. كان كل فستان لديها نعمل منه فستانين. ذلك الأمر لابد أن تراه لكي تصدقه. كانت تبعث على النفور والاشمئزاز. اصفّر لونها وتغيرت عيناها. في أي ساعة كانت تعاودها الآلام وكانت تخرج مهتاجة

بلباس النوم أو عارية ويزبد فمها وتبكى خلف المطبخ وتتمرغ فى مرابض الجياد وتأكل الأعشاب كالكلاب التى تشكو من معدتها. كان ينتابها هياج كبير فتكسر الأطباق والصور الرخامية لزواج أبى الأول. وكانت تضرب نفسها وتعض نفسها. ذات يوم أوقعتنى وبيدها سكين. لم يدر أبى ماذا يفعل، أحضر لها الطبيب عدة مرات مع ما يتكلفه ذلك، ثم الصيدلى والقابلة والببغاوان اللذان طلبتهما، كل شئ. لم تكن تلك مجرد أدوية بل علاج موصوف وشموع تضاء ونذور للقديسين. وفى النهاية لا شئ. كانت حالة تينا تزداد سوءا كل يوم ويزداد لونها اصفرارا. كانت تسب أبى وتلقى عليه مسئولية ما يحدث لها. كانت تسئ معاملته وتقول إنه يقتل النساء وإنها أقسمت أن تسمم الأكل حتى نموت قبلها. لم تكن تريد رؤيتى على الإطلاق ودعت ألا يكون لى أبناء ذكور وأن تكون بناتى شريرات. ذات ليلة صعدت إلى السطح ومعها زجاجة كحول لتشعل النار فى البيت وتحرق نفسها. أظن أن الحمى هى التى أفقدتها عقلها. عموما فإن المزرعة بدأت فى التراجع. فى ذلك العام سرق العمال أبى، وأقدم الرجل الذى كان يريد أن يتزوجنى على دخول حجرتى وكانت كارثة على وشك أن تحدث وقالت الصاعقة "هاأنذا" ولم تترك شيئا قائما إلا وأعطبته. لم تحدث صاعقة كتلك أبدا. إن صفائح الزنك كانت تطير فى الهواء وتقطع رؤوس الأبقار. إحدى الصفائح طرحت الشجرة التى كانت بالفناء أرضا. أعاذنا الله من عاصفة كتلك. فقدنا كل شئ فى ذلك العام، فماتت الدجاجات والنحل واحتلت الصراصير البيت واحتلت الحشرات الفناء واحتلت أشجار الطلح مراتع

الخيل، والتبغ أصابته الآفات. وعندما رأت تينا أنه لم يتبق شئ -إذ انتهى أبى من النحافة- أخذت حبلا وخنقت نفسها فى حجرة الطعام حتى نتذكرها عند تناول الغذاء والعشاء. تركت ورقة قالت فيها أنها انتحرت بسبب أبى. أرأيتم سوء طويتها؟! أرادت ألا تدعه يعيش فى سلام ، وقد نجحت فى ذلك تقريبا. سامحنى الله ،إذ يقولون أنه حتى ألدّ الأعداء يجب ألا نتمنى له شرا. لكن كل الناس الذين كانوا يعيشون هناك فرحوا لموتها إلا أبى، فقد جلس فى ركن وظل أسبوعا لا يتكلم ولا يتناول إلا القهوة. لم يتحرك حتى لمرافقة الجثمان إلى المقابر. لم يسعد أبى بعد ذلك فى حياته ولم يضحك. أناستاسيو أخذه عمه لكى يعلمه حرفة الصيد ، وأنا التى كنت صغيرة ألححت على أبى أن نغيّر البيت ونذهب إلى الريف. بعنا القليل الذى تبقى لدينا واشترينا بيتا صغيرا فى الريف وفتحنا دكانا. حينئذ عرفت بلدتكم هذه. كانت تلك أيام سعيدة لم يتبق منها شئ.

جهـزت جدتى البغلة. كانت مـارجريتا قـد ضعفت كثـيرا ولم تستطع السيـر لكن جدتى ثنت الحبل وضربتها عـدة ضربات حتى أن المسكينة أصبحت خفيفة وعاد إليها شبابها. صاحت جدتى فيها:

- وأنت أيضا تريدين أن تنغّصى علىَّ حياتى يا مارجريتا؟

عندما ركـبت جدتى ناولتـها أمى أكبـر الدجاجـات فى البيت. سارت جدتى فى طريقها دون أن تودعنا وأخذت تبتعد وتبتعد. قالت أمى:

- يمكن أن يحدث لها أمر سئ. أدعو الله ألا تمطر.

كنا فى الحديقة ولم يكن أحد يمـسك شيئا فى يده. دخلت أمى و أخواتى صـامتات وذهبت أنا مع بعـض الدجاجات حـتى منتصف الطريق. ذهبت أنا لأرى جـدتى لحظات أخرى. أما الدجـاجات فكنّ أكثـر حزنا وذهبن لتوديع زمـلائهن الذين لن يعودوا أبدا. كـان شبح جدتى وهى على البغلة يبتعـد ويصغر بمرور الوقت ، لدرجة أننى بعد لحظات لم أرها، رغم أننى فـتحت عـينى جيـدا. حينئـذ ظللت فى منتصف الطريق ونظرت ناحـية المنزل الذى تحيطه الزهور والفـراشات بسقفه الأحمر اللامع دائمـا. كنا فى منتصف الصباح ، ربما لذلك قد أعجبنى المنظر لكننى لم أرد الدخول لأن البيت من الداخل بغير جدتى يكون وحيداً والأثاث أكثـر ارتفاعاً والجدران أكثر صـمتاً . ترى كيف يكون المكان الذى تسير فيه جدتى فى هذه اللحظة ؟ وأى زهور توجد عند التـرعة يا فتى ؟ عـادت الدجاجـات التى كانت معى إلـى البيت واحدة وراء الأخـرى وشعـرت أنا أننى إذا لم أصرخ أو أعـدو بكل

سـرعتى أو إذا لم يظهـر قوس قـزح - رغم أن الوقت لم يكن بعـد انتهـاء المطر- فإننى سأذهب لأجلس مع اخـوتى و أدعو أو سأخـتبئ تحت السرير أو المائدة . لا أدرى ماذا حدث ، فقـد فقدنا كلنا الرغبة فى الحديث والغناء ، حتى الفراشـات. بالأمس كانت الفراشات تحطّ على رأسى والآن ترانى أمّر ولا تنظر إلىّ كما لو لم أكن أنا وهذا لأن الفراشات نائمة ، إذ ليس لها رغبة حتى فى الطيران . والدبابير عندما تريد أن تتوقف فى الهواء تتشابك أجنحتهـا فتسقط ، وضوء فراشات الليل لم يعد يضئ تقـريباً وليس أزرق ، و حتى رائحة اليـاسمين لم أعد أشـعر بها . أمى هى التى تـسببت أكـثر من جدتى فى أن تسـير الأمور بهذا الشكل لأنها تنسى وضع الزهور فى شعرها وترتدى فستاناً قديما لا لون له ولا تبعد عـينيها عن شغل التطريز . يا للروعة لو أن أمى فى عز النهـار صعدت إلى سـطح البيت وفتـحت ذراعيهـا تماماً وغطت رأسها بالزهور الحمراء والصفـراء . إن الفراشات ستنصبّها فى الحال ملكة على الأفنية و ستـعترف بها كفراشة أصـيلة ، أكثر أصالة من الفراشات نفسها .وسنرتدى أنا واخوتى ملابس المساء ولن نملّ من التصفيق . من المؤكد حينئذ أننـا سنرقص فى الحديقة كمرات سابقة . قالت أختى وهى عند الباب :

- " يبـدو أن أشـجار الخـروع التى خلف المـطبخ تناديك وهى منزعجة جداً "

كانت أمى قـبل ذلك تتجـول فى الأفنية على شاطـئ النهر وهى تضحك وترتدى لباساً أبيـض فتبدو كالملائكة ، وكنا نتابعهـا ونقذفها

بالأزهار والأحجار الصغيرة الملونة وكـان جدى و جدتى يسيران خلفنا وهما يرقصان وخلفهما فراشات الليل. كنا نغنى ونتنزه جميعاً ونذهب للاستماع إلى حلقات ليونادرو مونكادا فى بيت السيدة فلورندا . كان كل منا يذهب ومـعه ورقـة خروع ليـستـخدمـها كـمظلة إذا أمطرت السماء. صاحت أختى:

- قلت لك إن أشجار الخروع خلف المطبخ تريد أن تذهب إليها. أمر ما قـد حدث وأمى تطرز وهى مختـفية وراء الباب. قـالت أختى الأخرى:

- ها قد جـاءت الفراشة الصفـراء تناديك لكى تذهب وترى ما الذى حدث بين أشجار الخروع. نحن لا نجرؤ على الذهاب.

قالت الفراشة:

- هناك رجل جريح بين شجيرات الخروع قدم فى الفجر.

ذهبت لأرى ما الذى يحدث لأشـجار الخروع ذات الأوراق التى فى حجـم مظلة المطر. ذهبت ومعى عـباد الشـمس فى يدى أترقب. كانت أشجار الخروع صامتـة ومنفعلة. ابتعدن عندما مررت بهن وقلن فـيـمـا بينـهن "آه عندمـا يراه ،آه عندمـا يراه، عـندمـا يرى الرجل الجريح" . تابعت تقدمى وفجأة رأيتـه بين الحشائش. فى البداية تبادلنا النظرات ونحن متجـهمون ومندهشون. بعد ذلك قـام هو ، وشعرت أنا برغبة فى الـغناء عندما رأيت صدره وقد احمـرّ بدم سال من ثلاثة جروح. مدّ لى يده فجريت إلى المنزل.

يبدو أن أمى سمعت صوت أنفاسى فى منتصف الصالة لأنها رفعت عينيها ورأتنى فابتسمت من بعيد دونما رغبة.

قلت أخيرا:

- هناك رجل جريح فى الفناء يا أمى.

لكن أمى كانت تطرز وهى حزينة تفكر فى أمرها. وضعت يدها على رأسى وقالت لى:

دعنى يا بنى فأنا أعمل. لا تدخل الفزع على أخوتك. هناك تين شوكى على المائدة . خذ أصغر واحدة واترك الأخرى لهن.

دخلت الفراشات إلى صالة الطعام ونظرت إلىّ . سألننى "ألا تصدقك ؟" . نظرت الفراشات من النافذة وذهبت إلى حيث الرجل الجريح ثم عادت. حطت الفراشات كلها على رأسى وقالت لى " أننى رأيت هذا الرجل من قبل وقد ركب سحابه حمراء تبدو كالحصان. نادى علىّ مرة أخرى ووقع . جرت الفراشات واقتربت أنا رويداً رويدا . نظرت إلى عباد الشمس ليقول لى هل أنا نائم أم يقظان.

قال لى الرجل وهو على الأرض وقد ابيضّ تقريباً من الشحوب:

- اقترب .

سألته: هل أتيت راكباً السحابة الحمراء ؟

أومأ برأسه. سألته

- هل أسقطتك؟

قال : قل لأمك أننى هنا وأننى أموت .

- أنت تموت ؟ . أمى تطرز . أمى لها جناحان أبيضان .

قالت الدبابير :

- إن أمه لا تصدقه.

وضع الرجل يدى بين يديه الداميتين . قال

- الآن ستصدقك .

جاءت الفراشات والدبابير معى . قلن " الآن ستصدقك " وقال لى عباد الشمس " أسرع " . قلت:

- إن الرجل الجريح سيموت يا أمى إذا لم نساعده

- ماذا تقول يا بنى ؟

قال الدبور :

- إنه لصادق يا سيدتى . انظرى إلى يديه

- انظرى إلى يدى

- آه يا رب !

قالت أمى و هى بجوار الرجل :

- أين جرحت؟

- هنا يا أستيلا، ثلاثة جروح. ساعدينى .

شـحب لون أمى أكـثـر من الرجل وكـانت الشـمس تشعّ على ظهرها . بعـد ذلك امتلأت عـيناها ببريق وتجـهمت وفعلت، كـما لو كانت تغسل يديها حتى قالت " ساعده أنت يا بنى رافقه إلى البيت ، دعه يرقـد فى حجرتى حـتى أبحث له عن شئ نعالجه به " ابتـعدت مسرعة وهى تعدل شعرها وفستانها . نادت على أخوتى خلف المطبخ وطلبت منهن ألا يشـرن الضجيج وأن يرقبن الطريق أمـام البيت خفـية كمـا لو أنهن لا يفعلن ذلك وأن يخطراها فـى الحال إذا ما جـاء أحد خاصـة السيدة فلورندا أو الخفـير . " هناك سر كبـير داخل المنزل " ذهبت أمى إلى الممـر لتـغلى الماء ، بعـد ذلك خـرجت إلى الفناء . أخذت تطريزها الذى كـان قد سقط منهـا بين أشجار الخـروع وقالت للدجاجـات والدبابير والقطط أن يتـفضلوا بعدم الإزعـاج وألا يدعوا أحداً يسبب ضـوضاء وأن يراقبوا الطريق ويخـطروها إذا جاء أحد . قالت لهم "لدينا سر كبير داخل المنزل" .

دخل الرجل من البـاب بالكاد وكـان يعـادل سـرير أمى طولاً تقريباً. خلعت أمى عنه قميصه بعناية فائقة وأخفت القميص فى مكان لا يراه أحد . بعد ذلك نظفت الرجل جيداً بماء مغلى فظهرت الجروح الثلاثة فى الحال فى الصدر . كانت الجروح واحداً تحت الآخر . بعد ذلك نظر الرجل إلىّ - كانت أمى تنظر إليـه و كان هو ينظر إلى أمى دون أن نتكلم - وضعت له مـرهما خاصا بجـدتى . تألم وسال منه

العرق . عندما أخذنا نربط له الجـروح كان قد نام والعرق يسيل منه بغزارة . وضعت أمي رأسه برفق شديد على الوسادة وقد وضعت لها كيساً نظيـفاً و مشطت له شعره الأسود ولحيتـه حتى ينام وشكله أكثر جمالاً . تأملنا شكله . خلعنا عنه حـذاءه ، تأملناه بسلسلته . تأملناه بمسدسه وخنجره ، تأملناه وظننا أنه لابد مستريح على هذا السرير ذى الملاءات البيضـاء والمفارش النظيفة وأنه سيـشفى حالاً وتأملناه ونظرنا إلى أنفسنا . وضعت أمي كل الأسلحة على كرسي ووضعت أنا عباد الشمس فى نفس المكان . قالت لى أمي بحركة شفتيها "لنخرج على أطراف أصابعنـا و سأعدّ له مـرقة دجاج ليـتناولها حـين يستـيقظ " أجبتها بنفس الطريقة "أعدى مرقة بدجاجتى ، وسأظل أنا هنا لأرعاه وأهش عنه الذباب " قالت أمي " لن أعد مرقـة بـدجـاجتـك حتى لا تشعر جدتك " . نظرنا مرة أخرى إلى الرجل وذهبت أمي إلى الممر . خـرجت أنـا إلى الفناء على أطراف أصـابعى وأمـرت الجـمـيع بالصمت . " لـم يتكلم أحد هنا . كيف حـاله ؟" "صمـتاً. إنه الآن أحسن ، عالجته أمي وهو الآن نائم ونعدّ له مـرقة دجاج لكن صمتاً " قلت لأخواتى" صمتا" وقالوا لى "نـعم صمتاً" و سيخطروننى إذا جاء أحد وأننى سأخطرهم بحـالة الرجل ومتى يستطعن رؤيته . قلت لهن" صمتـاً ، سأخطركن" . عدت إلى الحجـرة . أتمنى ألا تحضر جدتى الآن وألا تحضر السيدة فلورندا .

بدأ المطر بعد ذلك دون رعد أو رياح وكانت السماء لم تمطر منذ مدة كـبيرة . كان مـطـراً هادئاً لينام الرجل مستـريحاً لسمـاع صوته

ولكى يظهر قـوس قزح عندما يستـيقظ . أصبح الفل نظيـفاً وأينعت الزهور ولمع سطح الـبيت وأخـذت أخـواتى المكـنسة وكـنسن ونظفن الأثاث ،أثرن الغـبـار فى البـيت . اسـتحـمـمن هن أيضـاً وارتدين البلوزات المطرزة فـأصبـحن أكثر امـتلاء . فى كل لحظة كـانت تأتى إحداهن إلى الحـجرة . سألـننى "هل يمكن أن نذهب لنتعـرف عليه بهذه البلوزات ؟" كنت أخطرهن بحالـة الرجل . يسألننى هل يضعن شرائط على رؤوسـهن ؟ ثم يختفـين. كل ذلك فى صمت ولم يكن أحد يعلم أين ذهبت أمى . ظللت أنا أرقب نوم الرجل الجريح وأنظر إلى وريديه اللذين يهبطان فى ذراعـيه كنهرين أزرقين . فـجأة فاحت رائحـة كل الزهور فى الحجـرة . كانت أمى وقـد وقفت عند الـباب بجونلة حمراء وحذاء بكعب. سألتنى

- هل استيقظ ؟

- كم أنت جميلة يا أمى!

- أعددت مرقة دجاج شهية

- اجلسى إلى جوارى لحظة

- سأذهب لأطرز. أخبرنى عندما يستيقظ.

كان الليل يدخل تقريباً عندمـا فتح الرجل عينيه. فى الخارج كنا نسـمع صوت أجنحـة الفـراشات والدبابيـر وهى ترقب عـبر حـديد

الشباك. نظر أولاً إلى السقف . تحـركت . ثم نظر إليّ. ابتسمنا هكذا ونحن نتبادل النظرات . بدا حينذاك أن الرجل يريد أن يقول كلمة لى وحدى. سألنى بصوت جميل

- من ينام هنا ؟ أنت؟

- أمى . هل تريد أن أحضر لك ماء من الزير ؟

طلب منى أن أقترب وأخذ يدى

- ألا يسمعنا أحد؟

- لا

- هل أنت متأكد؟

- نعم

- جئت لأتحدث معك ، لأقول لك شيئاً عليك أن تفعله.

جعلنى أقترب منه أكثر و أنحنى عليه أكثر

- هل حقاً لا يسمعنا أحد؟

- لا أحد ، لا أحد.

- حدثتـنى الشجـيرات عنك خيـراً . عندما تركـتنى السـحابة الحمراء فى النهر قالت لى فـراشة صفراء أن أجئ للبحث عنك وأنك ستساعدنى.

كانت أمى جميلة لدرجة أننى والرجل شعرنا بالدوخة. قالت:

- اذهب للصالة يا ولد

- لا ، إنه رجل صغير

- سأذهب لإحضار مرقة الدجاجة التى أعددتها. إنها تشفى بمفردها. بعد ذلك عليك أن ترحل . لا يجب أن تراك أمى هنا

عندما خرجت أمى أخذ الرجل يدى مرة أخرى وقال لى بسرعة وهو ينظر ناحية الباب و إلىّ:

- أنا فى الحرب وأريد أن تجمع ذات يوم الأزهار وعباد الشمس والفراشات والدبابير وفراشات الليل وأن تمضى بهم عبر الطريق فى صف طويل مرصوص حيث تغيب الشمس . كلكم فى الطريق . لكى نبدأ عهداً جديداً لابد من أن تفعل هذا ، ويجب أن نغزو الغرب بجيش كهذا الذى أحكى لك عنه. ستكون أنت القائد وسينضم إليك أطفال آخرون بحدائقهم .

عادت أمى بالمرقة ، لكنه كان قد أنهى الحديث معى. خرجتُ إلى الفناء . أحاطتنى أخواتى والفراشات والدبابير وسألننى هل يجب أن يحافظوا على الصمت حتى الآن ، قلت لهم لا ، وأن يذهب الأخوات لتناول مرقة الدجاج وأن يتركونى بمفردى بين أشجار الخروع. سألتنى فراشات الليل " لماذا تلمع عيناك جداً ؟" أجبت: "فى البيت كل الناس تلمع أعينهم" .

في المساء جلسنا حول المائـدة : أخوتى فى جانب ،وهن يدخلن حبـات العقـد ، أنا والرجل فى الجـانب الآخر بيننا سـرّ بالنظرات . وضعنا المصباح فى منتصف المائدة و جلست أمى خلف النافذة تطرز . كان الـرجل ينظف مسـدسه . سـألته أمى دون أن ترفع عـينيهـا عن التطريز .

- كيف أصابوك ؟

- كـمـين . كنا ثلاثة . قـتلوا الاثـنين . بما أننى أعـرف هذه المنطقة جيداً استطعت الاختـفاء ،والمكان الوحيد الذى استطعت المجئ إليه هو هنا ، لكننى لم أكن أعـرف كيف سيستقـبلنى والدك وخاصة أمك .

- لم تكن لتلتقى بأبى .وقـد ذهبت أمى إلى المدينة . لا تتصور الظروف التى نمرّ بها .

أحـياناً كـانت أمى تنظر إلى الرجل بسـرعـة وذات مرة التـقت عيونهما وقالت هى : " هذه الخيوط متعفنة " . قال الرجل:

- لم يكن يجب على العجوز أن ترحل .

- الآن كل ذلك ملك السـيدة فلورنـدا وعلينا أن نرحل . نحن نسوة وحيدات دون رجل يحمينا فماذا يمكن أن نفعل ؟ أنا حظى وافر فقط فيمن يخدعوننى .

توقف الرجل عـن تنظيف المسـدس وأسند رأســه على المائدة. نظرتُ أنا إلى أمى.

- من أى شئ مات العجوز؟

- لا ندرى . بسبب ألم فى الـفخذ جـعله يعانى أكثـر من عام وبسبب الغرز التى تورمت

قالت أمى بعد لحظة :

- سأذهب لأصفى قليلاً من القهوة .

ثم ذهبت إلى المطبخ.

قالت أخواتى

- انتهينا من عُـقـد ، سنعمل عُـقـدا آخر.

جاءت رائحة القهوة إلى صالة الطعام

عندما عـادت أمى كانت مـعها الفناجـين والأكواب يخـرج منها البخـار . وزعت الأوانى و جلستْ إلى المائدة دون أن تتناول قهـوتها وهى تنظر إلى العقد الذى انتهت منه أخواتى . قالت :

- لماذا لا تترك هذه الحرب ؟ قد يقتلونك .

كان الرجل قد انتهى من تناول قهوته وبدأ فى تنظيف مسدسه من جديد . قال

- لا تدرين . لا يمكن لأحد أن يعيش .

- حسناً . من الأفضل أن تستقر فى مكان ما وتحصل على عمل. أعانك الله.

- الله غير موجود.

- لا تقل ذلك .

- أنت تؤمنين به ولا يساعدك.

- إذا لم أؤمن بالله فبمن أؤمن ؟

أخذ الرجل ينظر إلى ما بداخل المسدس من الفوهة . ذهبت أمى إليه وقالت:

- عليك أن ترحل غداً بمجرد شروق الشمس .

أومأ الرجل برأسه . قالت :

- فى الليالى الأخيرة سمعنا صوت طلقات .

- وستسمعون ثانية . لهذا تقلقنى العجوز .

- أنا أعرف أنهم سيقتلونك فى الحرب.

- هل هذا حجم مناسب للعقد؟. لقد مللنا.

- أليست هناك نساء ؟ لكى يطبخن ويغسلن ويداوين الجرحى

- هل هذا حجم مناسب للعقد ؟

أجاب الرجل :

- نعم . لا ، ليس هناك نساء . وسقط التطريز على الأرض

مكثنا فى صمت وفجأة بكت أمى وخيّم الصمت علينا . قالت أمى :

- اذهبوا لتناموا يا أولاد .

لكننا لم نذهب . قالت للرجل:

- أنت لا تدرى كم أعانى .ولم أستطع النسيان .

- لم يكن ذلك بسببى يا إستيلا بل بسبب العجوز. أنا كنت على استعداد لتحمل مسئولية الأولاد رغم أنهم ليسوا أولادى .

- نعم ، نعم . أعرف .

- جميلة جداً هذه البلوزة.

- لم ألبسها من قبل .

نهضت أمى لتجمع تطريزها ووضعته فى الحجرة . قالت وهى فى الصالة:

- من الأفضل أن ننام . لا يجب أن تظل الأضواء حتى الآن . تبولوا فى الفناء.

- أين سأنام أنا؟

عندما استيقظتُ كانت أمى والرجل فى المطبخ يتحادثان بصوت منخفض. استقبلانى بابتسامة وأعدت أمى الإفطار. قال الرجل:

- سأذهب الآن

- ناد على أخوتك لكى يتناولوا طعام الإفطار ويودعوا الضيف.

قَبَّل الرجل أخواتى وعندما ودعنى قالت أمى أنها ستعدّ له قهوة مرة أخرى لكى يحملها معه فى آنية.

- يجب أن يكون ذلك بسرعة.

أعدَّتها بسرعة وكانت قهوة جيدة. قال

- سأذهب الآن فعلا.

ذهبت أمى إلى الحجرة وأحضرت له ميدالية عليها صورة العذراء وعلقتها فى القميص من الداخل. قال الرجل:

- علىّ أن أذهب. كونوا عقلاء.

سألته أمى:

- هل كانت القهوة جيدة؟

تساقطت منها الزهور الواحدة تلو الأخرى. قال الرجل وهو عند الباب:

- تصرفوا بتعقل.

- ألم تنس شيئا؟ هل أذهب لأتأكد؟

- لا

لم تستطع أمى أن تسيطر على نفسها. خفقت أجنحتها بشدة داخل البلوزة حتى شقتها وملأت المطبخ. سقطت الأكواب والأطباق على الأرض وطار رماد الموقد فى كل مكان وعمّ الضباب. لم تبق لها زهرة واحدة فى شعرها. جرت أخواتى وأسندت كل منهما جناحا ، لكن الأجنحة كانت قوية لدرجة أنها رفرفت أختاى معلقتان بهما . تعيّن على الرجل أن يحتضنها وجلس بجوارها فى نفس المقعد وشرح لها أهمية الحرب. كنت قد ذهبت إلى الفناء بحثا عن زهور. قلت:

- اثنان من الحرس يأتيان.

قالت أمى:

- يا إلهى - هدأ الجناحان- إنهم لا يمرون من هنا فى هذه الساعة أبدا

- لا تنزعجى. تصرفى كما لو لم يكن هناك شئ.

قال ذلك وذهب إلى الحجرة ومسدسه فى يده

قال الحرس:

- صباح الخير

ردت أمى بصوت رقيق

- صباح الخير ، صباح الخير.

قلت أنا

-صباح الخير

- لم نفطر حتى الآن. أعطونا قليلا من القهوة

- تفضل. يجب ألا يحرم أحد من القهوة ، خاصة فى وقت مبكر كهذا ، فالسير هنا بدون شىء من القهوة فى المعدة هو آخر ما يسمح به. أما اللبن فلا ، فليس لدينا حتى لبن لنا.

قالوا وهم يشربون القهوة:

- ليس من الضرورى . فى هذه الفترة من الأفضل النوم حتى وقت متأخر.

ابتسمت أمى.

قال الرجل وقد ابتعد الحارسان:

- الآن أستطيع أن أرحل.

صافح أمى وقبّل أخواتى وقبّلنى و نظر فى عينى. ودّعنا جميعا بإشارة برأسه. صاحبته حتى النخلة الموجودة عند الباب. لا أدرى كم من الوقت مرّ منذ أن رحل وأنا ماكث هنا ، عيناى مغمضتان حتى لا تفارقنى رؤياه.

كانت أمى بجانبى. لم يكن فى شعرها زهرة واحدة ، وكانت قد خلعت جونلتها الحمراء . قالت لى:

- ماذا تفعل هنا؟. اذهب إلى داخل البيت . لا يجب أن تأتى أمى وتجدك هنا مبكرا تتجول بين الأشجار. البس بنطلونا وإلا سيلدغك النحل فى فخذك.

- أنا أودع الرجل الجريح.

- أى رجل جريح؟

قالت أخواتى وهنّ عند الطريق:

-هذه جدتى تأتى

قالت أمى:

- تعال نستقبلها - وسارت أمامى وهى تطرز.

لم يكن المكان الذى ذهبنا إليه أنا و أبى بلداً جميلا ، بل لم يكن بلداً على وجه التقريب . كان به شارعان ترابيان مليئان بالحصى يتقاطعان فى حديقة . كانت الحديقة قديماً بها بئر و شجرة ورد وعندما انهدمت حافة البئر و سقط فيها ثلاثة أطفال احتج الناس لدى العمدة . عاد الناس إلى الاحتجاج عندما تخطى نبات العليق الأمريكى تمثال زعيم وطنى وشجرة الورد . لكن بعد ذلك لم يحتج الناس أبداً ، وظلوا بلا بئر ولا حديقة وبدون الأطفال الثلاثة وبدون شجرة ورد. وأقفل مقر العمدة أبوابه وسّرح موظفيه وأصبح الناس بلا عمدة . لكن ذات مرة كان هناك احتفال بعيد الاستقلال وانتخابات وعمدة وقسيس وكنيسة وكل شئ ثم لم يكن هناك شئ على الإطلاق. كان العمدة رجلا عجوزا لا يخرج من بيته ولم يكن أحد متأكدًا من أنه لا يزال على قيد الحياة ، والقسيس حمل متاعه ورحل. أخذ معه أحسن صليب فى الكنيسة : الصليب الوحيد فى الحقيقة. الناس كلهم بعد ذلك متشابهون وضعفاء ويعملون فى مزارع التبغ القريبة. كانوا يخرجون فى الفجر تحت الضباب دون كلام. بقية الناس كانوا ينامون حتى الضحى عندما يرتفع صوت امرأة عجوز تسأل عن صحة شخص ما كان على وشك الموت أو تسأل عن أمر هام آخر. لكن ذلك لا يحدث إلا أحيانا. وفى معظم الأحيان كانت هناك الشمس فى مواجهة البيوت العارية من الدهانات والشوارع الخالية. لا يفتح أحد نافذة ولا تجد كلبا يعبر الطريق. فى الحادية عشرة تقريبا كان الأطفال يخرجون إلى الشارع يلعبون. لم تكن هناك مدارس ، لكن الأطفال لم يكونوا يلقون الحجارة ولا يتشاجرون ولا

يتصايحون. عند الظهيرة كانوا ينادون الأطفال لكى يحملوا الغداء إلى الكبار فى الحقل. عندئذ كانت الشمس تحمى أكثر لكى تلسع الأطفال. كان الحصى يتوهج فتتورم أقدام الأطفال. كان من يمشى دون مظلة أو من له أهداب قصيرة يكاد يفقد بصره. وكانت السقوف المصنوعة من البوص على وشك الاشتعال. كانت القرية كلها تعود إلى النوم. كان الحر شديدا لا يطاق ولم يكن بمقدور الفتيات اللاتى يطرزن مفارشهن بجوار الزير التحلى بالصبر والتحمل. فى الرابعة مساء كان هناك مطر خفيف يتحول بعد ذلك إلى سيول قوية قطراتها سميكة لكنها تتساقط برقة. فى نفس الوقت كانت الرياح تهب وأوراق الشجر تنخلع وتطير فوق المنازل وكذلك الملاءات كانت تسقط من على الحبال. كل ذلك كان يحدث فى أقل من خمس عشرة دقيقة. كانت الشمس تعود إلى الظهور وتسخّن الجو إذا أرادت ، وكانت فراشات بيضاء صغيرة من تلك اللاتى لا يمكن الإمساك بها تحط فى مجموعات فوق أرضية الشارع المتماسكة. وعندما يعود الرجال من الحقل كان بعض هذه الفراشات تخرج طائرة ، أما الغالبية فكانت تبقى وتسحق ، إذ لا يهمها ذلك. فى المساء كان الرجال يجلسون أمام أبواب منازلهم وملابسهم مكوية يدخنون فى صمت وملامحهم متجهمة. بعض الأطفال كانوا يلعبون لعبة الكلب المختفى. كانت أسرهم تناديهم فيدخلون البيوت ليناموا. لم تكن نافذة واحدة تظل مفتوحة. كان المحبون ينصرفون مبكرا ، يحيى كل منهم الآخر فى طريق العودة وفجأة يخيم على القرية صمت لا يقطعه حتى الشخير ، ولا يضئ القرية إلا بعض المصابيح العامة التى لم تحترق بعد. وكان الغد كالأمس.

كان هذا هو الحـال عندما جئنا لنسـتقرأنا وأبى. كـان هو حزينا وكنت أنا سعـيدة على أمل أن تتغـير حيـاتى فى المدينة. اشترينا بيـتا صغيـرا فى آخر الشارع الرئيسى وبيّـضناه. ولم تمر خمسة عـشر يوما على مجيـئنا حتى أعلنوا أن خط السكة الحديد سيـمر بالمدينة. أعلنوا ذلك بالطبول والأبواق ، لكن أحدا لم يفـرح ، لدرجة أن الأشخاص الذين جاءوا للإعـلان تعين عليهم شـرح ما معنى كلمـة "خط" وما معنى "سكة حديد" و ما هى المزايا التى تعود من ذلك. كنت أنا التى جلبت ذلك الحظ السعيد ، وكنت على وشك التعرف على فيليكس.

كانت الجدة وهى قادمة راكبة بغلتها تقترب ببطء شديد لدرجة أنه كان يبدو أنها لا تتقدم. كانت أخواتى يقفزن فرحا لاستقبالها ، لكنهن تعبن فذهبن إلى البيت. شربن ماءً وعدن إلى الطريق يقفزن من جديد. لم تنظر إليهن الجدة ولم تلق علينا التحية ولا على أمى. تابعت طريقها حتى وصلت إلى حيث الشجرة. نزلت من على البغلة ودخلت البيت دون أن تنفض من على نفسها الغبار. جلست على مقعدها فى مكانها وناولتها أمى كوبا كبيرا يسيل منه الماء . بدأت تشرب رويدا رويدا دون أن تغير من موضع نظرها. جلست وأخواتى جلسة مؤدبة دون أن نضع ساقا على ساق أو شئ من هذا القبيل. وعندما انتهت جدتى من الشرب أحضرت لها أمى فنجانا من القهوة.

- بصرى يزداد ضعفا يوما بعد يوم.

- هل تريدين أن أكشف على عينك؟

قلت:

- كان هنا رجل جريح يا جدتى

- لا

قالت جدتى وهى تنظر إلى أمى:

- ما هذا الرجل الجريح الذى تتحدث عنه يا ولد؟ لا تقل هذا الكلام حتى لا تروّع اخوتك.

- اذهب إلى حيث البغلة وأحضر الحلوى التى أرسلها لكم جدكم أناستاسيو وفكوا رباط مارجريتا المسكينة.

- هل تحرقك عيناك؟ لماذا لا تريدين الكشف عليها؟

- أهدانى الرجل الجريح عقدا.

- لا يفيد فى ذلك. إن عينى تحرقنى ولا أرى إلا ضبابا.

- أى عقد يا ولد؟

- خذى ، لم أبع قرطك. هذا القرط اشتراه لك فيليكس يوم أكملت الخامسة عشرة من عمرك.

دخلت الدجاجة الملونة وصعدت فوق رجل جدتى

- حسنا ، قولى لى ما الذى اتفقت عليه مع خالى أناستاسيو

لم تجب جدتى. بدأ وجهها يتجهم وعيناها تدوران وضغطت على أسنانها. بحثت أمى عن تطريزها وبدأت العمل. أخواتى بدأن يتسللن رويدا رويدا ، حتى جرين ليختفين تحت السرير. خرجت أنا إلى الفناء وفى الحال أحاطت بى الفراشات.

صحت وأنا فى الحديقة "أيتها الزهور". كانت السحب تمضى بطيئة فى السماء وكان ظل الشجر يمضى طويلا من أفق إلى أفق ولونه رمادى. كررت النداء "أيتها الزهور" "أنا صديق الرجل الذى رحل فى الفجر ، ذلك الذى به ثلاثة جروح فى صدره وهو فى الحرب. لقد عيننى قائدا للحديقة وأمرنى أن أنظمكم فى صفوف أنتم والفراشات والدبابير والنخل وشجيرات الخروع وفراشات الليل وكل الطيور وكل الشجر ، وأمرنى أن أمضى بكم فى هجوم ناحية

الغـرب" . صمـتت الحديقـة وتوقفـت الطيور فى السـماء وخـرجت الأشجـار تتجول ماشـية . داعبنا نسـيم الصباح و أحاط بى الجـميع مـتيـقظين دون كـلام . تأكدت من أن صـوتى يصل إلى أبعـد مكان وبدأت أمشى وأنا أقـول " رددوا النشيد . احملوا الأعـلام .حرّضوا الأطفال الآخرين وحدائقهم " . صـعدت فوق صخرة و رأيت حولى جيـشاً جراراً صامـتاً . رفعت ذراعاى إلى أعلى و قلت " لقـد غادر الرجل الجـريح بيـتى فى الفـجـر وسـال دمـه من وريديه الزرقـاوين الموجودين فى ذراعيـه القويتين كنهرين لونهـما أزرق. قال الرجل أننا سنصل إلى حيث تغـيب الشمس ، حيث الضـوء المنير الذى يأتى من السمـاء ويخرج من الأرض . هناك سنلتـقى بأطفال آخرين وجـيوش أخرى وسنبدأ مـعا عهدا جديدا تحـدث عنه الرجل الجريح الذى غادر بيتى عـند الفجر" . قلـت وأنا أنظر إلى جيـشى الذى يتمايـل عندما تحـركه الريح: "فى هذا العـهـد الجديد تسـتطيع أمى أن تضع عنهـا ملابسـها وأنتن أيتهـا الزهور تستطعن أن تحلقـن كالفراشـات والطيور وسيكون للطيـور ضوء مثل فـراشات الليل وسيكون لفـراشات الليل أوراق كأشـجار الخروع وسـنتحدث كلنا لغـة واحدة وسـيعزف عـباد الشمس على قيثارة جـدى كما يريد" . أنارت الشمس رؤوسنا وحرك الهـواء نباتا صـغيـرا أو جناحـا ، وتأكدت من أن جنودى كـثيـرون ومخـلصون. تأكـدت أنهم مدّ البـصر وأنهم يحـيطون بى متـأثرين. تابعت حديثى: "لقد قالت لى جـدتى ذات يوم: عندما تكبر ستكون شيطانا أو مـاسح أحذية أو ميـتا من الجوع. فى بيت السـيدة فلورندا لوحة مرسوم فـيها شياطين كثيـرون فى جهـنم. أيتـهـا الزهـور: أنا

لا يهمنى أن أكـون ماسح أحذية أو لصـا ، أيتها الفـراشات ، أو أن أكون ميتا من الجوع يا عـباد الشمس، لكننى لا أريد أن أكون شيطانا كشياطين السيدة فلورندا" . انسلّت الزهور من أوراقها واقتربت أشجار الخـروع أكثـر لكى تسمع خطابـى. نزلت من على الصخـرة وبدأت أتجول بين جنودى وهم ثابتون كثـيرون. مددت يدى لهذا وربتّ على رأس ذاك. كـانوا ينظرون إلىّ باحـتـرام . تقـول نظراتـهم إنهم على استعداد للسير فى اتجاه مغرب الشمس تنفيذا لأمر الرجل الجريح الذى نقلتـه إليهم أنا قـائد الحديقـة. قلت: "أنا وأنتم ينتظرنا نفس المصـير الذى ينتظر جدتى ، وهـو نفس مصير آبـائى وآبائكم وأجدادكم أنتن أيتـهـا الزهور والفـراشات. كنا سـنكبر ونحـن نموت ، ونحن نلعن الأرض والسمـاء. كنا سنحمل الحـزن كما حـمله آباء وأجداد الرجل الذى كان فى بيتى وكما حمله هـو نفسه. لقد عانى هو من جراح فى صدره وهو فى الحـرب. لقد شـرب من ماء الزير ويأمـرنا بأن نشكل صفـا لا نهاية له وأن نمضى فنحـرق جذور القصب وأن نردد النشـيد ونحمل الأعلام ونتجه نحو الغرب. عندما نفعل ذلك فإن قوة جديدة ستسرى فى شريانىّ الرجل الجـريح اللذين يجريان كنهرين فى ذراعيه القويتين" . سرت همهمة تأييد وسط الجيش وتمايلت الزهور ورقصت الطيور وبعثت فراشات الليل أضواءها وحركت أشجار الخروع أوراقها وحركت النخلة سعفها. كـقائد للحديقة واصلت جولتى.«فى يوم أن نعلم كـيف نشكل صـفا مـتراصـا يقودنـا إلى المكان المضبـوط الذى سينبعث منه النور الذى يبدأ معـه عصر جديد ، سواء أكان هذا النور يخرج من الأرض أو ينزل من السماء، ستطير آلاف الحمائم وسنحمل البشـرى إلى كل مكان». لم تكن هناك كلمـات أخرى ولا حـركات

أخرى. أنهيت خطابى الذى ألقيته خلف المطبخ وأنا أحتضن عباد الشمس. نفخ الجيش صدره شجاعة وهبت الرياح ثانية عليه وعاد كل فرد إلى مكانه وعدت أنا إلى البيت لأشرب ماءً من الزير.

سألت أمى جدتى وهى تغرز الإبرة فى نفس المكان:

- حسنا ، قولى يا أمى . على أى شئ اتفقت مع خالى أناستاسيو؟

- صدقينى ، لو ذكرت أمامى اسم أناستاسيو مرة أخرى سأحطم وجهك. اتركى التطريز وهلمى لحمل كل المتاع فهذا ما يجب أن تفعليه.

وخزت أمى أصابعها بالإبرة و رفعت عينيها الحزينتين الباكيتين.

- أن أمى تبكى يا جدتى

- بالتأكيد ستصلح الأمور كلها هكذا !. إنها تبكى الآن! لماذا لم تفكر فى ذلك عندما تزوجت بأول رجل قابلها وأنجبت ثلاثة أولاد؟

- ماذا بك يا أمى؟

قالت جدتى عند المطبخ:

- لقد ذبح أحد دجاجة هنا. تترقبون غيابى للإجهاز على ما لدينا بدلا من حراسته. هذا ما تجيدون عمله.

- ليس بى شئ. اذهب لتلعب عند شجر الخروع. هيا نقول للسيدة فلورندا أن تمهلنا مزيدا من الوقت يا أمى. ألن يساعدنا خالى أناستاسيو؟ لقد ساعدته أنت دائما. هل حصلت لى على عمل فى المدينة؟ هل كلمته فى ذلك؟

ردت جدتى وهى تمسك شمعة بيدها فى المطبخ

- اسكتى يا حمقاء. أم تريدين أن أقول لك من السبب فى كل ذلك يا قطعة الجحيم؟ وإلى الآن تريدين الزواج ثانية!

قالت لى أختى عند الفناء:

- أخى ،اخرج من البيت. إن البغلة تبكى وتقول أنها هى الأخرى لا تستطيع مزيدا من التحمل.

- قولى لى مرة أخرى فى عمرك أن هناك رجلا يعجبك أيتها الحمقاء! واعلمى أننى قد حذرتك! يا رب نتسمم كلنا .

- سأحضر لك زهورا يا أمى

- يالتعاستى ولدىّ ابنة حمقاء عديمة الفائدة! ما يجب أن أفعله هو أن آخذ حبلا وأشنق نفسى حتى تدبروا أموركم بأنفسكم . لماذا لم أفعل ذلك حتى الآن! ماذا أفعل أنا فى الحياة بعد أن مات فيليكس؟

- انظرى يا أمى ، هذه زهرة.

لكن أمى واصلت البكاء

- جدتى

صاحت جدتى وهى تلقى بالزهرة بضربة يد

- الكلام الفارغ هو ما سيساعدنا به أناستاسيو! وأنت أغرب عن وجهى بروثك وبهـذه القمامـة التى تحملها .أنـا أشغل ذهنى لأبحث لكم عن سقف ومأكل وأنتم فى الحماقة. هيا!

خرجت جريا إلى الفناء . لن أكلم جـدتى مرة أخرى ولن أكلم أمى أيضا. أمى وجدتى الآن ليستا أمى وجدتى.

جـاءت أخواتى إلى حـيث جلست واخـتبـأنا نحن الثـلاثة بين شجـيرات الخروع .علينا أن نسـير فى الطريق ونتوه حـتى يبكوا علينا ويعلم الجيران .أو أن نقع نحن الثلاثة فى بئر.

حانت ساعة الغذاء ولم يستدعـنا أحد ثم حانت ساعة العشاء . ذهبت و إخـوتى نختـبئ تحت السـرير وأنا أحـياناً لا أحب أن أكـون إنسانا. من الأفضل أن أكون نخلة فى الطريق أو سـقفا لمنزل أو حصانا يجرى .لو كـنت حصانا لما تركت أحـدا يمتطينى .أمـى نعم أما أى شخص آخـر فلا . والأفضل من كل ذلك أن أكون ليـوناردو مونكادا .كـانت جدتى سـتذهب كل ليلة إلـى بيت السيـدة فلوراندا لسمـاع مغامراتى وكنت سأظهر لها ذات يوم عند باب المطبخ وأقول لها :

- صباح الخير ياسيدتى .

- يا استيلا ، يا أولاد ، اجروا. انظروا الى مونكادا .

تاتى أمى و الاولاد .

- آه ، إنه مونكادا. متى جاء ؟

- فى الليلة السابقة . جاء فى سحابة .

- أحقًا ذلك يا مونكادا ؟ ياللعجب ! هل تريد أن أعد لك مرقة دجاج ؟

- استيلا ، اذهبى وضعى زهورا على رأسك بينما أحادثه .

- حسناً .

- لكن انزل يا مونكادوا من على فرسك . يا بنات احضروا كرسيا ًلمونكادا . الكرسى السليم .

- لا أستطيع النزول يا سيدتى . لابد أن أذهب لأنازل بعض الأشرار الذين يريدون أن يغتصبوا الأرض من بعض المواطنين الطيبين.

- آه ، إنه نفس ما يحدث لنا .

وتسأل أختى .

- وهل أنت إنسان طيب جداً يا مونكادا ؟ هل يدك أو قدمك اليسرى مشلولة ؟

سألت جدتى .

- هل تعرف يا مونكادا أن صاحبة هذا البيت تريد أن تطردنا ونحن لا نعرف إلى أين نذهب؟ سنموت من الجوع والبؤس .

- انظرى يا أمى إن أختى تدفعنى نحو أقدام حصان مونكادا .

قالت أمى :

- إن موسم البرد يبدأ الآن يا مونكادا وليس لدينا أغطية ولا شئ ترتديه .

- اليوم ليس لدينا شئ نضعـه فى الإناء ، والدجاجات لا تبيض لأننا لا نلقى لها طعاما .أليس معك شيء ؟

قالت الجدة لأختى .

- قفوا ساكتين مؤدبين لكيلا يعضكم الحصان .

- أحضرت لكم كثيراً من الأشياء التى لم تروها من قبل .

- أحقاً يا مونكادا ؟ يا له من شئ طيب !

- استيلا ، إن مونكادا هو الرجل الذى يناسبك .

- أرنى ، أرنى .

- أحضرت لكم عقودا وأحمـر شفاه ومناديل عليها صور الزهور وتماثيل من الخزف وراديو وزهريات تعلق فى الجـدران ومصابيح تضئ وميدليات عليـها صورة العذراء ومفرشاً لمائدة الصالة ومنضـدة صغيرة للصالة وزهـورا وإبرا وخيوطا وعـدسات وشرائـط وعطورا وجواهر ومراوح ومعـاطف وأطباقا ومرايات وعـقودا وأشياء أخرى كـثيرة من تلك التى كان جدكم يبيعها .

- وهل أحضرت لنا قليلاً من النشا لنعد طعاماً للأولاد؟

- وهل أحضرت لنا خبزاً ؟

- لا لم أحضر .

فجأة صاحت جدتى فى مونكادا :

- لا تزعجنى أكـثر . قلت لك إننى لا أريد أن أرى طـفلاً على مسافة ميل . اذهب إلى خلف المطبخ لتلعب بالقمامة والعصا .

من الذى استدعاك للمجىء ؟

- كنت أريد أن أقول لك إن السيدة فلورندا حضرت يا جدتى .

جـرت أمـى نحـو الحــجـرة وقـالت الـسـيـدة فـلورندا وهى عند باب الصالة :

- صباح الخير .

- صباح الخير يا سيدة فلورندا .

أحضرت جدتى كرسيا من صالة الطعام وقالت :

- اجلسى على هذا الكرسى فهو أفضل كرسى لدينا .

- أرى أنكم لم تجمعوا متاعكم . لا أدرى كيف أحادثك أنت .

قالت السيدة فلورندا ذلك وأخرجت سيجارا

- اذهبى يا استيلا وأحضرى نارا للسيدة فلورندا .

ظهرت أمـى ، وجهها أبيض من البودرة . دخلت أنـا وإخوتى وأخذنا ننظر إلى السيدة فلورندا ونحن مختبئون خلف الكراسى .

قالت أمى :

- صباح الخير يا سيدة فلورندا .

- ماذا حدث؟ هل انتهيت من التطريز الخاص بى؟

- أظن أننى سأنتهى منه هذا المساء.

قالت أمى ذلك وهى تبتسم. نظرت إليها جدتى وذهبت هى إلى المطبخ. قالت جدتى:

- كنت أتمنى لو أنك يا سيدة فلورندا...

- لحظة يا أديلا إلفيرا . لقد كنت طيبة جداً معكم . لا أمهلك ولا يوم آخر . ماذا حدث مع الشعلة ؟

جاءت أمى ومعها شعلة فى ملعقة وفنجان من القهوة . أشعلت السيدة فلورندا سيجارها ولم تشرب القهوة . بعد لحظة وقفت .

قالت جدتى :

- هذا المساء سأذهب إلى بيتك يا سيدة فلورندا لأننى أريد أن أحادثك فى أمر ما .

- يمكنك المجئ وقتما تحبين . إن مسلسل مونكادا فى قمة الإثارة ، لكنك تعرفين ما أريد . لا يجب أن أكرر ذلك على مسامعك يا أديلا ألفيرا وإلا فذلك أسوأ .

نقرت دجاجة دجاجة أخرى . قالت السيدة فلورندا :

- ما أجمل هذه الدجاجة !

- إنها دجاجة الولد بنت الدجاجة الملونة التى أهدانى إياها فيليكس عندما كنا مخطوبين ، تلك التى هناك . يا ولد سلم على السيدة فلورندا .

- صباح الخير والبركة يا سيدة فلورندا .

- ألبسى هذا الطفل بنطلوناً. ويجب ألا يتجول الأولاد فى الأدغال . يقولون إنه منذ أيام قتلوا اثنين من المتمردين فى هذه المنطقة. لم يكن ينقصنا إلا ذلك!

رافقت جدتى السيدة فلورندا ، وعند الحديقة أخذت السيدة فلورندا تستعرض الأشجار و تلمس الأزهار و تشمها وتلقى بالأسئلة على جدتى . فى النهاية انصرفت ، وعادت جدتى إلى البيت . عادت ووجهها مكفهر كما لو كانت قد انتهت من نفخ النار فى الموقد. عندما رأت الجدة أخواتى ينتظرنها عند الباب صاحت:

- هيا إلى العمل ، خذوا المكنسة و نظفوا كل الأفنية وعندما تفرغوا من ذلك ضعوا ماءً فى الزير ثم اغسلوا الأوانى وكسّروا الحطب .

اجتمعت أنا وإخوتى خلف المطبخ .

- هيا ندعو الله أن تموت الجدة لكيلا تصبح قاسية علينا .

- أن تموت فلا . إنها مسكينة .

- أن تقع و تنكسر رجلها إذن .

- لا ، إن ذلك سيؤلمها كثيراً وهى ضعيفة وستموت .

- أن تنتابها الحمى كل يوم .

- لا أيضاً .

- أن تجرح نفسها بالسكين .

- لا .

- أن يصيبها زكام سيئ جداً .

- سيئ جداً لا .

- أن يصيبها زكام خفيف .

- هو ذا ، هو ذا .

- هيا ندعو الله أن يمنحنا هذه الأمنية .

- هل نقدم نذرا ؟

- واحد. اثنين. ثلاثة .

- يا قوة الله العظمى التى فى السماء . يا مريم الطاهرة ، ندعو الله أن تصاب جدتنا بزكام خفيف حتى تتعلم ألا تكون قاسية معنا .

فاجأتنا الجدة وفى يدها عصا وصاحت بنا :

- ماذا تفعلون هنا وأنتم تتحادثون بدلا من أن تعملوا ؟. تعالوا هنا.

ذهبنا نحن الثلاثة. وعندما مررنا بالمطبخ رأينا أمنا تبكى كما لم تبك فى حياتها خلف الموقد. وكان الموقد يبكى. لم نر أنا وإخوتى أمى حزينة بهذا الشكل قط. ظللت وإخوتى مستكينين بلا تنفس نتابع الجدة التى كانت تتجول فى الصالة وهى لم تقل بعد ما العمل الذى علينا أن نؤديه. فى النهاية قالت:

- هل ترون هذه الأجولة التى أحضرها الآن ابن السيدة فلورندا؟ وهل ترون كل شجيرات الورد الموجودة فى الأفنية ؟ نعم أليس كذلك؟ أولا احملوها شجرة شجرة واقطعوا كل الزهرات وضعوها فى الأجولة الموجودة هنا. بعد ذلك اقطعوا كل شجيرة من الجذر وضعوها فى الأجولة الأخرى. لاأريد أن تبقى ولا شجرة واحدة ولا بذرة ولا ورقة. هيا.

أدارت لنا ظهرها وذهبت تبحث عن أمى . وجدتها عند ناصية الباب ، بيدها عصا هى الأخرى. توقفت هى عند الضلفة الأخرى وصاحت بها:

- إلى العمل .

قلت وإخوتى فى سرنا: "هذا غير معقول" وظللنا بلا حراك فى وسط الفناء. بدأ المطر. قالت زهور الداليا: "هذه جريمة". أخذت وأخوتى نجمع الورود وكانت زهور الداليا تبكى وكان الزعفران يبكى وكانت زهور "لا تنسنى" تبكى. كانت أخواتى يرتدين فساتين حمراء وكان المطر رماديا. أبصرتنا زهور البيجونيا قادمين فقالت زهور الياسمين: "اتركوا لى على الأقل البراعم". لكننا قطعنا البيجونيا والجرس والياسمين. قالت الدبابير: "أنتم وأنت ، تعالوا هنا. يا أيتها الحمامات المطوقة، أيتها الطيور المتسلقة ، ماذا تفعلون؟ يا زهور السوسن ويا فراشات ، اكرهوهم". وقالت زهور القرنفل: "لكن ألم نتفق على تشكيل صف طويل جدا ونسير نحو الغرب ونحن نردد الأناشيد ونحرق جذور القصب ونحرض أطفالا آخرين ونحمل الأعلام لكى نبدأ عهدا جديدا؟" وقالت زهرة السحلب: "ألست قائد الحديقة؟". وقالت الدبابير: "اكرهوهم". واصلت

وأخواتى العمل تحت المطر ونحن نبكى ونجرّ الأجولة المليئة بالزهور. لم نترك ولا واحدة حتى لو كانت ياسمينا أو وردة. جرت الفراشات ولم تصدق ما ترى وقلن: "أنتم؟! وأنت؟!". كانوا يسيرون خلفنا ويقولون: "هذه جريمة. لكن لا تبكوا. خذونا نحن أيضا وانزعوا أجنحتنا". تواصل المطر علينا وعلى الحديقة فمحا صورة جدتى وأمى وكل منهما تمسك عصا فى يدها وهما عند الباب. واصلت الدبابير النداء: "أيها السمان، أيتها العصافير، انظروا ماذا يفعلون! كانوا هم الثلاثة، وقد رأيناهم كلنا. لاتكلموهم وقولوا للفراشات ألا تكلمهم. سننتظر أن تأتى فراشات الليل هذه الليلة وسنحذرهم من اللعب معهم أو الكلام معهم وعلينا أن نصعد إلى السماء لكى نمنع السحابة الحمراء من المرور. إنهم هم الذين قطعوا الزهور". وصاحت أشجار الخروع: "ماذا سيقول الرجل الجريح الذى شرب ماءً من الزير وهو الآن يحارب ويبذل الدم الذى يجرى فى شريانيه كنهرين فى ذراعيه القويتين؟" "لا تقترب منا ثانية لترى الشمس من خلال أوراقنا و لن نظلل عليكم ثانية". تعانقت أخواتى وهن يرتدين الفساتين الحمراء تحت المطر الرمادى وبكين وهن يجمعن زهور المارجريت. تعانقت أخواتى ونظرن إلىّ فلم يبق فى الحديقة إلا عباد الشمس الأصفر الذى أملكه. ورغم أننى حاولت التهرب إلا أنه كان أمامى تحيطه الفراشات التى تريد أن تعرف هل سأقتلعه هو أيضاً. وصلت وقلت له "يا صديقى عباد الشمس" قال لى: "لا تبك. اقتلعنى" ارتميت بين ذراعيه الرقيقتين. من خلال المطر رأيت خيال جدتى قادمة لترى ما يحدث. قال لى عباد الشمس

"لا تبك. اقتلعنى". شددته بلين "هل آلمتك؟". عندما أمسكته بيدى وهو ليّن،أصفر، عباد شمس نائم على صدرى خرجت سائرا وعيناى مغمضتان تحيطنى الفراشات . وأخفيته تحت السرير . قبلته وقبلنى . سألت جدتى "أين الولد؟" عندئذ رجعت وقلت إننى كنت أشرب وإننا قد انتهينا . قالت : " اذهبوا إلى داخل المنزل ولا تبللوا أنفسكم أكثر . سأحمل أنا الأجولة إلى الطريق وستمر السيدة فلورندا لتأخذها وتبيعها فى البلد ". كان الوقت ليلاً تقريباً . رأينا كل الفراشات والدبابير قد حطت على البيت وهى تبكى . أسرعنا لننام و غطينا رؤوسنا تماماً لأننا لم نكن نريد أن نرى فراشات الليل عندما تعلم بما فعلناه أنا وأخواتى المجرمات .

كان الوقت فجراً تقريباً عندما شعرت بأخواتى بجوارى . قلن لى:

- أخى ، هل نسير فى الطريق و نضل ؟

- الدنيا اليوم ظلام . غداً .

- سنذهب ونترك ملابس وعلامات لكى يعرفوا أننا رحلنا لأننا لا نحتمل المزيد من المعاناة .

- و إذا بكت أمنا ؟

- سنعمل غداً طوال اليوم لنكسب قوتنا حتى نرحل .

- لن نكلم جدتنا .

- ولا أمنا .

- كنس البيت مقابل الفاصوليا .

- وكنس الأفنية مقابل الأرز .

- وملء ثلاث أوعية ماء من النهر يعادل بيضة مقلية .

- وملء أربعة أوعية مقابل قهوة باللبن .

- غسل الأوانى الصينى دون كسر أطباق والبحث عن البيض فى عشش الدجاج ودفع الدجاجات إلى خارج البيت مقابل غسيل ومكواة ملابسنا .

- ما الذى يمكن أن نقوم به أيضا ؟

- قتل النمل .

- والتنفيض .

- وتكسير الحطب .

- ومراقبة مجئ السيدة فلورندا .

- وإذا عملنا وعملنا وليس هناك ما يؤكل؟

- ذلك من الأفضل. فهكذا ندفع لهم مقابل إحضارنا إلى الدنيا وتوفير مسكن لنا منذ ولدنا .

- هيا ندعو الله أن تصاب الجدة بزكام خفيف .

- لا . أن تموت وأن تفقد بصرها .

- وأن تصاب أمنا بزكام شديد .

- هيا نبكى نحن الثلاثة فى صمت .

صاحت الجدة :

- ما هذه الثرثرة التى أسمعها ؟

ولم يُسمع مزيد من الثرثرة .

أمضيت وإخـوتى اليوم مختفين مـختبئين تحت السـرير. سمعنا صوت الفئران وهى تأكل بنهم غير معـهود. كانت أمى تجمع حاجياتنا فى صمت وتضـعهـا فى لفافات. ظلت تقـوم بذلك حتى الظهـيرة. حـينئـذ جلست فى الصـالة تطرز وتبكى دون أن تسـأل عنا. فى كل لحظة كانت إحدى أخـواتى تخرج بحذر شديد لتحـضر قليلا من الماء لعباد الشـمس. ذات مرة أحضرت زهرات مارجريت كـانت موجودة على الأرض وزرعناها خلف الباب. سألتنا زهرات المارجريت:

- أنتم طيبون أم أشرار؟

لم نتكلم بقية اليوم. لم يتكلم أحـد ، وعندما جاء وقت العصر - كان الوقت ليلا تحت السرير- جلست جدتنا فى مكانها عند الباب. أعدت ماءً للاستحمام وقالت لأمى:

- استـيلا ، أخرجى الأولاد من تحت السـرير لأننا سنذهب إلى بيت السيدة فلورندا للاستماع إلى حلقات مسلسل ليوناردو مونكادا .

الجيـران كلهم يذهبـون كل ليلة إلى بيت السيـدة فلورندا. هناك يتحادثون وعندمـا يحين وقت التمثيلية فـإن السيدة فلورندا تعلن ذلك وتوزع القـهـوة وتديـر المذياع. بعـد ذلك يلعب الـرجـال الدومـينو ويتحـدثون عن أعمالهم وتتحـادث النساء كذلك وتحـيك ، أما نحن الأطفال فنريد أن ننصرف .

عندما وصلنا صمت الجميع وألقينا التحية. قالت جدتى :

- مساء الخير لكم جميعا .

- مساء الخير ، مساء الخير .

- أيها الأطفال اتركوا مقاعدكم لأديلا إلفيرا واستيلا فهما كبار

- كنت أنتظرك يا أديلا إلفيـرا لأننى كنت أريد أن أعرف ما هو علاج الغدة النكفية، لأن ابنى صغير ووجهه متورم منذ أمس .

وسألت السيدة فلورندا :

- هل أحضرت لى التطريز يا استيلا ؟

- بالنسبة للغـدة النكفية أعطه شراب البنجـر وطريقة إعداده هى أخذ عـصيـر البنجر وتغليـه مع العسل أو السكر. إنه مـشروب لذيذ جدا. ويمكن أيضا أن تضـعى فيه عقدا مـن الخروع ولا تتركى الطفل يبتل لأى سبب أو يبذل مجهودا حتى لاتنزل له اللوز وهذا أمر سيئ.

- نعم يا سيدة فلورندا. كـيف لا أحضر التطـريز ! هاهـو ذا. لم يخرج كما كنت أتمنى.

- انظروا يا له من مفرش جميل! ياللملاءات! يالفرش المطبخ ! يا للروعة !

- تعالى يا ميكائيلا لترى حاجيات زفافك.

- كنت أعرف أن تطريزك رائع لكن الرؤية هى أفضل شئ .

- وأنا ابنى روميلسندو مصاب بالحصبة ولقد أتيت لكى تصفى لى دواءً .

- أعطه شيئا مطبوخا ساخنا وإذا كان الشىء المطبوخ ورق برتقال فهذا أفضل. وعليه ألا يستحم ولا يتعرض للهواء حتى يبرأ .

- أولادك متجهمون جدا. ماذا بهم ؟

قالت السيدة فلورندا :

- لقد طرزت لى كل حاجيات زفاف ابنتى .

- هم هكذا دائما ، فلاحون .

أسرّت جدتى حديثا إلى السيدة فلورندا وخرجت إلى مسافة ما بعيدا عن البيت. بعد لحظة استأذنت أمى وتبعتهما. ظلت بعيدا عنهما وكنت أنا قريبا منهما وقريبا أيضا من النساء أسمع حديثهن.

- إنهم مساكين ، فالبيت الذى يعيشون فيه أصبح ملكا للسيدة فلورندا وعليهم أن يغادروه. ستقيم السيدة فلورندا مزرعة جديدة لتربية الأبقار .

- وأديلا إلفيرا لا تكاد تبصر. هل لاحظتم ما يحدث لعينيها؟

قالت جدتى:

- سيدتى فلورندا ، أتوسل إليك بأغلى شئ عندك وبقدرة الله العظمى وبمريم العذراء الرحيمة أن تمهلينى أسبوعا آخر .

- ألا تعرفين معنى أن تصبح المرأة فى الشارع ومعها ثلاثة أولاد دون رجل يحميهم؟ وألا تعرفين أن البنات قد صرن الآن آنسات جميلات؟ .الولد فعلا دميم.

- آه. لا .

قالت جدتى:

- بعد أسبوع سنرحل على أية حال يا سيدتى فلورندا. تذكرى خدمتى الطويلة لك. تذكرى كم كانت أمك تحبنى وكم لعبنا سويا عندما كنا صغارا.

- يا بنت ما الذى حدث بين استيلا وزوجها؟ أنا لم أتعرف عليه. أو أنها لم تتزوج أبدا؟

- تذكرى كيف كانت أمك تعاملنى يا سيدتى فلورندا وكيف أننى كنت طيبة. أريد أسبوعا مهلة حتى أجد بلدا ووظيفة لاستيلا. سنذهب إلى المدينة .

- لا أعرف جيدا. أعتقد أنه تركها أو أنه قتل. كان رجلا مهيبا. كان يمر من هنا ومعه قطيع وفجأة عاشا سويا دون زفاف أو خطوبة.

- لهذا لم تحبه أديلا إلفيرا وجعلت حياتهما مستحيلة. دائما كنت أسمع أن أديلا إلفيرا كانت هى السبب فى مشاجراتهما. بعد ذلك تزوجت من آخر، أليس كذلك؟

- وأنا أيضا سمعت أن الطبيب قال لأديلا إلفيرا إنها لا يمكن أن تنجب إلا مرة واحدة وأنها كانت تريد ولدا لكى تسعد فيليكس عليه رحمة الله ولهذا كانت تحنق على استيلا باستمرار.

- هذه إشاعات يرددها الناس. أديلا إلفيرا هى أطيب إنسانة فى الدنيا. لقد أمضت عمرها تقدم الخير للناس فكيف تتمنى الشر لابنتها؟

- فى المدينة يسكن أناستاسيو. هل تتذكرين أخى؟ إنه سيبحث لى عن وظيفة لاستيلا .

- نعم، بعد ذلك خطبت استيلا لرجل طيب جدا كان على وشك الزواج منها لكنه كان مشغولا بالسياسة والإضرابات واعترضت أديلا إلفيرا. حسنا فعلت لأن المرأة التى تظل بلا زوج -أيا كان السبب- ومعها ثلاثة أولاد أفضل ما تفعله هو أن تتحمل هذه التبعة بقية عمرها دون تفكير فى زواج آخر.

- يقولون أيضا إنه كان هناك رجل عجوز يريدون أن يزوجوا له استيلا لأنه كان عنده محل .

- هذه أقاويل يرددها الناس .

بدأت جدتى فى البكاء وقالت السيدة فلورندا :

- أرجوك لا تبك ، فأنت تعرفين أن البكاء لا يجعلنى أتغير. لو أنك بذلت هذه المساعى منذ أن حذرتك لكان لك شأن آخر .

- إذا كان هناك إنسان لا يستحق مـا يحدث له فهو أديلا إلفيرا. لقد قدمت الكثير طوال حياتها ولم تحصل على شئ .

- يا لفصاحتها وهى تقرأ الإنجيل !

- ويا لمهارتها فى علاج التخمة والجفاف !

قالت السيدة فلورندا :

- ودعك من البكاء الآن فالأمـر لا يستـحق ، فلم يمت أحد. هيا ندخل .

- لكن. . . . . . . . .

- بدأت تعالج لأنهـا حسب ما يـقولون كانت تعـانى من صداع شديد وظهر لها قديس .

- أعوذ بالله. هذا الأمر قد يحدث لنا نحن أيضا فى أى يوم .

- حسنـا. أسبوع آخـر فعـلا. اسمـعينى، أقـسم لك بالصليب وبزفاف ابنتى أنكم إذا لم تغـادروا البيت بعد أسبوع فـإننى سأطردكم كالكلاب فقد زاد الأمر عن حده . وسأقوم بذلك بنفسى.

- شكرا يا سيدتى فلورندا شكرا. إن الله سـيجازيك فى الآخرة وسترين.

عندئذ قالت أمى:

- انظرى يا سيدتى فلورندا ها قد أحضرت لك الدجاجة التى أعجبتك أمس. إنها هدية .

- حسنا. شكرا جزيلا. ضعيها فى تلك الحظيرة.

- ألم تقل لك ما إذا كانت ستدفع لى ثمن التطريز يا أمى؟

- هس !

حان وقت تمثيلية ليوناردو مونكادا. توافد الجيران على صالة الجلوس. قالت السيدة فلورندا للذين لم يدخلوا بعد :

- أيها السادة ، ستبدأ الآن تمثيلية مونكادا ، والقهوة قد أعدت.

جلست أمى بجوار النافذة وجلست وأخواتى بجانبها ، نختفى تحت ذراعيها. جدتى ابتعدت وأخذت تنظر إلى الخارج دون أن تذوق القهوة التى كانت فى يدها .

التزم الناس الصمت ومدت السيدة فلورندا -بجونلتها ذات الثنيات الكثيرة- يدها إلى المذياع وأدارت المؤشر .

عم صوت المذياع جميع أرجاء البيت. قال الراديو :

- هنا صوت الثورة .

قالت السيدة فلورندا:

- يا للعجب ! تداخلت مرة أخرى هذه المحطة .

وجهت إلى المذياع ضربة قوية جعلت بدرو وليوناردو مونكادا يتكلمان بعصبية شديدة.

عند هذا الحد توقفنا ولم يكن قد مضى على وصولنا خمسة عشر يوما عندما جـاء خبر أن خط السكة الحديد سيـمر بالقرية . كنت أنا التى جلبت الحظ وقد اختارونى كمـلكة الاحتفالات لأننى أيضا كنت حينئذ جميلة ، أكثر جمالا من أمكم الآن .تغيرت الحياة فى القرية. انقطعَ مطر الساعة الرابعة .بدءوا يبنون فندقـاً وفتحوا ثلاث حانات . كان الناس ينامـون فى وقت متأخر، نقـشوا جدران بيوتهم والكنـيسة ومقر العمدة وكراسى الحديقة . كتب العمدة رسائل إلى السياسيين فى قرى أخـرى لكى يعلنوا أنه لم يمت بـعد وأن يهـتفوا بـحيـاة الحزب المحافظ .أزالوا شجرة العليق الأمريـكى وأصلحوا شجرة الورد وتمثال الزعيم الوطـنى ، وأصلحوا حافـة البئـر .خططوا شارعيـن جديدين وافتتح الفندق . عندما انتهى تركيب السكة الحديد انقسمت القرية إلى جزأين :الجزء الشمالى والجزء الجنوبى ، وقامت أول معركة و أسفرت عن قتـيلين لكل فريق .حتى أعلنوا عن مـرور أول قطار وهو يحمل رئيس هيـئة السكك الحديدية .استـمـرت الاستعـدادات أسبـوعين . بعدها كان قد تم اختيار اللجنة التى ستتحدث مع رئيس الهيئة لإقناعه بإنشاء محطة فى القرية أو على الأقل إنشاء ممر للمشاة . وكان قد تم إعداد البدلة التى سأرتديها لكى أسلم رئيس الهيئة و أنا مبتسمة الورقة التى بهـا الطلب و كذلك كـان قد تم إعداد البـنات اللاتى سيحـملن سلال الزهور والدخان و المانجو و صور القرية . كانت الفرقة الموسيقية التى أنشـئت خصـيصـاً لهـذا الغرض قـد أجرت بروفـات الفقـرات الضرورية. فى اللحظة الأخيـرة ضاعت عصا المايستـرو، وفجأة رأينا الناس تعـدو و تقـف على جـانبى السكة الحـديـد و مـعـهم الزهور

والأعلام لأن دخـان القطار كان قـد لاح من بعيد . عـدونا وبالكاد رأينا كـرة اللهب تلك الـتى ينبـعث منهـا الدخـان من كل مكان . أطلقت ثلاث صفارات و مرت محدثة ذلك الضجيج و التزاحم .

و ما أن مر القطار واختفى من الأفق حتى وقف الناس - و كانوا جلوساً - غـير مـبالين بجمـال السماء الـتى تغطيها البـالونات الملونة والحمام ونسـوا اهتمامهم بالقطار وتجمـعوا حانقين حول مقـر العمدة يتسـاءلون ما فائدة القطـارات سوى الضوضـاء والدخان ؟ . كنت أنا أيضاً بين المحـتجـين ، لا للاحتجـاج و لكن لكى يرانى الناس بذلك الفستان الجميل الـذى كنت أرتديه . تتابع مرور القطارات ليلاً ونهاراً وانتـهى بنا الأمر إلى التـعود. كـان من الصعب أن تقنع النسـاء بألا ينشروا غسيلهن بالقرب من خط السكة الحديد . قال العمدة : إنه من المستقبح أن تمر بقرية و ترى الغـسيل منشوراً . لم نهتم بكلامه : من لا يريد الرؤية عليه أن يغـمض عينيه . لم يقنعنا العـمدة ، حتى مع الغرامـات ، لدرجة أنه ذات يـوم أمر بمرور قطارى فـحم بدخانهـما المعروف، فجرينا كل منا تجمع الثـياب البيضاء ، ورغم ذلك هناك من استمرت فى نشـر الغسيل . حينئذ كانت الأمـور تسير على ما يرام . كانت إحـدانا تعمل وفـجأة يمر القـطار ويلقى إليها النـاس بكلمات الغزل ثم ينصرفون. أما عندمـا أنشأوا المحطة فكان أناس كثيرون من قرى أخـرى ينزلون و يتـجولون فى قـريتنا ويبقـون أياماً وبعـد ذلك يواصلون سفـرهم . عند الفجر لم تكن تظل على الحـبال ولا نصف الملابس التى نشرت بالليل وهذا ما أقنع كل الناس بعدم نشر الغسيل.

أما أنا فقد سرقوا منى فستاناً أخـضر واسعاً كان يعجبنى جداً. وهكذا فمنذ البداية كانت القطارات مـصدر إزعاج أولاً وأخيراً . لكنى كنت مسرورة جدا وأقنعت والدى بأن ننتـقل بالقرب من خط السكة الحديد وأن نبنى بيتاً هناك وأن نطلى الشرفة بالألوان. نفذنا ذلك ، وذات يوم أعلنوا عن مجىء فـرقة سيرك كبـيرة تشغل عشـر عربات فى القطار. ظهرت إعلانات على أعمدة الكهـرباء و على جدران المحلات الكبيرة كانت إعلانات جميلة رسمت باليد ، فيها صور مهرجين وغير ذلك. جاءت عربة بمكبر صوت وأعلنت عن العـجائب التى أتت بها الفرقة. ظهرت الفرقـة بجلبة عظيمة: بهلوانات ونيـران صناعية ورجل بأرجل خشبية يتجول حولهـا ويوزع بالونات وأوراقا عليها اسم الفرقة وكان يخرج فقاقيع من إبريق كان يحمله . كـانت الفقاقيع كثيرة لدرجة أن القرية امتلأت ببالونات لم تنفـجر، حتى لو شكها شخص بدبوس . كان الأولاد يسيرون وراء العربة . شعرت أنا برغبة فى السير وراء كل هذا الجمع ، لكن على الناحـية الأخرى من الشارع كـان هناك رجال طوال القامـة يرمقوننى . واصلت النظر من هنا وأنـا متجهـمة .كنت سعيدة لدرجـة أننى عملت فستاناً جديداً أزرق وبـه شرائط صفراء من كل ناحية هكذا . كان فـستاناً جميلاً جداً . و كـنت أنا جميلة حين أرتديه وبتسـريحة الشـعر الخاصـة التى تمتلئ رأسى فيهـا بالزهور هنا وهناك بعد أن أغـسل شعرى بالزيت . كم كـان شـعـرى ناعماً !. وكنت ألوّن شفتىّ بلون وردى . كل ذلك انتظارا للسيرك رغم أننا لم نكن نعرف موعد قدومـه . زيّنا المحطة بالزهور والأعلام وكانت فرقة الموسـيقى المحليـة تعـزف للفنانين . لكن مـرت الأيام تلو الأيام ولم

يظهر السيرك حتى أن العمدة جدد الموعد فى مساء أحد الأيام ، وجاء الموعد لكن جاء مـطر دخيل ثقيل الدم فمنع السـير فى الشوارع ، أو هكذا ظن المطر، أما أنا فكنت أروح و أغدو لكى أعد لاستقبال الفرقة دون أن يهمنى شئ . كان أسوأ من كل ذلك البـرودة والضباب حول المحطة والذى كنا نظن أنه ينقشع بمجرد شروق الـشمس. أما الضباب فلم يكن يفكر بنفس الـطريقة ، بل تراكم بعـضه فـوق بعض ، وفى الظهر تعين علينا إشعال المصـابيح الكهربائية لكى نعرف أين المحطة . بذلنا مجهـوداً كبيراً لنصل إلى المحطة لأن الضبـاب كان قد وصل إلى الشوارع القريبة منها . أمروا بذبح المواشى لإطعـام الجمهور المتجمع هناك حتى لا تكون هناك حاجة لمـغادرة المحطة قبل قدوم القطار الذى يحـمل فرقـة السـيرك . والقطار لا يصل وأنـا أيأس . كنا نتحـادث ونحن نتعجب من العاطفة التى كنا نحـسها . على أية حال فأنا كنت قد مللت ، و راق لى أن أسير إلى الأمام على خط السكة الحديد وأن أتوه وسط الضباب . كنت أنحنى فى المستنقعات و كنت أضع الزهور فى الماء حتى لا تذبل من طول الانتظار فيـرانى الفنانون دميمة . كنت أفعل ذلك عندما تخيلت أننى أسمع شيئاً لم أسمعه من قبل . نظرت ناحية خط السكة الحديد الذى يلفه الضباب فلم أر شيئا. قلت إن هذه تخيلات ، لكن لا . ظللت أشـعر بـأننـى أسـمع شيئا جـمـيلاً ، ثم شعرت أننى أرى هذا الشئ دون أن أراه على خط السكة الحديد . تقدمـت أكثر ورأيت - نـصف رؤية- شبـحاً يتقـدم وهو يسيـر على الفلنكات. لم أسـتطع تحـديد الشكل لأن الضـبـاب تكاثف فى تلك

اللحظة . كنت قد نسيت الزهور و ظللت منتبهة جداً بالقرب من خط السكة الحديد. أحسست بأن قطاراً يمضى رغم أنه لم يحدث ضجيجا. فى الحقيقة لم أشعر بأنه يسير على قضبان و إنما يتزحلق بنعومة . اقتربت أكثر واضطررت للابتعاد فقد كان شئ حقيقى يمضى: جسم صلب. لم أدر ما إذا كان قطارا ، لأن الضباب حينذاك لم يدعنى أرى حتى رموشى ، لكننى أتعقب الألوان كما يتعقب القط الفئران ، وعلمت أن شيئا أخضر اللون يأتى وهو يتزحلق. بعد ذلك توقف الشئ عند المحطة. انتبه الجميع إلى وجوده وأحاطوا به، يلفهم الضباب. بعض الناس لمسوا ما وصلت أيديهم إليه وضربوه بأيديهم وصاحوا لكى يعرفوا ما إذا كان هناك أحد بالداخل.

لكن أحدا لم يرد ، وازداد الضباب لدرجة جعلت السير مستحيلا . . أحضروا مشاعل لكى نرى ، لكن ذلك لم يجد شيئا لأن المشاعل نفسها لم يعرف أحد أين هى. حينئذ جمعوا المصابيح العادية والكهربائية ، لكن حتى هذا لم يضئ المكان. تعين علينا أن نغادر المكان ، كل حسب استطاعته. بعد ذلك أرخى الليل سدوله ولم يظهر القطار الذى يحمل السيرك. قلنا لعامل التلغراف أن يخطرنا عندما تأتى الفرقة لكننا لم نتلق إخطارات ولم يصل أى قطار: لا قطار السيرك ولا أى قطار آخر. تحولت المحطة إلى بيت عديم الفائدة، بناية أخرى كالكنيسة يلفها ضباب دائم. طلب العمال وموظفو التلغراف من البلدية عملا فى مكان آخر. رحل الذين لم

يكونوا من أبناء القرية وباع التجار مجالهم وعين العمدة رجلين لمراقبة الضباب اتقاء لخطره. بعد ذلك بعدة أيام كان هناك أناس لم يخرجوا بعد من المحطة ، وحتى اليوم هناك شخص ما يخرج من المحطة فى كل لحظة. الحياة هكذا دائما على وجه التقريب : عندما يسير أمرُ ما سيرا حسنا فجأة يحدث شئ غير متوقع وتتحول الأمور عما كانت عليه.

وضعت أمى الصرة الأخيرة على العربة وأخرجت جدتى من البيت . كانت جدتى أصغر حجما من أى وقت مضى. كانت ضفائرها مرسلة وكانت تحمل تحت إبطها دجاجتها الملونة. جلست أخواتى - وقد لبسن أحدث أحذيتهن- على العربة محملات بالسلال. أخرجن عباد الشمس من تحت السرير - دون علم أمى- ووضعوه فى كيس ملفوفا فى قماش مبلل. تجولت جدتى فى الفناء ، حيث كان النمل يأكل الأوراق الأخيرة ، تتحسس كل شئ بيديها ، تتوقف تحت شجرة وتظل صامتة وقتا طويلا. بعد ذلك تقترب من العربة وتتأكد أننا لم نضع فيها البغلة بعد. تقول بصوتها المرهق جدا:

- نادوا على الولد. بعد ذلك عند الليل سنكون فى المدينة. أحضروا مارجريتا.

عندما حضرت البغلة العجوز الحزينة تحسستها جدتى وقالت لها:

- آه يا مارجريتا ، أيتها العجوز ، سننتقل مرة أخرى إلى المدينة. أعدى نفسك لتحمل الجوع. الآن لدينا أشياء أقل تحملينها ، فلا تنزعجى إذن. لقد وضعت شحما للعجلات.

نظرت البغلة إلى جدتى بعينين باكيتين مدة طويلة. نظرت إلى كمية الأشياء التى ستحملها وأدارت ظهرها ثم ببطء شديد دخلت البيت وسقطت فى وسط الصالة. طلبت جدتى عصا وذهبت لتعرف ماذا حدث لها. قالت البغلة لجدتى عندما وقفت أمامها :

- أديلا إلفيرا إننى أحبك كما لو كنت أمى أو أختى الكبرى لأننى عشت معك منذ أن كنت آنسة صغيرة وكنتُ ملكا لإنسانة أخرى. لقد مررت بنفس تجربتك وأديت أعمالا أكثر لأننى بغلة. إننى أكلمك بصراحة كابنة. لقد ساعدت أباك عندما أردت أنت الذهاب إلى المدينة ثم خدمت زوجك وتحملت سكره وقيئه دون أن أصرعه أبدا ، ثم أحضرتكم إلى هنا ، ثم ذهبت للعمل مع فيليكس يوميا عندما أصبح بائعا ثم واصلت العمل بعد ذلك. ذات مرة قمت بتأجيرى وكانت تلك أسوأ أيام حياتى. جريت وذهبت إلى المدينة واستدعيت الطبيب جريا. إننى لا أشكو ، فأنا بغلة وهذا هو قدرى ، ولكن هل تظنين أننى - وقد أصبحتُ عجوزا مرهقة- أصلح لك ، تعلقى فىّ هذه العربة وتجعلينى أذهب إلى المدينة حيث لا حشائش هناك وحيث يمكن أن تصدمنى عربة ، هذا بالإضافة إلى الأمتعة التى سيحمّلونها لى والحجارة التى سألقيها والأمور الأخرى التى سأقوم بها؟ إن هذا تجاوز من ناحيتك. لا تؤاخذينى. أنا أعلم أنك تمرين بضائقة ، لكن دعينى أموت هنا فى هدوء فى هذا الركن وتأكدى أنك إذا كنت قد عانيت فأنا لم أذق طعم السعادة يوما ، إذ أننى حتى لم أنجب أولادا لأننى لا أستطيع الإنجاب.

عانقتها جدتى وظلت الاثنتان تبكيان طويلا . بعد ذلك عملت جدتى صليبا وغرسته أمامها لحين موت البغلة. قالت لنا:

- البغلة لن تصل إلى المدينة. سنترك السرير هنا والمائدة والكراسى، وسنرى ماذا نفعل لكى يأتى أناستاسيو غدا لإحضارهم. بعد ذلك استدعتنا وقالت:

- أنا قد وصلت إلى هنا . لقـد انتهيت. لا أدرى متى سـأموت لأن الإنسان لا يعـرف ذلك أبدا لكن موتى سيكون قريبـا. الآن جاء دور استيلا ودوركم. عليك أن تكون رجلا وعليكن أن تكنّ نساء قبل الأوان. المدينة ليست كالريف. فى المدينة كل الناس شريرة. يراقبونك لكى يعـرفوا أى ضـرر يمكن أن يلحـقونـه بالإنسان ومـاذا يمكن أن يســرقــوه منه. فى المدينة أى إنســان يمـكن أن يضـيع . هناك زنوج يخطفون الأطفال لكى يمـتصوا دماءهم وهناك كلاب مسـعورة وقانا الله شـرّها . لاتبتـعدوا عنى لحظة . إذا سـألكم أحد عن شـئ فروا مسرعين وتعالوا إلىّ . عليكم أن تخافوا ، فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث لنا . أستيـلا ستعمل وسيساعدنا أناسـتاسيو بعض الشئ ، أما أنتم فعليكم أنت تكبروا بسـرعة وأن تكونوا كباراً . وعليه فكونوا طيبـين ولا تتشـاجروا ولا ترهقـوننى. عليكم أن تكونوا طيـبين وأن تتذكروا جدكم.

قالت كل ذلك و دجاجتها تحت إبطها.

كان علينا - إذا أردنا أن نذهب إلى الصيدلية - أن نمر بمقهى يعجّ بالناس الذين يشربون و يستمعـون إلى الموسيقى . لم يكن من اللياقة أن تمر الآنسات من هناك . لكن لو أن الإنسانة تعيّن عـليها أن تشترى دواءً فلم تكن لتسيـر مسافة ثلاث أو أربع أمـيال ،أليس كذلك؟ ذات مرة لا أدرى كيف سيطرت عليّ فكرة النظر بطرف عينى إلى المقهى - فلم أكن أنظر إليه لأى سبب- ورأيت جـدكم الذى كان حينذاك شابا يافعا متلون الوجه صحةً ، وحسن الهيئة دائما ينتعل حذاءً أسود يلفت نظر أية امرأة. ورآنى هو أيضا. نظرنا إلى بعضنا البعض بسرعة البرق وعندئذ لم أعد فى هدوء. كانت صـورته أمامى لا تدعنى أسير. كم كانت رغـبتى فى أن أدير رأسى إلى الوراء وكم كان حـيائى يمنعنى ! لم أعد أتحمل. عندما وصلت إلى المقهى كنت أختنق ، تعترينى رغبة قـاهرة فى أن أنظر. كـان لدىّ إحـسـاس أنه يتـابعنى ، وكـان ذلك حقـيقة. عندما خـرجت إلى الشارع كان هو على الرصـيف المقابل. يُخيّل إلىّ أننى أراه بستـرته الحريرية. كنت على وشك أن يسقط منى الدواء ، لكننى تحاملت وخرجت أسير مـتماسكةً ومررت بجانبه دون أن أنظر إليـه مضـفيـة على نفـسى قدرا من الأهمـية. قـال لى: "يا آنسة. . ." كم كـان صوت فيليكس جمـيلا ويالجمال الغـمازتين فى جبـهتـه! . "تكلم. هل يحـدث أمر مـا للسيـد؟" "هل يمكننى أن أرافقك لمسافة قصيرة؟" . فى الحـال فاحت رائحة الخمر "لقد أخطأت الظن بى يا سـيـدى. أنا لا أسيـر مع غـرباء ولا أتحـدث معـهم فى الشارع. مع السـلامة. شكرا جـزيلا" . لا أدرى لماذا قلت له "شكرا جـزيـلا" . عندمـا وصلت إلـى البـيت لم أســتطع تناول الطـعـام

واضطجعت ، تعاودنى آلام الصداع التى لا تحتمل. شعرت بدوخة. كان فى مخيلتى فيليكس وحذاؤه وغمازتاه ، تماما كما هو وتذكرت عينيه وتذكرته و هو ينادينى "يا آنسة" . حتى الآن أتذكر كل ذلك كما لو أنه حدث بالأمس. عندما كان المساء يسدل أستاره سمعت - وأنا فى حجرتى- أبى يتحادث مع شخص ما ونظرت: كان فيليكس. الذى حدث هو أنه تحرى عن شخص صديق لأبى وهو الآن يقول له أن الصديق يرسل تحياته إلى أبى وإلىّ ثم يصف له شيئا وشيئا آخر فيطابق الحقيقة ويقول له كم كان ذلك الصديق صديقا له هو أيضا. دعاه أبى إلى الدخول ليتناول القهوة واستدعانى. يا إلهى ! لم أكن متزينة ولا مغتسلة ولم يكن شعرى منسقا. كنت رديئة الهيئة. هيأت نفسى فى خمس دقائق وخرجت وفى شعرى زهرة وأرتدى فستانا أزرق مطرزا يجعل هيئتى على أحسن ما يرام. قال أبى: "انظرى يا أديلا إلفيرا ، أعرفك بهذا الشاب" . قلت "يسرنى ذلك ،اسمى أديلا إلفيرا توليدو" . مدّ لى يده بألطف وأصح طريقة ونظر إلىّ بمكر، لأن كل ذلك كان حيلة منه لكى يتعرّف علىّ. أنا أيضا ابتسمت. حينئذ كان يأتى كل يوم وأحيانا كان يحمل معه قيثارته ليغنى. كان أبى عجوزا متمسكا بالنمط القديم وكان يعامل فيليكس كابن. كان يلعب معه الدومينو، وذات يوم قبل منه الدعوة على شراب، وذات مرة دعاه للاحتفال بعيد ميلادى. منذ الفجر كان الجو كله موسيقى واحتفالات وكنت أنا مسرورة جدا. كان فيليكس مرحا وطيبا. كان يرقص بحذاء كوبى وكنت أخاطبه بكلمة "حضرتك" . حينئذ كان يرقّص الحذاء كثيرا وهناك فرق بين من يرقص ومن يرقّص الحذاء. عندما كان

فيليكس يرقص كان الناس يلتفون حوله ، فـقد كانت رؤيته متعة. لم يكن يتـعب من الرقص. أتذكر أنـنا ذهبنا ذات مرة إلى حلقـة رقص على مسافة خـمسة فراسخ من بلدتنا وعدنا فى الفجر مـشيا . كنا قد اشتغلنا فى ذلك اليوم وفى المساء ذهبنا فى حشد لكى نقوم باضرابات فى ثولوتيا . كان يرتدى فى كل يوم بدلة مـختلفة. كان هناك تناوب بين الرقص والتأمل. حـينذاك لم يكن فيليكس يشرب الخمـر تقريبا. ذات مرة جاء ومعه دجاجة مبتلة فى جيب سترته. كان قد وجدها فى الطريق. أهداها إلىّ وحافظت أنا عـليها وهى دجاجـتى الملونة. وبعد ستة أشـهر من الخطوبة انتحى به أبى جانبا وقـال له إنه كبر فى السن ويريد أن يرانى متزوجة قبل أن يموت وأننا يجب أن نرتب أمورنا وأنه سيساعـدنا على قدر إمكانياته. وهذا ما حدث فتـزوجنا وبقينا لنعيش مع أبى. كان حفل زفافنا رائـعا بالتأكيد وحضر الجـميع وأحضروا لنا هدايا. لقـد تزوجت أنا زواجـا منظمـا لا كـزواج أمكم. بعـد ذلك مـباشـرة تولى فـيليكس أمـر المحل الذى كـان يملكه أبى. ولما كـان فيليكس لطيفـا - كان لديه تعليق جاهز وكلمة مناسـبة لكل شخص- فقد كان الناس بشترون منه. كبـر المحل وأضاف إليه فيليكس مقهى. حينئـذ لم أر ذلك أمرا سيئـا. لكن فيليكس كان يضـيع النقود وينفق كثيرا من جـيبه فلم يكن يهمه شئ. لهـذا فإننى - دون علمه- كنت أستبقى قـدرا ضئيلا من النقود وأخفيـه فى صندوق ليس له إلا مفتاح معى. بعد ذلك وجـدنا أبى مخنوقا فى صباح أحـد الأيام فى الحمام وأصابنى غم كبـير لأننا لم نستطع حتى مجـرد إخبار أختى إيوسيـبيا التى كانت تعـيش فى كاماجواى . وأهملت أمورى قـليلا، وذلك ما

استغله فـيليكس لكى يقضى على النقود وعلى المحـل واستغل ذلك أصدقاؤه لكى يشربوا دون أن يدفعوا شـيئا. كان المحل مكانا للشرب المستمـر، فضيحة، مكان لعب. امـتنع الناس المؤدبون عن الشراء من المحل. ذهبت إلى هناك ووجـدت موائد قـمار وداعرات. كـانوا كل ليلة يحـضـرون فيليـكس وهو مخـمـور. كنت أجـرده من ملابسـه وأغسله، فلم يكن من الممكـن أن يعتمد على نفـسه فى شئ. كنت أضع له ليمونا وهو شراب مفيد لمن أصابته نوبة السُكّر. وكنت أعد له فنجانا من القـهوة مركّزا. حـينئذ كنت أذهب إلى المحل وأطرد الناس جمـيعا وأغـلق بالمفتاح. كنت أمـضى الليلة أبكى وأعالج فـيليكس. عندما كان يفيق كـان يطلب منى أن أسامحه وكان يعدنى بأنه سيـتغير وكنا نبكى سـويا. لكنه كـان ينسى كل شئ بمجـرد ذهابه إلى المحل. كان المشهد يتكرر كل يوم. الأسـوأ من ذلك هو أن فيليكس كان قد أحب القمار أيضـا. كنت قد تعبت وعانيت ما لا يتـخيله أحد. كنت أقول له "لا تخـدعنى يا فيليكس أكثـر من ذلك. ألا ترى أنك تقتل نفسك وتقتلنى؟". مرات عـديدة كنت أضع فوطة على كتفى وأذهب لإحضاره لـيلا. كنت أجده فى ركن من المحل يتقـيأ. هناك لم يكن أحـد يدرى من الذى يخدم ومن هـو صاحب المحل، ولم يكن أحـد يدرى كنه ذلك النشاط. الناس شريرة وتستغل الإنسان الطيب. أحيانا كنت أجد فيليكس فى الشـارع أو على الرصيف أو فى مدخل بيت أو وسط القمـامه يتـبول وهو متـسخ. كنت أحمله وحـدى الى البيت بمجهود كبير، فقد كان ضخماً. وكنت أشعر بالخجل فقد كنت أعلم أن الجارات ينظرن إلىّ من وراء النوافذ. كنت أغتاظ لأن الناس تشفق

عليّ وتتحدث عنا. حينئذ حملتُ فى إستيلا. كنت فى يوم أدعو قدرة الله العظمى أن يكون حملى ولدا كى أسعد فيليكس. كنت متاكدة أننى لو أنجبت ولدا فإنه سيهدأ. كان قلبى يقول لى ذلك. كان يريد أن يسميه إيفارستو مثل أبيه. فى الليلة التى ولدت فيها استيلا كان يبحث عن جدى مذبوح وكان عليّ أن أرسل إليه. لم يستطع المجئ لأنه كان مخمورا. فى اليوم التالى لم يستطع المجئ أيضا: وهو فى الطريق عاد إلى السكر ووصل إلى البيت فى اليوم الرابع. هل تتخيلون أنه جاء حزينا؟ كلا، بل جاء مسرورا جدا يحمل إليّ الهدايا ويسأل عن ابنه. عندما رأى أنها بنت لم يقل شيئا لكى لا يحزننى، لكنه تجهم كثيرا وبكيت أنا. فى هذه الليلة سكر، قال أنه شرب الخمر للاحتفال بالمناسبة. بعد ذلك لم يبق فى البيت أبدا. لم يكن يريد المجئ لأن استيلا كانت تصيح كثيرا وكان هو يضيق بذلك. لم يذكّرنى أبدا أنه تمنى أن ألد له ولدا. كنت أعانى وأنا صامتة لا أدرى كيف أطلب من العذراء أن تساعدنى، ولم أكن أدرى ما النذر الذى أقدمه. أسوأ شئ فى الحياة هو الخمر والقمار. إنه أمر سئ فعلا: جاء واستقر. لو أنك حتى تذوقت الخمر عندما تكبر فإننى سألقى بنفسى فى النهر و أغرق دون تفكير. هكذا مر الوقت. ذات يوم جاء رجل وقال أن عليّ أن أحمل متعلقاتى ومتعلقات الطفلة وأذهب معه: كان فيليكس قد راهن عليّ فى القمار وخسر. قلت له "انتظر لحظة". ذهبت إلى المطبخ وأحضرت زجاجة كحول وفرغتها على جسدى وجسد استيلا، وكانت معى علبة كبريت فى يدى وقلت للرجل أنه إذا دخل من الباب فإننى سأشعل النار فى نفسى. بعد

ذلك اضطررنا لإعطاء الرجل السلسلة الذهبية ذات الميدالية التى تركتها لى أمى والبغلة مارجريتا ، لكن مـارجريتا عادت فى اليوم التالى ولا أدرى ماذا حـدث لأن الرجل لم يسأل عنها. فى يوم آخـر جاء رجل آخر وطلب منى ألا أدع فيـليكس يذهب إلى المحل لأنه لم يعد ملكنا وأنه إذا ذهب سـيطردونه أو سـيدخلـونه السجن لأنه أصـبح عـديم اللياقة. هذه هى الحياة: نفس الرجل الذى ساهم فى ضياع المحل من فـيليكس لا يدعـه الآن يدخل. لكننى سـررت فى أعـمـاقى. قلت لفيليكس إننا سنرحل من المدينة وإننى أريد أن أعيش مرة أخرى فى الريف حتى لو متّ جـوعا. لكنه عارض. حينئـذ جمعت متـعلقاتى وألبست استيلا ملابسها وهددت بتركه. وعدنى أنه سيتغير، لكننى لم أتراجع. إن المدينة أسـوأ من القرية، فـبالإضـافة إلى الشـقاء والفـقر فالناس شريرة لا ضمير لها. فى النهاية وافق فيليكس على أن نرحل. لم أقل له شئ عن المبلغ الصغير الذى ادخرته والذى لم يبق منه الكثير لأننى كنت أنفق منه على الطعام والملبس، لكن المبلغ كان يكفى لشراء بيت صغـير. كنت أعـرف السيدة فلورندا. كنا جـيران ونحن صـغار وكانت أمـها هى قـابلة أبى وكانت تحبـنا جدا. اشتـرينا عربة قـديمة ووضعت فوقها متعلقاتنا وجئنا إلى هنا. مررت بصعوبات كبيرة. كان البيت مبنيـا بجذوع النخل وبه حجرة واحدة كنا نضع فـيها كل شئ. عند المطر كنا نضع مـتعلقاتنا فـوق السرير ولم نكن نستطيع إشـعال الموقد إلا إذا توقـف المطر ولا لكى نغلى اللبن لاستـيلا. كم قـضيت الليالى هناك وحـيدة ! . هذا البيت بنيته أنا وحـدى لأن فيليكس لم

يكن يهتم بذلك. كنت أغرس الحبال والدعامات الخشبية دفعا وكنت أضع الألواح الخشبية شيئا فشيئا وأنا أطبخ أو أغسل وأكوى لنا وللغير، وكنت أربى استيلا حتى كبرت وكانت تساعدنى بمجرد أن وقفت على قدميها. كان موقدى عبارة عن أربعة أحجار على الأرض وعليها قطعة حديد. قبل أن أنظم المطبخ -وكنا نشعل الحطب لا الفحم- كنت أضع صفائح من الزنك حول الموقد حتى لا تعطلنى الريح عن العمل وكنت أطبخ نوعا ثم أطبخ النوع الآخر بعده. كان فيليكس يذهب إلى المدينة ممتطيا مارجريتا. لم يكن يجد عملا. كان أخى أناستاسيو هو الذى وضع لى سقفا من البوص وعمل لى هذا الموقد الذى لدينا الآن والمائدة والكراسى ، أما السرير والدولاب فقد أحضرناهما من المدينة، والشباك اشتريته بمبلغ ادخرته شيئا فشيئا من بيع الدجاج. كان أناستاسيو قد صار صيادا وفى ذلك الوقت كان يسير فى هذا الاتجاه . صنع لى المغسلة والمطبقية وها أنتم ترون كم هى جميلة لأنه كانت تعجبه النجارة منذ صغره ، أما فيليكس فلم يكن يصنع شيئا فى الدنيا. لو أن الإنسان أعد كشف حساب يبدو أن فيليكس كان سيئا لكن لا . لقد كان طيبا. كان أطيب إنسان فى الدنيا وأكثر الناس مرحا. لم يرفع صوته علىّ مطلقا ، وأعلم بالتأكيد أنه لم يخدعنى مع امرأة أخرى.

## ( ٢ )

أخيراً ظهرت المدينة ، ظهرت فـجأة عندما عبرنا منحنى وطارت ثلاث حمامات رمـادية. رأينا برج الكنيسة ، وهو أعلى من النخلة ، ورأينا مبنى البلدية وأعـمدة المدرج العام وأسقف المنازل وعـربات اليد والكتلة البيضاء التى يشكلها الضبـاب ، والبيوت الكثيرة ، بل الكثيرة جدا التى لا يمكن حصـرها بين بيضاء وصفراء وبـكل منها نافذتان أو ثلاثة. والبيوت متلاصـقة فيما بينها وتلتصق جميعـها بحافة الأرصفة حتى يمكنها أن ترانا عندما نعود -ومـعنا صرات- تحت أشجار الخروع الكثيـفة. فى ذلك الوقت أوقدت الأنوار الأولى والمصـابيح ولوحات الإعـلانات والنوافذ الزجـاجـية. كـان ذلك فى الليل ، وكـان الليل كـالنهار ، حـافلا بكل الألوان. كنـت وأخواتى نمسك بأيدى بعـضنا البعض وكانت أمى تنظر، تنظر أكـثر مما كنا ننظر نحن ، وهى تشب على قدميها ، لأنهـا هى الأخرى لم تكن قد رأت مدينة من قبل. لم تكن المدينة كما وصفتها جدتى ، بل كانت جميلة ومختلفة.

قالت أمى : هيا نمشط شعـرنا. لدىّ إحساس بأننى سيكون لى حظ سعـيد فى هذه المدينة. من المحـتمل أن أجلب أنا الحظ للـمدينة فيـأتى قطار السيـرك فى النهاية. سـألتها جـدتى -وهى تمشى وراءنا وتتحدث مع دجاجتها- المدينة ؟

أجابت أمى: المدينة ، المدينة بعينها

- فلتتوقفوا أنتم الأربعة!

- هل مشطتم شعركم؟ انفضوا ثيابكم ونظفوا أحذيتكم وابحثوا لى عن زهور فى الخندق المجاور.

كانت جدتى تقف فى مواجهتنا وقد أشارت بعلامة الصليب أربع مرات : مرة لكل اتجاه.

- تذكروا كل ما قلته لكم.

- أى الزهور تناسبنى أكثر؟ هل هى الصفراء أم الحمراء؟

- الحمراء

- هل تسمعوننى ؟

- نعم يا أمى.

- الصفراء.

- سنرى ما إذا كنتم ستعصوننى.

- هل الفستان لائق بى ؟ هل وجهى نظيف ؟

واصلنا السير ، وعندما ظهرنا فى الشارع بحقائبنا وصراتنا ، تتقدمنا جدتى بصندوقها وهى تحمل دجاجتها الملونة تحت إبطها، ثم أنا وأخوتي ومعنا السلات ، ثم أمى وهى ترتدى جونلة حمراء واسعة وحذاءً أخضر وتضع زهورا كبيرة فى شعرها وقد صبغت شفتيها للتو وهى تتأمل كل ما حولها ، عندما ظهرنا فى الشارع بهذا الوصف أطل أهل المدينة من النوافذ ونادى بعضهم على بعض لكى يروننا ونحن نمشى ، لكى يروا تلك المرأة التى تلمع عيناها وتتوقف أمام لوحات الإعلانات وهى تقفز من الرصيف إلى الرصيف الآخر مبتسمة

وهى تحمل ورقـة الخروع وتستـخدمها كـمظلة فوق رأسهـا. وعندما رأت أمى كثيـرا من الأشخاص يشيرون إليهـا سُرَّت وبدأت تقول لهم بيديها "إلى اللقاء" وتحنى لهم رأسها وتبـتسم وتكثر من التحيات. كانت تبـتسم لأولئك الأطفال الذين كانـوا يقتربون منها عندمـا كانت تتوقف أمام واجهات المحلات، وعندما كـانت تتحرك كانوا ينصرفون مسرعين. كـنا قد وصلنا إلى باب البيت الكبيـر الذى نريد أن نعيش فيه، وكنا قـد تركنا حقائبنا وصراتنا على الأرض لكى نسـتريح قليلا بالجلوس عليها. عندما رأت أمى حمامات رمادية فوق أسقف المنازل -ولأنها كانت قد وضعت زهورا كـثيرة فى شعرها- ألقت مظلة ورق الخروع على الأرض وقـفزت بحذائها الأخـضر عليها وألقت شـعرها الأسود الفاحم إلى الخلف وطلبت منى أن أعطيها الرق. قلت "الآن نعم" وأعطيتـها الرق، وهو عـبارة عن طبق من الألمنيـوم به شرائط ملونة ملصـقة بالحـافة. ثبـتت الزهور فى الثـقوب ورفـعت رأسهـا وأغمضت عينيها. كان من الممتع أن يرى الإنسان أمى وسط الحقائب بجونلـتها الحـمراء وشـعرها الفاحم وهى تـستعـد للرقص وتنظر إلى الحمامات الرمادية فوق أسقف المنازل. وكان من الممتع أن ترى الناس وهم يحيطون بأمى وينظرون إليها. بدأت أمى فى دق الأرض بقدمها ببطء ثم صفقت. عند أول لفة تحولت جونلة أمى إلى بقعة. توقفت أنفاس الناس، ووقفت أمى على أطراف أصابعها. رفعت يديها فوق رأسـها وصـفـقت مرتين وثلاثة وأربـعة وهى تسـارع فى دق الأرض برجلها. التف الناس حولها فى حلقة. حـينئذ ألقيت إليها أول زهرة من الزهور الحمراء الفاقـعة، فالتقطتها وهى فى الهواء ووضـعتها فى فمها. اضطررت إلى الجلوس على إحدى الحقائب. طعم الزهرة أثار

حماسها فأصبحت تدق الأرض بقدمها بقوة وهى ترفع ذراعيها وتخفضهما وتصفق وتصفق دون أن تستطيع التوقف. اندفعت وسط الناس بحماس وقد جنت جونلتها ، وبدأت هى تلف حول نفسها وفمها نصف مفتوح وعيناها مغمضتان ثم مفتوحتان وهى تصفق دائما وتدق الأرض بقدمها وتضرب على الرق. وعندما انطلقت أول صيحة استحسان قفزت على إحدى الحقائب ودقت برجلها عليها وهى تضرب الرق بين المرفق والساق فثار الجمهور وأطلق الصيحات وفك الرجال أزرار قمصانهم وقذفوا أمى بالزهور وأخرجوا مناديلهم ، ولما لم تكن هناك مناديل كثيرة فقد ألقوا حول أمى بالحشائش والحصى وعلب السجائر وأوراق الشجر والورق والطمى. كانت جونلة أمى كالشعلة ، وكان شعرها كالسحاب ، وكانت الزهور تنطلق منها ومعها خصلات الشعر فتصطدم بالناس فيعيدونها إليها وهم يرقصون فتأخذ هى الزهور وتضعها فى شعرها أو تأكلها. كل ذلك دون أن تتوقف عن دق الأرض برجلها وعن التصفيق والدوران إلى اليمين وإلى الشمال وهز الوسط والأرداف ، كما لو أن ثعبانا فى معدتها. صاح الناس حينئذ أكثر وصفقوا بقوة حتى ورمت أيديهم ودقوا الأرض بأقدامهم حتى تقطعت أحذيتهم دون أن يدروا ، وأخذوا قبضات من الطين ووضعوها فوق رؤوسهم وأخذوا الزهور من أمى وأكلوها بنهم كما فعلت هى أيضا ، ودفع بعضهم بعضا -وهم يصفقون- للحصول على الزهور. ارتفعت سحابة من التراب من عند أقدامنا ولفتنا جميعا ثم علت فوق رؤوسنا ووصلت إلى أسقف المنازل ومعها الأوراق وبعض القمامة والريش والحصوات الصغيرة وعلب السجائر وغطت

الحمامات الرمادية التى طـارت إلى أعلى من شدة الخوف ومرت فوق رؤوسنا. سمعت أمى صـوت الحمام وهو يطير فتوقـفت فجأة لترى كيف يبـتعد. كانت كل أنوار المدينة مـوقدة حتى اللمبـات المحروقة. شعر أمى -الملئ بالـزهور وبعض القمامة- اصطدم بكتـفها. تعلقت جونلتهـا الحمراء بأحد جنبـيها وظلت يداها إلى أعلى تصـفقان لكن ببطء. ظل الناس فى صمت دون حركة. حـول الجميع كانت الزهور تتساقط ومعها أوراق الشجر الجافة. مرت آخر الحمامات وأنزلت أمى يديهـا ونظرت إلى أولادها -وكنا نحـن الثلاثة مـتـشـابكى الأيدى- ونظرت إلى الناس الذين كـانوا يتـأملونها وهى شـاحبـة والمناديل فى يدها، وابتسمت للجـميع. بدأنا نأخذ أمتعتنا ولم يقل الـناس شيئا. بينمـا كنا نمر كـان الناس يبـتـعـدون عن الزهور التى كـانت لا تزال تتساقط، وقبل أن ندخل البيت الكبـير تساقطت حولنا بعض العملات المعدنية ، وقالت النساء لأطفالهن ألا يعودوا إلى هذا المكان حتى يُعلم جيدا من تكون هذه الفنانة التى انتقلت للإقامة فى الحى. دخلنا البيت الكبير، وكان الغبار لا يزال يرتفع إلى عنان السماء.

كان فى البيت الكبير حجرتان وقد جلست جدتى على صندوقها فى أحد الأركان. قالت: "أشعر بوخز فى عينى". بدأت أمى تنظم كل شئ وتبحث عن مـراتب لكى تنام على الأرض وتبحث عن ورق لكى تغطى به الفتـحات التى فى الجدار حـتى لا يطل منها زنجى وقح فيراها وهى عارية. قالت:

- هنا ستكون الحجرة وهنا الصالة والمطبخ ومكان الأكل.

كانت مسرورة جـدا ، وكانت تنتقل كثيرا بـين الحجرات. كانت كلها أمومة. سمعناها تقول وتقول أمام تمثال المسيح وأمام المرآة:

- حياتى يجب أن تتغير الآن.

قالت لنا: تعالوا ساعدونى

قالت الجدة: اذهبوا

لكننا لم نذهب. لم نخـرج من بين الحـقائب. أمـا اللاتي ذهبن فهن الجارات.

- مساء الخير. هل تسمحون لنا بالدخول؟

- نعم طبعا

- جئت لأقـدم نفسى: أسكن فى البيت المجـاور ويقولون إنه مما يجلب الحظ السعـيد أن تكون الإنسـانة أول من تتعرف على الجـيران الجدد. اسمى مرثيديس. لدى ولدان كبـيران أصغرهما أعزب ويعيش معى. أنـا مطلقة لأن زوجى كـان عديم الحيـاء ولم أتحملـه. كل ما يوجد بمنزلى يمكنكم اعتباره ملككم.

- شكرا جزيلا. ونحن أيضا نقول نفس الشئ. اسـمى استيلا. لن أقدم لك قهوة لأننا لم نحضر حتى مـوقد. لدينا موقد جيد لكننا اضطررنا إلى تركه. تعالى أقدمك لأمى.

قالت جارة أخرى:

- اسمى مـاريبيل وأسكن فى العشـش المقابلة. أعمل فى انتـقاء أنواع التبـغ وفى مقهى أخى. أواظـب على العلاج مع رجل عـجوز لأننى متزوجة منذ عشـر سنوات ولم أحمل بعد. إذا سمعت عن أى شئ يفيد فى هذا الأمر أخبرينى. هل أنت متزوجة؟

- نعم لكن زوجى يعمل فى كاماجواى. يرسل لى نقودا لكنه لا يستطيع المجئ الآن.

قالت الجارة بصوت منخفض:

- نعم لأن صاحب الحانة ظل فاغـر الفم وأنت تمرين ، وفرصة كهذه ليس الحـصول عليها سهلا. هل تريدين بعض الفـاصوليا التى تبقت لدىّ من الغداء؟

- حسنا ، لكن تعالى لتتعرفى على أمى. بعد ذلك تسألينها عن مشكلتك ، فهى تعلم كثيرا عن هذه الأمور.

- مساء الخير يا سيدتى. كيف تشعرين بعد الانتقال؟

- متعبة قليلا يا ابنتى

- يا أولاد ، اخرجوا لكى تراكم الجارة

- دعيهم ، فالأطفال هكذا دائمـا. بعد ذلك سيألفوننى. الآن أحضر لك الفاصوليا.

- إنها رقيقة يا أمى

- وأنت ، لماذا تضطرين إلى ترديد الأكاذيب؟

قالت جارة أخرى:

- مساء الخيـر. اسمى فيلاميدا لكنهم يسمـوننى فيلا. بما أنكما حديثتـا عهد بهذا المكان فسأقـدم لكما نصيحة: لا تخـالطوا ماريبيل كثيـرا ، فهى تبدأ بطلب إصـبع وتنتهى بالاستيـلاء على اليد. وإلى جانب ذلك فهى مشهورة بأمر سـيئ ، فمهما فعلت لا تحمل. . . . . أنا خياطة.

- يا لحسن الحظ ! كنا نتحسر لأننا كانت لدينا ملابس كثيرة فى الريف ولكن لما كنا على وشك الانتقال فـقد غسلت كل الملابس وقد سرقت جميعها من على الحبل.

- أى خياطة. . . .أتقاضى أجرة زهـيدة ، ولا آخذ ما يفيض ، حتى لو كان خيطا.

قالت جارة أخرى:

- اسمى كارمن تيريسا ، لكنهم يسموننى الصينية لأن أمى كانت من الصين ، من الصين الحقيقية ، أى من اليـابان. اعتبرينى صديقة. هذا الحى هادئ. كل ما فى الأمر هو ألا تعيرى اهتمـاما للسيدة فيلا العجوز ، فهى مخادعة ونمّامة إلى أقصى حد.

- قالت لى أن ماريبيل سيئة.

- حسنا. . .ومن أى ريف أتيـتم؟ هل أتيت هاربة من الحرب؟ يقولون أن الأمور مشتعلة فى الشرق.

- هناك سمعت طلقات نيران

- لا تتحدثى فى أمور السياسة إلا إذا علمت مع من تتحدثين. هنا أيضا يوجد وشاة ، لكن الجميع تقريبا يسمعون راديو الثوار مساء.

قالت مارييبل:

- ها قد أحضرت لك الفاصوليا. كيف حالك يا صينية ؟ هل جئت لتتعرفى على الجارة الجديدة؟

- كانت فيلا هنا تتحدث عنك

- تخيلى. لا أدرى ماذا فعلت للناس لمجرد أننى ممتلئة بعض الشئ وأسنانى كاملة. حسنا، سأنصرف. بيبو على وشك الوصول.

- وأنا أيضا

- تعاليا غدا ، فالآن سنرى كيف سنرتب أمر نومنا. لدينا أسرّة جيدة لكننا لم نستطع إحضارها أيضا.

- سأعيرك سريرا.

- لا يجب أن يعرف الناس أن الإنسان يكاد يموت جوعا

- لن يعرفوا ذلك بكل تأكيد. . .فليساعدك الأولاد على ترتيب ذلك ، ودعيه هكذا حتى الغد. أعدى شيئا من الطعام وهيا ننام أخيرا. إننى ميتة.

- ألن تنتظرى خالى أناستاسيو؟

- حقا. إذا كان قد حصل لك على عمل أخيرا فأول ما أريد أن تشتريه هو تمثال من الجبس للقديسة لوثيا لكى أضعه تحت السرير.

- يا أولاد ساعدونى ، فعندما ننتهى من ذلك وتأكلون سأدعكم ترون الشارع.

- فى المدن لا تخرج النساء المحتشمات إلى الشارع ليلا.

بدأتُ - وأخوتى- فى مساعدة أمى حتى جاء جدى أناستاسيو. عندئذ دخلنا من جديد بين الحقائب ولم نرد الخروج مطلقا. غضب جدى لذلك كثيرا وقال إنه إذا لم نخرج فسيذهب ومعه الحلوى. ألا نريد أن نتعلم كيف يوقد ويطفأ النور الكهربائى؟ لكن ذلك لم يقنعنا، وبدأ يقول إن أديلا إلفيرا لو ذهبت مع رجل آخر فسيطاردها برا وبحرا ، وقال أخيرا إنه حصل على عمل لأمى وأضاف أنها وظيفة هامة وأن على أمى أن تقيم كخادمة فى بيت السيدة إنريكيتا وهى سيدة ذات حسب ووقار وأنها تضع شروطا فيمن يخدمها. كان حظنا سعيدا. سيدفعون لأمى خمسة عشر بيسو فى الشهر على أن تقوم بالغسيل والكى والتنظيف وأن تذهب بالأطفال إلى المدرسة ثم تعيدهم إلى البيت. ارتدت أمى زيا أنيقا -أفضل ثوب لديها- ومشطت شعرها -دون أن تضع زهورا- لكى تذهب وتتعرف على هذه السيدة ولترى ما إذا كان يعجب قدرة الله العظمى أن تكون الإجابة بنعم ، لأنها ستوقد لها دستة من الشموع الكبيرة.

عندما انصرفوا طلبت منا جدتى ألا نقول لأى أحد إنها كانت قابلة ، لأن ذلك ليس صحيحا وأنها ستقص علينا الحكاية يوما ما ،

وإذا سألونا فعلينا أن نجيب "لا يا سيدى ، جدتى ليست قابلة" ، لكن علينا أن نُدخل الشخص الذى يسأل وأن نُجلسه بكل أدب. قلنا نعم لكل ذلك وذهبنا إلى الحلة لنرى ما إذا كان لا يزال بها شئ. كنا نرغب فى أن تصل أمى ، وكنا ننظر من الأبواب والنوافذ. عادت بعد لحظة. كانت الفرحة لا تسعها ، وظهر ذلك على وجهها. لقد ارتاحت لها السيدة جدا ، وهى طيبة طيبة. كان ذلك يرى من على بعد. لو أننا رأينا بيتها ! إن المرء ليتخيل أن الشئ سينكسر من مجرد النظر إليه ، يا للجمال ! يا للجمال! كم توجد به مرايا وتحف ! إنها ستعمل أسبوعين دون أجر كتجربة ، هكذا طلبت السيدة ، لكى تتدرب على الغسيل والتنظيف والكى. وكانت السيدة ترتدى ثوبا وخواتم. . . . كل ذلك يبدو حلما. مع ذلك كان شعرها يبدو مستعارا. كان زوجها هناك أيضا. هو ضابط يميل إلى البدانة ويجنح إلى الشيخوخة. لم يعجبها الزوج كثيرا ، لكن الملاحظ أنه لا يتدخل فى شئ. ذهب جدى أناستاسيو إلى بيته وسيأتى غدا. . . . . قالت جدتى:

- أنت حمقاء. هذه السيدة طيبة وستدفع لك خمسة عشر بيسو لأنك ستعملين كما لو كنت بغلة.

- إن كل الناس أشرار بالنسبة لك يا أمى.

- لأننى أعرف طبيعة أهل المدن. كيف سنقضى هذا الشهر؟ فى هذا المكان علينا أن ندفع حتى تكلفة الإضاءة. إذا لم تدفعى يأتون ويقطعون التيار. ليتعلم الولد مسح الأحذية.

- لا . إننى استطيع أن أغسل وأن أكوى للناس وأن أطرز وأن أقترض إذا لزم الأمر . بذلك وبما تتقاضينه أنت يكفى .

- أنا لا أتقاضى شيئا . أنت تعلمين أننى لا أتقاضى شيئا .

- لكن الناس يرسلون إليكِ الهدايا . أريد أن اشترى من المرتب الأول بعض الشياب للأولاد وحذاءً مريحا لك . سأشترى للطفل قميصا أصفر . طالما تمنيت بجنون أن ألبسه قميصا أصفر .

- اسمعوا كيف ستشترى هى أشياء بخمسة عشر بيسو! ما أريد أن تشتريه لى ليس حذاء بل تمثالا للقديسة لوثيا .

- عندما تبدأ الدراسة فى العام القادم سيذهب الأولاد إلى المدرسة . عليهم أن يتعلموا شيئا .

- الإيجار قدره ست عملات .

- على الأقل ليذهب الولد إلى المدرسة . الجيران هنا طيبون .

- أنت لا تعرفين أهل المدن كما قلت لك . هيا ننام .

- سأذهب بالأطفال إلى ناصية الشارع لكى يروا المدينة والأنوار، ولكى أتفرج أنا أيضا .

- هذا لن يكون .

- نعم .

- قلت لا. هيا ننام.

- تصبحين على خير يا أمي.

كان الفراش لا يكاد يتسع لنا نحن الثلاثة. كانت هناك فجوات في الجدران، أما السقف فلم تكن به فتحات ولم تكن ترى أية نجمة في السماء أو جزء من القمر، ولم يكن هناك شعاع من ضوء. لم تظهر كذلك أيًا من فراشات الليل. حتى الآن لم نعرف ما قالت الفراشات عندما علمت بموضوع الزهور. ربما ليس هناك فراشات في المدن. إن ما يوجد في المدن هي الضوضاء في الشارع وحول البيت: سكارى يغنون، ساعات تدق في كل حين، أناس ينظرون من ثقوب الجدران وفجأة ينطلقون هاربين، قطط فوق أسطح المنازل وأشياء غريبة مثل يد تدفع النافذة، يد سوداء وبها شعر كثيف ويبدأ شحاذ في الدخول. نعم، هناك شحاذ في الحجرة دخل للتو من النافذة. إنه يرتدي زيا أبيض، وهو ملتصق بالجدار ينظر هنا وهناك بعينيه الكبيرتين. ها هو قد وضع السكين في يده ويحاول أن يعرف أين الفراش. لهذا فأنا لا أتحرك، والحمد لله أن أخواتي لا يتحركن كذلك. معه أكياس سيضعنا فيها بعد أن يذبحنا. إنه يقترب. يقترب. إنه يعلم الآن أين نحن. إنه يأتي زحفا على الأرض لأنه لا يريد أن تستيقظ أمي وجدتي. ما عليّ أن أفعله هو أن أخفي بطني إلى الداخل حتى يرى كل عظام ضلوعي ويعرف أنني ضعيف وأنني ليس بي شحم. ربما يأخذ إحدى أخواتي أو ربما لا يأخذ أي أحد

ويذهب إلى بيت آخـر لأننا ليس عندنا دمـاء تقريبـا. إن دماءنا بهـا مـاء. لكننى أفكر أيضـا فى عبـاد الشـمس. لا يزال مـحفـوظا فى الحـقيـبـة، وربما كان غـائبـا عن الوعى. لو أن أخواتى يـصحـبننى لاستـيـقظت ولزرعـته فى الـفناء ، حتى بالقـرب من البـيت ، وفى الصباح أنقله إلى مكان آخـر. لو نرفع نحن الثلاثة رؤوسنا فى وقت واحد لما استطاع الـشحاذ أن يخرج من مكمنه ، فهـو يعلم أنه لو جرّ واحدا فأخوته سـيصرخون وستأتى أمى وجدتى والعـصا فى أيديهما. هكذا نسـتطيع أن نذهب وأن نعـود. سأقـول ذلك لأخوتى بصـوت منخفض دون أن يسمعنى الشحاذ.

- أخواتى ، هل نستيقظ ونزرع عباد الشمس ؟

- اسكت فهناك شحاذ فى الحجرة . إننا نمثل أننا ميتون.

- وإذا مات عباد الشمس؟

- لقد وضعنا له كثيرا من الماء. إنه يتنفس هنا حتى الصباح.

- لولا هذا الظلام الشديد ! ألا تخافون أنتم ؟

- نعم. نعم. ابتعد قليلا.

- هيا نتعانق نحن الثلاثة حتى ننام

- تعال ، لكن اسكت.

- كيف منظر المدينة الآن فى الخارج ؟

مهمـا فتحت عـينى مبكرا ومهمـا سألت بسرعة عن أمى فـإنها تكون قد ذهبت إلى العمل. إنها تذهب قبل شروق الشمس. حينئذ أنتظرها بـالليل لكى أراها قـبل أن أنام ، لكننى أنام عـلى المائدة ، وتقول أخواتى إن أمى نفسـها هى التى نقلتني إلى السرير ، لكننى لا أشعر بذلك ، وكل ما أفعله هو أننى أحلم أننى أراها وأننا نتنزه. فى أحلامـى ترتدى أمى الزى الأبيض دائما وشـعرها الأسـود يصل إلى خصرها. بقـية اليوم أقضـيه فى الفناء مستـيقظا أو نائما. مسـتيقظا أفكر أننى نائم ، أو نائما أفكر أننى مستـيقظ. الأمران سواء عندى ، لأن ما أفعله فى كل الأحوال هو تذكر ما فات. إن فناء هذا البيت لا يعجـبنى. ربما يعجبنى أن فى نهايتـه صفا من شجـر الصمغ الأزرق العالى وفـيه أيضا يتكسّـر ضوء الشمس إلـى قطع. يبدو لى أن هذه الشـمس هى نفس الشمس السـابقة. إنهـا تضئ بنفس القـدر ، أما خلاف ذلك فالفناء ملئ بالحصى ، والأرض تبـدو كالفخار. والفناء ليس به أشـجار ولا أزهار ولا فراشـات ولا حتى فـرس النبى. هناك الحصى وبعض نباتات عاجزة وشاحبة لا تشفى من الصداع. بجوارها زرعت عباد الشمس. لن نكون أنا وعـباد الشمس بنفس الطول لأنه لا ينمو ، بل قد انحنى ، هذا رغم أننى أضع له ماءً باستمرار. هناك جدار عـال من الطوب اللبن يحـيط بالفناء بشكل يجـعلنى أرى نفس الأشياء دائما : أشـجار الصمغ ، بئر الطلمبة والعـشش المقابلة. ما عدا ذلك توجد السماء ، لكن ليس هـناك سحاب جميل يمر من هنا

ولا جياد . ومهما صَمَتَ الإنسان هنا فإنه لا يسمع زقزقة العصافير أبدا. وفى نهاية الفناء أقبع أنا عندما أسمع صوت أمى فى البيت أحيانا. لكننى عندما أدخل من الباب كالمجنون وذراعاى مفتوحتان لا أجد أنها أمى بل صوت أخواتى وهن يتحدثن. وإذا كان الصوت الذى سمعته صوت أمى فإنها تكون قد غادرت البيت لأنها جاءت للحظة واحدة لتطمئن على جدتى أو لكى تنزل الحلة من على النار لأخواتى أو لكى تضع الملح فى الطعام إلى أن يتعلمن المقادير. قالت لى أمى ألا أخرج إلى الشارع وأن أحترس من اللعب مع الأولاد الآخرين. لا يجب أن أفعل ذلك مطلقا ، وعلىّ أن أكون مهذبا فى البيت وأن أحضر لأخواتى الماء الذى يطلبنه وأن أرمى القمامة بعيدا. تريد أمى أن تقول كل الجارات إننى مثالى وإن الإنسانة يمكن أن يكون لها ولد مثلى وأنها يمكن أن تعمل بهدوء ودون قلق فى بيت السيدة إنريكيتا لأنها تعلم أننى لا أمثل أى خطر. أسأل أخواتى أين كانت أمى عندما قالت ذلك وكيف تكون قد قالت ذلك وكم عدد الزهور التى كانت فى شعرها وأطلب منهن أن ينادينني عندما تدخل أمى. تقول لى أخواتى "نعم" ،لكن أمى جاءت وغادرت البيت مسرعة لدرجة أنهن لم يكن لديهن وقت لفتح فمهن. لم يسألنها ما إذا كانت التقلية تضاف إلى الفاصوليا قبل أو بعد إضافة الملح. أظل برهة أشم الرائحة التى خلّفتها أمى ثم أذهب مرة أخرى إلى الفناء ، وبما أن هناك عظام -بالإضافة إلى الحصى- فإننى أحيانا أجد عظمة فأشير بعلامة الصليب على عيون السمكة التى فى ركبتى وأرمى العظمة إلى الخلف دون أن أنظر إليها. هكذا تسقط عيون السمكة ، لكن عيون السمكة التى فى ركبتى لا تسقط لأننى دائما أبحث عن العظم.

في الصباح أحب الفناء قليلا ، إذ يغطيه الضباب. في هذه المدينة هناك ضباب أكثر مما في أي مكان آخر ، إنه يصل إلى فروع أشجار الصمغ ، وأرى رؤوس الجارات وهن يذهبن من هنا إلى هناك بلا أجساد ولا أذرع. في هذه الساعة أخرج وأتبول. جدتي أمرتني ألا أفعل ذلك في الفناء حتى لو أن أحدا لا يراني بسبب الضباب. عليّ أن أتبول في المرحاض. لا يعجبني المرحاض لأن به صراصير كثيرة. ذات يوم صعد صرصار على ساقي. . . .ثم سقط على رأسه في قاع المرحاض. تقول جدتي أيضا أنني يجب أن أكون مختلفا عن الأولاد الآخرين ، فلا يصح أن ألقي حجارة أو أن أسير في الشارع. هذا ما تقوله عندما تتحدث ، لأن جدتي لم تعد تتحدث أو أصبحت تتحدث وتتحدث دون أن يستمع إليها أحد. وأنا مختلف ، منذ وقت طويل وأنا مختلف ، فأنا أتصرف بأدب وأتذكر الفناء السابق ، فناء الحديقة. لا أكاد أتحدث مع عباد الشمس ، وليس ذلك بسببي وإنما بسببه هو، فهو أكثر حزنا مني وهو يبكي. دائما نحن متجاوران، صامتان ، هو ينظر إلى الشمس وأنا أنظر إليه. تقول أمي إنها راضية عني وإنها لا تشكو من أخواتي وإن عليها أن تعمل أكثر. يا للسعادة! ، فقد أنجبت أولادا طيبين. رغم كل هذه النعم يقول الناس إن الله غير موجود. حتى الآن لم تشتر لي القميص الأصفر الذي تريده ، لكن في العام القادم دون إبطاء سأذهب إلى المدرسة لأنها نذرت نذرًا للعذراء. أما أخواتي فلا ، لا يهم ، عليهن أن

يعتنين بالمنزل وبجدتى. بعد ذلك سأعلّمهن أنا شيئا. أمى تدّخر لكى تشترى لى الزى المدرسى والكراسات. مكافأتنا على حسن الأدب - كما تقول- ستكون عودتها من العمل مبكرا ذات يوم. سنرتدى ملابسنا وسنذهب لنرى المدينة. حتى الآن لا نعرفها. سنشترى قوارب من الجيلاتى والشيكولاتة وجوز الهند والزبد. الآن هناك جياد وستذهب بنا أمى. لكن علينا ألا نطلب ركوب الجياد ولا أن نطلب شراء غزل البنات لأنه لا يغذى. يمكننا شراء كوب عصير قصب وأن نشترى كوبا آخر لجدتى. لكن أمى تعود من العمل متأخرة ومرهقة جدا وقدماها متورمتان. نحن لا نعلم كمية جرادل الماء التى تحملها كل يوم وعدد مرات صعود السلم حتى الدور الثانى. ستأخذ قرصا من الدواء إن وجد أو من عند فيلاميدا وتنام. لماذا تضع الأعشاب على رجلها إذا كانت الأعشاب لا تشفى شيئا ؟ أخواتى يدلكن لها رجلها بالكحول ، وأمى تبتسم من الارتياح وتربت على رؤوسهن. بعد ذلك تستطيع أن تطرّز قليلا وأن تعلّم ذلك لأخواتى. أذكّرها أنا بالجياد الصغيرة والجيلاتى والنزهة ، لكن إذا كان عليها فى اليوم التالى أن تستيقظ فى الخامسة أو قبل ذلك ، لأن عليها أن تنجز أعمال التطريز التى وعدت بها ، فكيف تأخذ الأولاد للنزهة ؟ هل أنا أحمق ؟ فلألعب بزجاجاتى.

ذات صباح ظهر فى فناء البيت طفل آخر. فجأة رأيت ساقيه تتدليان من على الجدار. بعد ذلك ظهر جسمه كاملا ونزل فى الفناء. قبل أن يكلمنى هو جريت إلى البيت وراقبته عبر فجوات الحائط.

تجوّل قليلا ثم غادر الفناء فى الحال. فى اليوم التالى ظهر طفلان بدلا من طفل واحد. دخلا من باب البيت ، من الباب الرئيسى الذى دخلنا منه نحن ذات يوم والذى لم أخرج منه بعد ذلك. أخذا بعض العظم وشربا ماء من البئر ثم انصرفا. رأيتهما من النافذة ورأيانى. فى الليل حضر طفل آخر ، مختلف ، ومعه فراشة فى زجاجة. قلت لنفسى "إذن توجد فراشات فى هذه المدينة" ، وفهمت أن الأطفال كثيرون وأنهم مختلفون ، كل طفل طوله مختلف ولونه مختلف عن الأطفال الآخرين. منذ ذلك الحين رأيت الأطفال فى كل لحظة. بمرور الوقت كنت أرى أطفالا أكثر. كان أحدهم يبيع عجائن بالموز ، وكان الآخر يمشى على عصا ويطلب من الناس أن تضع له عملات فى علبة. كانوا دائما ينظرون إلىّ كما لو كانوا يتساءلون من أكون ، وكنت أنا أنظر إليهم. كنت أسمع من بيتى الجلبة التى يحدثونها وكنت أتساءل ماذا يحدث بالخارج. كانت لدىّ رغبة شديدة فى الخروج ورؤية ما يحدث. كان هذا بالضبط ما يحدث : كانوا يقذفون شيئا ما من الرصيف إلى الرصيف الآخر ويقفزون على الجدران ويصعدون على أسطح المنازل ولا ينزلون رغم صياح الناس ، وكانوا يلعبون الكرة والبلى وكانوا يرقصون. كانوا يلعبون لعبة "الهنود ورعاة البقر" أو لعبة "العسكر واللصوص". كانوا يتشاجرون فيما بينهم وكانوا يردون على الكبار. كانوا يسيرون مثنى مثنى أو فى جماعات من خمسة أو ستة أفراد وهم يتشاجرون ويقذفون الطوب. عندما كان يظهر امبروسيو العجوز كان الأطفال

يتركـون كل شئ ويسيـرون وراءه يقذفـونه بعلب الصفـيح الصغـيرة ويصيحـون به "أيها العجوز المجنون". لم أكن قد رأيت امبـروسيو من قبل حتى ذات يوم. فى بعض الأحيان سمعت الجلبة التى يحدثها الأولاد حـوله ، وذات مـرة قـالت أمى "مـسـكين ذلك العـجـوز امبروسيو. سأحمل إليه قطع البطاطا باللحم التى بقيت". لكننى لم أكن قد رأيته أبدا.

الحكاية هى أننى لا أفعل الآن شيئا آخر سوى مراقبة الأولاد لكى أعرف مـاذا يفعلون ولكى أتخـيل أننى بينهم أفعل مـا يفعلون. أطل من باب الشارع ومن خـلاله أرى الأولاد يلعبون. البـعض منهم يأتى ويدعونى إلى اللعـب لكننى لا أذهب ، أو يتركون لى شـيئا أحـرسه بينمـا يتـشاجـرون. كنت على وشك الـذهاب وراءهم لكننى أتردد كثيرا. كثيرا ما أقول لنفسى "نعم سأذهب" ولكننى لا أذهب. دائما أدع الفرصة لكى تأتى إحدى أخواتى وتسألنى ماذا أفعل وأنا أنظر إلى الشارع وتقـول لى أن أذهب إلى جدتى فهـى تطلب منى شيئـا. ما تطلبـه جدتى هو أن أبقى هـادئا فى البيت ولا أخـرج أو هل أريد أن أتوه ؟ ذات مرة نادى علىّ عباد الشمس. قالت جدتى لأمى:

- هذا ، هذا على وشك الخروج إلى الشارع.

- الشارع ؟ إياه أن أراه ! مـا يجب عليه عـمله هو مسـاعدة أخواته فى البـيت. فليملأ الماء أو ليـنفخ فى الموقد. . . .أى شئ إلا الشارع.

"عاشت كـوبا حرة" . تسمع تلـك العبارة فـجأة وسط سكون الحى فيتـحرك كل الأولاد أينما كانوا. يتركـون ما بأيديهم ويجرون. تحـاول الأمـهـات أن تغلق عليـهم الأبواب وأن تحـبـسـهم ، لكنهم يدفعونهن ويخرجون من الأبواب والنوافـذ ويتخطون الحواجز ويلقون بأنفسـهم من الأسطح. يحملون العـصى والأحجار وعلب الصـفيح القديمة ويعدون فى الشوارع. تتردد صيحة "عاشت كوبا حرة" مرة أخرى، وفى آخر الـشارع يظهر امبروسـيو العجوز وسط الـغبار الذى يثيـره حصانه الخـيالى وقد غطـى رأسه بقبـعة واسعـة. عندما يرى امبروسيو الجمع الذى يقترب منه يظل ساكنا كأنه تمثال. يحرك الريح بنطلونه ورايته الممـزقة. تتوقف عربات اليد والدراجـات وتصفّر له. بعد ذلك يحـيط به الأطفال ويصيحـون به "عجوز مجنون ، عـجوز مجـنون يأكل الشوربة" . وهو لا يتـحرك عندمـا تسقط بـجواره أول الأحجار وعلب الصفيح. إنه ينتظر حـتى يحاول الأطفال الأكثر جرأة نزع ميداليته التى يعلقها فى رقبـته. حينئذ يمتطى فرسه ويثور الأطفال ويصيحون بأعلى صوت "إلى الهـجوم" ، وتسقط أمطار من الحجارة والعصى عـليه. يصيح الأطفـال "عاشت إسـبانيا" ويـجرون بكل قوتهم. يذهبون به إلى بيت كـبير غير مسكون. هناك يهـجم العجوز امبـروسيـو على الشجـيرات الصـغيـرة وصناديق الكرتون. إنه يقطع رؤوس كل الأشـياء بـضربة سـيف واحـدة ، ثم يدور ملتـويا يطعن بالسـيف الذى هو غصن من شـجرة مـوز ، كل ذلك وسط قفـزات وصيحـات الأطفال الذين يشجعـونه. وعندما تخور قواه يظل مـلقيّا على الأرض كـالميت. يستـغل الأطفـال ذلك ليسـرقـوا منه قبـعتـه

وليتـوّجوه بجردل قديم وليـقيدوا يديه وليحـملوه أسيرا بين صيـحات الهنود الحمر المتوحشين وبين الإسبان الذين يقررون حرقه حيا لأنه باع نفسه ولأنه خـائن ولأنه يأكل "الشوربة". يحاول امبروسيـو العجوز أن يتحـدى الأطفال لكن بلا جدوى. يقف شـامخا ويمشى متـهاديا يحتضن رايته ، فهو أسيـر للمرة الأولى فى حياته ولا يهمه أن يرقص الإسبـان والهنود حوله أو أن يعلّقوا له السـحالى الصغيـرة فى أذنيه. يستـمر ذلك إلى أن تصل النساء ومع كل واحـدة منهن مقشة فـينهرن الأطفال يفككن قيد امبروسيو ويحملونه إلى بيوتهن لكى يعطينه قليلا من الحساء أو قطعـة من خبز. يتركـهن يذهبن به إلى بيوتهن وهو لا يزال يهمهم بعبارات ضد الإسبان.

فى اليوم الذى لم تتوقعه أمى ، عندما حضرت لكى تضع التقلية للفاصوليا التى كانت أخواتى يطبخنها ، وجدت مفاجأة. يا لفزعها عندما رأت مـجمـوعة الأولاد تأتى وهى تعـذّب امبروسـيو العـجوز وعندما رأت أننى -أنا نفسى- أكثر الذين يقـفزون ويصيحون ، فأنا زعيم الهنود الذين يرمـون بالسهام. جرت ورائى ويداها فـوق رأسها وهى غاضـبة ، لدرجة أن امبـروسيو العـجوز توقّف ليتأملهـا وصاح "وايلر ، وايلر" وأمرنا بالهجوم عليـها. لكن وايلر -أمام كل قبيلة الهنود الحمـر- أمسكتنى من أذنى حـتى وصلت إلى البيت باكـية ، وهى الآن ستجن بالفعل إذ أننى لا أعيرها اهتماما ولأننى سأضيع بين كل أولاد الحى. إن مـا أحـتـاج إليـه فـعـلا هو رجل يفـرض علىّ احـترامـه. . . .ما هذا العـقاب يـا رب! ألا تعمل هى وتقـاسى بما يكفى؟ ستشـترى حزاما غليظا. حـينئذ كشفت أخواتـى عن نفسهن

وقلن إنهن لن يتواطئن معى بعد ذلك وأن ما فعلته الآن لم يكن للمرة الأولى وليس شيئا إذا ما قورن بما فعلته من قبل وأنهن بالأمس اضطررن لإخراج جدتى إلى الشارع لكى تنادى علىّ حتى أتناول الغداء وأننى كنت قد أخذت السكين من البيت. لم يعد أحد يعرفنى الآن. لقد تغيرت كثيرا فأصبحت أخرج حتى النهر دون إذن وأذهب إلى فناء الجيران وأتسلق أشجار المانجو والجوافة ، بل أصبحت أتشاجر وأرد على الكبار. لم يتبق من مرحلتى المبكرة إلا عباد الشمس. ألكى تشترى أمنا قميصا أصفر وزوجا من الأحذية للمدرسة لهذا الكسول عليها أن تعمل من طلوع الشمس إلى مغيبها وأن ترهق عينيها ليلا ؟ لا يا بنى ، لا. ابحث عن ملابسك هناك ونم.

فى يوم آخر جئت من الشارع. قلت:

- ضعى لى طعام الغداء يا جدتى. أنا جائع

- قالت أمك أن تذهب بمجرد وصولك إلى بيت السيدة إنريكيتا. لا تحاول أن تعترض. عليك أن تذهب الآن.

كنت أعرف لماذا تريدنى هناك. ابتسمت أمى بمجرد أن رأتنى ، وأشارت إلىّ أن أجلس على أحد المقاعد بأدب شديد. قالت:

- سيدتى ، ها قد وصل ابنى.

أطلّت السيدة إنريكيتا برأسها المستدير وابتسمت أيضا. قالت:

- فى الساعة المحددة

- صباح الخير يا سيدتى إنريكيتا

بينمـا كانت أمى تضع الطعـام على المائدة -عدد لا نهـائى من الأطباق الملونة والأكـواب والملاعق مختـلفة الأحجـام- ألقيت نظرة على الصالة لأحاول أن أشاهد تليفـزيونا. اتخذت الحيطة كمن يجلس فى مكان لأول مرة ، لكن الأعـمدة دائما كـانت تحجب عنى الرؤية. هذا التليفـزيون قد رأيته فى مرتـين. ذات ليلة جئت إلى هنا مع أمى وقادتنى السيدة إنريكيـتا إلى الصالة لأجلس فيها بينمـا هما تتحدثان. ومرة أخرى رأيتـه من عند الباب الخارجى عبـر النافذة التى تطل على الشارع. فى المرة الأولى كان التـليفزيون يعرض فقـرة عن السيرك ، وفى المرة الثـانية كـانت هناك امرأة شـقراء تغنى وهى ترتدى ريـشا وتطير فى الهواء. تمنـيت لو أننى ظللت أشاهدها طوال الليل ، لكن السيدة إنريكيـتا قالت "بعد إذنكم" وأغلقت النـافذة. قالت لى أمى إن التليفزيون يظل فى النهار مغلقا وعندئذ لا تكون له أهمية ، لكنها تعتقد أنها تعرف أين زرار التـشغيل والآن ، وهى تعد المائدة والسيدة إنريكيتا موجودة ، لا تستطيع لكن فى يوم آخر تكون بمفردها سترسل فى طلبى وسنفتح التليفزيون لحظة. تقول أمى إن هذا التليفزيون ليس الجهاز الوحيد فى هذا البيت بل فيـه ثلاجة تجمد وبها يصنع الجيلاتين والحلوى الباردة ، هذا خـلاف المسجل. إنه جـهاز يضع فيـه الإنسان شـريطا - ليس أى إنسان بل يـجب أن يكون على دراية ، أن يكون شخصا ذا حسب ونسب - فيسمع كيف يغنون ويعزفون الموسيقى كما لو كانوا مـختـبئين فى الحـجرة ، لكن كل ذلك كذب ، إنـه الشريط

الذى يغنى ، الموسيقى بداخله. والتليفون. . . لماذا نتحدث عن ترف الناس المنعّمة ؟ حتى الأكل. . . انظر كم عدد الأطباق والملاعق والأكواب التى يحتاجونها والمفارش وفوط السفرة. إن السيدة إنريكيتا نفسها تقول إن أى بيت ليس به أشياء أفضل مما فى بيتها. وهذه حقيقة. ذات يوم لم يتسع البيت لأشياء أخرى ولهذا اشترت مرايا كثيرة وكان عندها دورق فوضعت خلفه مرآة ، فكان لديها دورق فى الحقيقة ودورق فى المرآة ، ومنضدة فى الوسط فى الحقيقة ومنضدة فى الوسط فى المرآة ، وتليفزيون حقيقى وتليفزيون فى المرآة ، وكراسى حقيقية وكراسى فى المرآة. فى ذلك اليوم كانت هناك نسخ كثيرة منى، وكل هذه النسخ كانت ترفع أيديها فى وقت واحد ، وكان كل منا يقرص نفسه حتى نعرف من منا الشخص الحقيقى. ولم أدر من هو أنا الحقيقى حتى وصلت إلى بيتنا ، بل إننى أحيانا أظن أن شخصى الحقيقى قد ظل داخل إحدى المرايا وأن الشخص الذى ذهب إلى بيتنا ليس هو "أنا" الحقيقى. ذات يوم ذهبت لأرى أمى -ولم أكن قد عرفت بعد بوجود التليفزيون- وأضعنا فرصة. كانت أمى بمفردها واستغلت الفرصة لكى ترينى بعض أجزاء من البيت. على الفور توجهنا إلى الحمام ووجدت تلك الحجرة الزرقاء ذات المرايا الكثيرة والمفاتيح التى تجلب الماء البارد والساخن حسب طلب الإنسان.
كان يمكن ملء البانيو فيصبح كالبركة التى بها ماء عذب. كان الدش يشبه الاستحمام تحت المطر الشديد. لكن الشئ الذى أثار اهتمامى بصفة خاصة كان قاعدة الحمام. كان بها ما يشير إلى الهدف منها. نظرت إلى أمى متعجبا لأن شخصا فعل تلك الفعلة فى مكان جميل

ونظيف كـهذا. مـن هذا القذر ؟ هل هى ؟ لكـن أمى ابتسـمت وقـالت " "إنهـا من أجل ذلك" " ، وضـغطت على يد حـديدية صـغيـرة. لا أدرى من أين جـاءت كل هذه الرغـاوى والموسيـقى . تدفقت ميـاه صافية ، أصبـحت كالدوامة فى عمق القاعـدة واختفت حاملة معها ما كان فى القاعدة ، وامتلأ المكان بماء نظيف ، لدرجة أن الإنسان كان بمقدوره أن يدخل يده ويشرب دون خوف. ابتسمت لأمى إزاء هذه الأعجوبة، وطلبت منها أن تسمح لى أن أقضى حاجتى هناك بسـرعة لكى أرى مـا يحدث. لا ولو بأى ثمن. كـانت القاعـدة من الصينى وكانت - حسب معلوماتها - يمكن أن تنكسر من أقل شئ ويمكن أن تذهب بى إلى الطبيب وشظية فى مؤخرتى ، وهى لم تكن مستعدة لتلك التجربة المفزعة.

الآن أصـبح كل شئ جـاهزا على المائدة ، وقـد نادت السيـدة انريكيتا على ابنها الصغـير. قالت له إن الطعام اليوم لذيذ ، ونظرت إلىّ وقالت "يوجد هنا كلب بقميص مربعات يريد أن يأكل الطعام" ، وكنت أنا أنبح. أصبح الطفـل الآن أمام الأطباق يجلس على كرسـيه الصغير الأزرق والمنقـوش على ظهره أرنب يأكل جزرة. إنه يبكى لأنه لا يريد اليوم أيضا أن يذوق الطعام. لكن عليه أن ينظر جيدا من هنا - هكذا تقول أمه - إنه ابن استيلا الذى جاء ليأكل طعام الطفل إذا لم يأكله هو. فليأكل ولا يدع لى شـيئا. ينظر الطفل إلىّ شـزرا ويقول إنه لن يترك لى أى شئ. تتحمس السيدة انريكيتا وتذهب إلى المطبخ وتعود ومعـها بوريه الفاصوليا الملون اللذيذ الذى لا أعـرف له اسما.

عندما أراه أنا أقفز فى مقعـدى وأقول إنه لى. يبدأ الطفل فى الصياح ويقول "لا" ، لأن الطعـام طعامه. تؤيده الأم على الفـور وتقول : ماذا يـظن هو؟ ومن الذى قال إن الطعـام له هذا الشقى؟ إن الطـعام للطفل ، وهذا ليس كل شئ ، بل هناك مربى باللـبن ولن تعطيها لى كذلك. لكننى أواصل التـهديد حول المائدة وأقول إننى سـآكل طعام الطفل. واحد. .اثنين. . ثلاثة ، سآكل الطعام. الطفل يبكى ، ينظر إلىّ ثم يضحك ، وفى النهاية تقتنع السيدة انريكيتا بأنه لن يأكل اليوم أيضا رغم الوقت الذى أضاعته استيلا فى إعداد الطعام. تعيد الطعام مرة أخرى إلى المطـبخ. فى المطبخ تبدأ فى السؤال عمـا إذا كان أحد قد سـمع كلبا يـنبح. الطفل يكون قد سـمع، لأن الكلب - أنا - بجواره ويمشى على أربع تحت المائدة بالقرب من كـرسيه ويقول - بين نباح ونباح و"امش" و"امش" - : أنا جـوعان وأريد أن آكل طعام الطفل. . . .كل طعام الطفل. أين هو الطعام لكى آكله ؟ تأتى السيدة انريكيتا حاملة دجـاجة ذهبية اللون يفوح منها البـخار وتحيط بها قطع الطمـاطم والخس والجزر. لون الدجـاجة هذه المرة أكـثر ذهبـية من المرات السابقـة. فى البداية تمرر السـيدة انريكيتـا الطبق عبر حـجرة الطعام وتركل الكلب بـقدمها، والكلب - أنـا - أقفز وأقفـز وأحاول بشتى السبل أن أخطف منها الدجاجة. ياللعجب! هذا الكلب جائع جدا. السيدة انريكيتا تخلع حذاءها وتضربه به. على الكلب أن يعلم أنه لا مـزاح فى أمر طعـام الطفل. لكن الكلـب ينبح ويرقص على رجل واحدة. يضحك الطفل ، ويزداد ضحكه عندما تأتى أمى بحبل

وتجعلنى أصعد على كرسى كما يحدث للأسود فى سيرك فالنسيا. تستغل السيدة انريكيتا الفرصة وتضع أمام الطفل الدجاجة المشوية وهى تتلمظ. تفسخ وركا يطقطق وتشم رائحته. تكاد تذوب من الرائحة الشهية، وتقدم الورك للطفل لكى يقضمه. الطفل لا يريد، وحينئذ تضع الورك بالقرب من أنف الكلب، والكلب يفتح فمه على آخره لكى يبتلعه، وتلمع عيناه ببريق، لكن السيدة انريكيتا تمشى فى الوقت المناسب، وتذهب مسرعة بالورك إلى الطفل وتقول له أن يأكله قبل أن يأتى هذا الكلب الشرير. الكلب -أنا- ينتهز الفرصة ويهرب ويكاد يصعد إلى مستوى المائدة لكى يخطف الطبق. وقد كنت على وشك أن أفعل ذلك حقيقة لولا أن السيدة انريكيتا دفعتنى ولولا أن ابنها ضربنى بيده، بل وسكب علىّ دورقا من الماء البارد وهو يضحك. "أرأيت، أرأيت كيف يريد هذا الكلب أن يأكل الطعام كله؟" تقول السيدة انريكيتا ذلك وهى تأخذ قطعة من صدر الدجاجة ثم تضيف: "سنرى يا كانيلو، لو أن الطفل لا يريد هذه القطعة فسأعطيها لك" كانيلو يقفز من الفرحة ويسنّ أسنانه، لكن الطفل لن يسمح بذلك بالتأكيد. يهبط ويأخذ الحبل الذى يربط الكلب، لأن ما يعجبه فعلا هو أن يسمعنى وأنا أنبح بشكل فكاهى. "ياللعجب!" تصيح السيدة انريكيتا وهى على وشك أن ينفد صبرها. على الأقل فليشرب اللبن بالمربى إذا كان لا يريد الدجاجة. يقول كانيلو فى الحال إنه يحب اللبن بالمربى وإنه سيشربه. أمى تحمل الدجاجة بعيدا وتحضر اللبن فى كوب مرسوم عليه البطة دونالد من

الخارج ، وتقلب المربى الحمراء كثيفة القوام ببطء. يواصل الكلب كانيلو - أنا - القفز والنباح ، إما على أربعة أرجل أو على رجلين أو ثلاثة. يضحك الطفل ، لكنه لا يريد أن يشرب اللبن. بعد ذلك يأتى دور الجيلاتين الأصفر الدافئ. يأتى الجيلاتين لأن الكلب سيأكله، لكن الطفل لا يريد. إن ما يريده هو أن ينزل من على الكرسى وأن يضرب كانيلو أو أن يركب على ظهره ويوخزه بالمهماز لكى يجرى بطول الصالة. يفعل الكلب ذلك وتتوقف أنفاس أمى عندما تسمع صوت القميص المربعات وهو يتفسخ. تغضب السيدة انريكيتا " ألا تريد أن تأكل؟ إذن فلن تلعب ولن تشاهد التليفزيون ولا أى شئ آخر. ستنام الآن ، فى هذه اللحظة" تنزله من على ظهرى بعنف وتحمله وهو يركل بقدميه. كانيلو يتنفس الآن بعمق. أظل على أربعة أرجل وأنا أرى أمى تحمل آخر الأطباق من على المائدة، وأراقب ما إذا كانت السيدة انريكيتا ستتأخر لحظة لكى آخذ شيئا بسرعة وأضعه فى فمى وأبتلعه دون مضغ ، لكن السيدة انريكيتا تأتى فى الحال ، وهى تكاد تبكى لأن الطفل يعاندها ولأنه سيموت إذا استمر هكذا بدون أكل. عليها أن تذهب به إلى الطبيب لكى يكتب له شيئا من الدواء. عندما ترانى تقول: "ها قد رأيت يا بنى بنفسك أنه حتى بحكاية الكلب لا يريد أن يأكل ، مع أن هذه الحكاية كانت تجدى قبل ذلك. يمكنك أن تنصرف إذا شئت. شكرا". ترافقنى أمى حتى الباب. هناك تنظر إلى القطع الذى حدث فى القميص لكى تقدّر حجمه وما إذا كان له علاج ، وتقول لى إنها

بعد غسيل الأوانى -إذا كان لديها وقت- ستأتى إلى البيت ومعها بعض القهوة لجدتى ، وعلىّ أنا أن أكون مؤدبا وألا أتشاجر وألا أذهب بعيدا مع الأطفال الآخرين وألا أتشاجر معهم ، وعلىّ أن أقدّر كم أصبحت جدتى عجوزا وألا أرهقها دون ضرورة. تنظر مرة أخرى إلى القطع الذى فى القميص وتقبّلنى.

أحيانا لا يكون المطر المتساقط كمية قليلة. إن السماء تمطر وترعد كما لو أن الدنيا لا تفعل شيئا آخر سوى ذلك ، ثم تهب الرياح. والبيت لا يدرى إلى أى جهة يميل. ويحدث كما لو أن هناك نسوة كثيرات ترتدين الأحذية والملابس البيضاء يرقصن فوق السقف. لو أن الإنسان سدّ أذنيه ثم فتحهما لسمع صوت الماء وهو يقول "واو. . .واو". عندما تبدأ الشمس فى المغيب ويمتلئ الهواء برائحة الأرض تتنبأ جدتى بما إذا كانت العاصفة ستكون قوية. حينئذ تخرج إلى الفناء وهى تشير بعلامة الصليب بيديها وتقول "أقطعك بالسكين لا بخنجر ، أقطعك بالمذبح المقدس". كم من العواصف أوقفتها جدتى بهذه الطريقة!

إذا لم تفعل الجدة ذلك فإننى وأخواتى نجلس على الكراسى وأقدامنا مرفوعة فى الهواء ، لا نحمل فى أيدينا أى مقص ولا نتحادث ، وكلما يضئ البرق تقول جدتى بسرعة: "باسم القديسة باربارا ليحمنا الله". فى بعض الأحيان تكون ومضات البرق متلاحقة بسرعة لا تمكّن الإنسان من أن يدعو القديسة باربارا ، غير أننى أقول

ذلك حتى لا تسقط الصواعق على رؤوسنا. أمـا عدا هذا الجانب فإن البرق يعجبنى لأنه يجعلنى أرى جدتى وهى تصلى ثم لا أرى شيئا ، أرى أخواتى وهن جـالسات على نفس الكرسى ثم لا أرى شيـئا. إن ذلك كما لو أننى أفتح عينىّ ثم أغمضهما.

تقول جدتى : "إذا طقطق السقف فاذهبوا أنتم الثلاثة بسرعة إلى بيت فيلاميدا فهو أكثر أمنا" ، ثم يمتلئ فناء البيت بماء المطر.

ذهبت جـدتى إلـى مكان الزير وشـربت مـاءً ثم جـلست على الكرسى. عـدت وأخواتى إلى الجلوس فـوق المنضدة ، وكـان البرق والرعد يريدان أن يحطما السقف. قالت جدتى:

- أنا لا أعرف ما هى هافانا يا إليا ولا يهمنى أن أعرف. إننى لم أخرج قـط من هذه المحافظة ولم أذهب حـتى إلى سانتـا كلارا ، لكن استـيلا ساذجة ويمكن لأى شـخص أن يخدعها. إنهـا لا تعرف كـيف تدافع عن نفـسهـا. كـيف لى أن أهدأ وأنا أعلم أنهـا بعيـدة ووحيدة؟

- أنا هناك يا عمتى وأعرف هافانا من أولها لآخرها ، أعرف ما هو حسن ومـا هو سئ. بالإضافة إلى ذلك فإن السـيدة التى أريد أن تعـمل استـيلا عندها هى أطيب وأنبل سـيدة فى العـالم. إنهـا امرأة وحيدة. ليس هناك رجال.

- إن بإمكان أى شخص أن يخدع استـيلا ، وهى قد فشلت فى حياتها الزوجية. لم تكن لها تجارب أخرى لأنى كنت دائما أساندها.

- إن هذه المرأة طيبة لدرجة أنها عندما كلمتها فى أن تعمل استيلا عندها وافقت دون أن تعرف من هى ، وقد ظلت شهرا دون أن يعمل عندها أحد انتظارا لاستيلا. ماذا أقول لها عندما أقابلها؟ يجب أن أرد عليها. بالإضافة إلى ذلك -أكرر- فإننى هناك يا عمتى وسأحافظ على استيلا كأخت. أليست ابنة عمتى؟

- لا تندفعى يا إليا. لقد تربيت أنت بطريقة مختلفة. لك طريقتك الخاصة فى التفكير ، ودائما كنت بعيدة عن أسرتك. منذ كم سنة وأنت تعيشين فى هافانا وحيدة ؟ استيلا شئ آخر. استيلا ساذجة.

- دعى هذه البنت تتقدم يا عمتى. إنهم هنا يقتلونها. إنها شابة، والمرتب خمسة وأربعون بيسو صافية ، دون مشقة تقريبا. هذا العرض لا يرفضه أحد حتى لو كان مجنونا ، فما بالكم أنتم والوضع الذى أنتم عليه؟

- لا ، فأنا أيضا أكاد أكون عمياء. ثم كيف ستتركنى ؟ وإذا وصلت الحرب إلى هذه المدينة ، ماذا سأفعل للأولاد ؟

فى تلك اللحظة جاءت كارمن تريسا وهى تبكى بدموع حارة. جلست على كرسى وهى لا تقوى على الحديث.

- ماذا حدث يا امرأة؟

- لقد شاهدوا زوجى مع امرأة شقراء. آه ، أريد أن أموت

- أهلا ، هل هذا بيت القابلة؟

ردت أخواتى

- لا يا سيدتى. جدتى ليست قـابلة. ادخلى واجلسى فستأتى هى حالا.

قالت جدتى :

- بعد لحظة سيبدأ المطر

ثم ذهبت لتجلس. ذهبت وأخوتى إلى الحجرة الأخرى.

- آه نعم . لهذا فأنا خجولة. لـقد أتيت لأن صديقة لى قالت إنك مـاهرة وأنا أشكو من الحصـوة. منذ أربع سنوات وأنا لا أشـعر بطعم الحياة.

- العلاج هو سمك المرجان المسلوق ، ولا تأكلي بيضا ولا لحم خنزير ولا حمص ولا شيكولاتة ولا أى أكلة دسمة . إذا كانت هناك حصوة فى الكلية -رغم أننى لا أعتـقد ذلك- فتناولى شطة واشربى كل يوم قبل الإفطار كوب ماء ساخن.

- هل أتناول ذلك مع السمك المسلوق وأشرب كوب ماء ساخن؟ مع أننى اشتهى الحمص، لكن إذا كان ذلك فى مصلحتى فلا بأس. هل يجب أن أنذر شيئـا أو أوقد شموعا للـقديسين ؟ إن قديسى هو خوان بوسكو.

- هذا يساعد دائما ، بل فى بعض الأحيان يكون أهم من العلاج.

- شكرا يا سيدتى. أين وضعت الشمسية ؟ أنا أعلم أنك لا تتقاضين أجرا ، هكذا قالت صديقتى ، لكننى أحضرت -لا تعترضى- شيئا كهدية أرجو أن تقبليها.

- حسنا يا ابنتى ما دامت هدية. أشكرك.

- والآن اسمحى لى بالانصراف قبل أن يشتد المطر. علىّ أن أذهب إلى بيت أختى ، فزوجها مريض. جزاك الله خيرا يا سيدتى.
البنتان مؤدبتان ، وتشبه كل منهما الأخرى.

وصلت أمى فجأة. فتحت الباب على مصراعيه ووقفت أمامه بلا حراك . كانت عيناها تلمعان لدرجة أن البيت امتلأ بالنور. إنها تنظر إلىّ هكذا وفى يديها لفافة. قالت:

- انظر ماذا أحضرت لك !

كنا جميعا لا ننظر إلى اللفافة ، بل إلى أمى وهى جميلة عندما تبتسم.

كانت جميلة وهى تمد يديها باللفافة نحوى ، فجريت ومعى أخواتى والدجاجة الملونة ناحية أمى. ابتعدت ، انطلقت تعدو بعيدا وهى ترفع اللفافة وتضحك وتقول:

- لا ، لا. إنها للطفل وأريد أن يفتحها هو. لا تتخيل ماذا أحضرت لك. ماذا سيحدث عندما ترى ما بداخلها؟!

أصبحت اللفافة الآن فى يدى. أخواتى يستعجلننى. تذهب أمى عند الشباك وتضع ذراعها على الإطار. من هناك تراقبنى وهى تبتسم. لم يحدث أن استمرت ابتسامتها كل هذا الوقت ، ولم أر أمى قبل ذلك بلا حركة عند النافذة. فى النهاية رأيت الحذاء المكسيكى.

سألتنى أمى وهى ترفعنى بين ذراعيها وتكاد ترقص:

- هل يعجبك؟ هل يعجبك؟ ألا يعجبك كثيرا؟ ياله من حذاء جميل ويالحظك السعيد !

وضعتنى على الأرض ثم قالت :

- جرّب الحذاء. جرّبه.

لبست الحذاء. كان مرصعا بالنجوم وبالرسوم البيضاء ، وكان صوت الكعب يدق. كنت أبدو كرجل وأنا أمشى فى البيت أو عندما أقف أمام المرآة. كانت أخواتى ينظرن إلىّ من خلفى. قالت أمى:

- كنت أعرف أنه مقاسك. قلبى حدّس ذلك. والآن عندما أشترى لك القميص الأصفر ستكون رجلا تماما.

قالت أخواتى:

- أعرنا الحذاء.

ردت أمى:

- لا يا سيدتى ، إياك أن تطلبى هذا الطلب. إنه حذاؤه ، ثم إنكما بأقدامكما العريضة ستوسعانه. اخلع الحذاء الآن لكى أريه

لجـدتك. هذا الحذاء ترتديه فـى المساء وفى أيام الأحـد. لا يجب أن تجرى وأنت تلبس هذا الحذاء الجميل.

قالت جدتى وهى تقلّب الحذاء بين يديها:

- إن الحذاء يكاد يكون جديدا.

صاحت الدجاجة الملونة من فرط الإعجاب.

قالت أمى:

- هل رأيت يا أمى كم هى طيبة هذه السيدة؟

- صمتا

- لا تذهب إلى بيت السيدة انريكيتا وأنت تلبس هذا الحذاء.

دخلت السيدة كـارمن تريسا وهى تطلق آهات الحسرة. سـألتها أمى:

- ماذا بك يا امرأة ؟

- وجدت فى جـيب سـترة زوجى خطابا من حبـيبـته. أريد أن أموت.

- لا تكونى حمقاء. اهدئى وتناولى الينسون معنا. اهدئى

وضعت الحذاء فى لـفافة وحفظته فى أسـفل الصندوق. قالت أمى لجدتى:

- كنت أفكر فى أمر الذهاب إلى هافـانا الذى حدثتك عنه إليا. أريد أن أرد عليـها قبل أن تسـافر. المرتب خـمسـة وأربعون بيـسو ، وهناك سيكون لدىّ وقت للتطريز وللقيام بأعمال أخرى.

- أو للبحث عن زوج

- أمى ! خذى الينسون يا كارمن ولا تبك. أنا لا أدرى ما هى فكرتك عنى.

- لماذا يفعل ليوبولدو بى ذلك ، مع أننى أحسن معاملته ومعاملة أسرته؟ ماذا أفعل ؟ هل أتركه؟

- عليك أن تكونى ابنة بارة ولا تفكرى فى الرحيل عنى

- لن يحدث لك شئ. حتى الآن لم يحدث لك شئ. أنا لا أريد المال لكى أشترى كماليات. منذ أن بدأت العمل لم أشتر لنفسى مجرد دبوس.

- صحتى لا تتحمل رعاية الأولاد.

- أنت تعرفين أن الأولاد هادئون.

- ما رأيك فى أن أذهب وأفضح حبيبة زوجى ؟ هل سيتركنى ليوبولدو أم سيتركها هى ؟ ما رأيك ؟

- عجيبة هذه الحياة! رغم كل ما فعلت تريد ابنتى الآن أن تتركنى مع صبية يتبولون على أنفسهم. لقد كنت أنا وفيليكس نضحى. كم كافحنا ! ، والآن لا أحد يتذكر.

قالت كارمن تريسا:

- لا تبك يا أديلا إلفيرا. فكرى فى أن استيلا محقة فيما تفعل وفيما تقول لأنها تحبك. من الذى ينكر فضلك؟!

- ديوننا فى المحل لا نعرف حجمها ، حتى أننى أخجل من مجرد المرور أمام المحل ، خاصة وأن الرجل وقح جدا. أما الإيجار فعلينا قيمة شهرين وعليّ أقساط ، ثم إن أعياد الميلاد على الأبواب. منذ متى وأنا أعد الأولاد بأن هذا العام سنشترى لهم لعبا ؟ هل تظنين أن خمسة عشر بيسو تكفى ؟

- سأذهب إلى بيت أمى. عندما يأتى ليوبولدو فليأت إلى هناك وليشرح كل شئ أمام أبى. هذا ما سأفعله يا استيلا. شكرا على نصيحتك

- أنت لا تفهمين يا أمى ، ودائما تسيئين الظن بى. هذا ما كان يجب أن أفعله أولا ، أن أبحث عن زوج صالح يقوم برعايتى ورعاية أولادى.

- دعيها تسافر يا أديلا إلفيرا ، فربما استطاعت أن تحصل على مسكن تعيشون فيه كلكم.

- رجل صالح ! لم يكن هناك سوى رجل صالح واحد فى الدنيا. والآن قولى إنك لست جاحدة وأنت تتركيننى. لا ، عليّ أن أصبح ميتة أولا قبل أن تسيرى دون قيود. هذا بدلا من حب والدتك واحترامها.

- أمى، لندع الحديث عن ذلك. أنت دائما أحببت دجاجتك الملونة أكثر مما أحببتنى أنا والأولاد.

قالت امرأة:

- هل هذا بيت القابلة ؟

ردت أمى:

- نعم هنا. ادخلى واجلسى. انظرى ها هى تقف هناك.

بمجرد أن اشترت لى أمى قميصا أصفر لم أعد مجرد عضو فى فرقة الحى ، بل تحولت إلى أهم شخص ، لا فى الحى فقط بل فى الدولة كلها. ظل الأولاد الآخرون بنفس قلة الأدب يقذفون الطوب فى الشارع. كانوا يلعبون لعبة "الهنود والطيبون" أو "ردريجو والأشرار" أو كانوا يذهبون إلى آخر الشارع لمعرفة ماركة السيارات التى كانت تسير بعيدا. كنا نذهب إلى النهر بدون إذن لنستحم ، وكنا ندخل الحظائر للحصول على المانجو والجوافة.

لكن عندما اشترت لى أمى القميص الأصفر لم أعد كذلك. جاءت أمى من العمل متعبة وألقت بنفسها بكل قوتها على مقعد. كانت ستظل نائمة فى نفس المكان لولا أن أخواتى أيقظنها بفنجان قهوة ساخن وضعنه فى يدها. رأتنى أمى وأدخلت يدها فى حقيبتها وأعطتنى لفافة. قالت "هذا قميص لك" ، كما لو كان الأمر يتعلق بقميص عادى ، لكننى أدركت لحظتها أنه كان القميص الأصفر ، لأن ورق الهدايا الذى لُف به القميص كان مرسوما عليه نجوم ملونة. ذهبت إلى الحجرة الأخرى ووضعت القميص أمامى وأنا أمسكه من الأكتاف. نظرت ونظرت وأحببته. نهضت أمى من على الأريكة

وأسـرعت إلى الحجـرة وخلعت عنى مـلابسى وألبـستـنى القمـيص الأصفـر. مشّطت لـى شعرى فى لحـظة. ارتدت جونلتـها الحـمراء الواسـعـة والحذاء ذى الكعـب العالى ووضـعت زهورا فى شـعـرها وأمسكت بيدى وذهـبنا سويا إلى المحل لنسأل عن شئ غيـر موجود. شـعرت أننى أختـنق ، فـبمـجرد أن ظـهرت فى الشـارع أدار الناس وجوههم إلىّ. التـصقت بزهرة حمـراء اللون لكى يبرز لون قمـيصى الأصفر بجـوار حمرتها ، وسرت وصدرى منتـفخ وحذائى المكسيكى يدق الأرض ويدى ممسكة بيد أمى. سألت إحدى الجارات: "استيلا ، هل سترقـصين كالمرة السابقة؟". قالت أخـرى "ابنك جميل فى هذا القميص الجديد". وقال صاحب الحـانة "استيلا ، متى سأتمكن من الحديث معك لحظة ؟ لدىّ شئ هام أقوله لك". ظل الناس ينظرون إلىّ ، وكانوا إذا انـحنيت لأخذ زهرة يقـولون "هذا لكى يضعـها فى شعر أمه". كانوا يعطوننى أوراقا ملونة لكى ألقيها لأمى إذا رقصت. كانوا يقولون أيضـا "له أختان جميلتـان". توافد الناس على المحل وكانوا ينظرون إلينا. كان الجميع يترقّب لحظة أن تبدأ أمى فى الرقص أو يتوقع أن نفعل شيئا مختلفا.

كل ذلك حدث بسـبب قميـصى الأصفر ، ولـم يفطن أحد إلى ذلك حيـنئذ ، ويبدو أن قـميـصى الأصفـر كان سـببا أيضـا فى بدء حفلات السيـرك. فى أحد أيام الأحد كانت جدتى صامـتة على غير عادتها. كانت تتحسس دجاجـتها الملونة ، وكانت أمى جالسة بجوار النافذة تنظر الى الخارج ، ولم تسـتطع حينذاك أن تكمل غرزة واحدة

فى التطريز. كانت جدتى وأمى لا تتكلمان ، وكنت أدخل وأخرج من الحجرة حتى جلست فى النهاية فى أحد الأركان ولفّنى الصمت كما لفّهن. حينئذ تذكرت النخلات فى بيتى الريفى وفكرت "ماذا يفعلن الآن؟ وماذا يفعل الآن المدق الصغير الذى كان يؤدى إلى حيث البئر ؟ ماذا حدث للأعشاب ولشجيرات الخروع؟ كم أصبح طولها الآن؟". وبدأ يصل إلى مسامعى ذلك الصوت الذى كانت تحدثه الرياح عندما كانت تصطدم بأوراقها ، والضوء الذى كان فى الحديقة. وعندما أفقت فى الحجررة - وكنت أفكر فى السحابة الحمراء وفى صخب الفراشات التى كانت تطاردنى عندما كنت أعدو والزهور فى يدى- ارتديت قميصى الأصفر دون أن أنتبه وعدت، إلى الصالة. فى تلك اللحظة صاحت أمى وجدتى فى صوت واحد وقالتا:

- لقد مرّ عام الآن. من يصدق؟!

دهبا لشرب الماء واصطدم الكوبان عندما أرادت كل منهما وضع كوبها فى الزير. بعد ذلك جلستا وظلتا تفكران أكثر من ذى قبل حتى سألت أمى وهى تحدّق النظر:

- أمى ، كيف كانت الخدعة التى كان هو يعملها لكى يخرج أوراق الكوتشينة من أذن شخص؟ ألم يقل لك؟

ابتسمت جدتى.

- وماذا عن الخدعة الأخرى التى كان يخمّن بها اللون الذى يفكر فيه شخص ما أو ورقة الكوتشينة التى يعنيها؟ هل تتذكرين

البيض الذى كان يوقفه على طرفه؟ أو ذلك الكيس الأسود الذى كان يخـــرج منه مناديل ومـناديل إلى مـا لا نـهـاية؟ أين ذلـك الكيس والكوتشينة؟ لابد أنهم هنا. أتخيل كما لو أننى أراه يعمل عقدة فى الحبـل ثم يفك العقـدة بنفخـة. هل تتذكـرين ذلك ، والكرات التى كانت تختفى من أمام ناظريك؟

- إننى أحتفظ بكل ذلك.

- صحيح؟

قالت لى أمى:

- لماذا لا تبحث عن هذه الأشـياء. لابد أن نجـربها ذات ليلة. هذه الأشياء كانت تسلى حقيقة، ونحن ، متى سعدنا؟ يمكن أن نبيع عصير ليمون وموز. ألا تفعل ذلك يا بنى؟

وهكذا بدأنا حـفلات السيـرك وتحولت أنا من شـخص مهم فى الحى إلى شخص مهم جـدا. بدأ الناس يلقّبوننى ب"الفنان" أو "ابن المرأة التى ترقص" أو "مروّض الأسود". عندمـا كانت النساء ترانى أسير كن ينادين أولادهن ويشرنّ إلىّ:

- انظروا انظروا ، هذا هو مـهرّج المسـاء ، الساحـر الذى هجم على الأســد. هل هناك حـفلـة هذه الليلة. يجب أن تـكون هناك حفلة.

طبعاً ، فقد كنت أرتدى القميص الأصفر. بدون القميص الأصفر لا أحد يحفل بى. لا يقولون إننى الفنان ، ولم أكن أجيد لعب السيرك بدون القميص الأصفر. أما وأنا أرتديه فكان صدرى يمتلئ رغما عنى ، وكان الجميع يعرف أن أنا هو أنا. لقد استهلكت أمى بكرة خيط كاملة لكى تضع عروات جديدة للقميص.

كانت النسوة يطبخن مبكرا لكى يفزن بالمقاعد الأولى ، ولم يكن الرجال يمكثون فى المقهى طويلا ، وكان الأطفال يسارعون بالاستحمام إذا ما دعوا من أول مرة. فى الساعة السابعة يبقى الجميع على أهبة الاستعداد مرتدين أفضل الثياب وشعره ممشط ، بحيث أننا عندما كنا نفتح باب الفناء كان الناس يدخلون بمنتهى السرعة ، وبعد لحظة لا يكون هناك مكان شاغر فى السيرك إلا كرسى الجدة المحجوز لها. لهذا ، بعد أسبوعين من بدء السيرك، قالت أمى إنها تعود من العمل مرهقة وإنها ليست طفلا لكى تلعب وتمثّل كل ليلة. انتظرت النساء ثلاثة أيام ، وبعدها جمعن عجائز الحى وأجبرنهن على الذهاب إلى أمى وهن يحملن الهدايا لكى يتحدثن معها. قالت النسوة العجائز لأمى إن السيرك لابد أن يستمر ؛ فالأطفال الصغار الآن لا يريدون النوم ، والرجال قد فقدوا شهيتهم للطعام ، والمرضى ساءت صحتهم، والسيدة فيلاميدا المسكينة لم تعد تفكر إلا فى ابنها الثائر ، وهن أنفسهن ، وقد أرهقت أعصابهن أنباء الحرب ، لا يجدن شيئا يتسلين به فعدن إلى التفكير فى مشكلة كل شهر. تفضلى هذه الهدايا وحلة الأرز هذه. لم تجب أمى ، لكنها بحثت عن قميصى الأصفر

أمامهن ووضعته فى طبق الغسيل. فى ذلك اليوم جففته بالمكواة ، وفى الليل استأنفنا حفلات السيرك.

كانت حفلة السيرك هكذا:

يفتح الستار وأظهر أنا بقميصى الأصفر وشارب أسود وأنا أبتسم. أخواتى يطبّلن على علب صفيح فارغة ، والناس يصفقون ويطلقون نيرانا صناعية ويصيحون ويلقون بالأزهار فى منتصف الحلقة. كان الجو يضاء وأظل أنا طوال الوقت أبتسم وأنتظر أن يهدأ الجمهور ويجلس.

أنا (بالشارب ، فى نفس الوقت الذى تنطفئ فيه النيران الصناعية): والآن ، سيداتى بلا سادتى ، أعظم سيرك على مرّ العصووور يبدأ حفلاته الليلة. لا تدعوا الفرصة تفووووت ، فهذه آخر حفلة فى هذا الحى ولن تكون لديكم فرصة لكى تروا حفلة مشابهة. إذا لم تستطع الحضور اليوووم تعال غدا. ادخلوا يا سادتى ، وشاهدوا المرأة التى ترقص ، الأسد الذى يزأر ، لاعبى أكروبات فى الحلبة ، بهلوانات ، راقصات ، حيوانات ، آلاف المغريات. ادخلووووا ، هيا!!!!.

إنها سخافات من عندى ، لأن كل الحى قد دخل بالفعل. تطفأ الأنوار وتضاء. يسدل الستار ثم يرفع ، وأظهر أنا مرة أخرى كما لو كنت شخصا آخر وأقوم بتقديم الفقرة الأولى.

أنا: (كمـا لو كنت شخصـا آخر) والآن أقدم لحـضراتكم أعظم راقصة فى العالم. . . . أمى

تُطفأ الأنوار ويتهـامس الجمهور. فجـأة تطبل أخواتى على علب الصـفيح وتضـاء الحلبة وتصل الراقـصة شـامخة وشـاحبـة. تسلط الأضواء على أمى بحذائها الأخضر وقبعتها الواسعة وردائها القرمزى. تدوى القاعة بالتصفيق عندما يراها الجـمهور. تتقدم هى حتى مركز الدائرة. تتساقط الزهور من شـعرها. ترفع جبهتها. يرى جـسمها وهى تمر. يقف الجمهور ويصفق ويصيح بأعلى صوته.

الجمهور: إيييييه إيييييه

يجب أن أخرج أنا بقميصى الأصفـر وأن أخاطب الجميع بكلمة "جمهورنا المحترم". يجب أن أقول لهم إننا ننتظر منهم تصرفا لائقا حتى تتمكن الراقصة -التى ستسافر هذه الليلة إلى إسبانيا - من تقديم فنها المتميز.

الجمهور: كفى كلاما. فلترقص الراقصة ، لترقص أو أعيدوا لنا نصف قيمة التذكرة.

تبدأ أمى فى الرقص. تـدق الأرض بقدميـها وتلفّ الرداء على كتفـها بمهارة. الجمـهور لا يقاوم. ألقى أنا بأوراق شـجر الخروع فى أرجاء الحلبة. تقـفز أمى فوق بعض الأوراق فتمـزقها. تتناول الدف وتترك الرداء يسـقط من على كتفهـا. الجمهور لا يقـاوم ، ويصاحب خطوات أمى بالتصفـيق. حينئذ ترقص بكل حماس فتـتساقط أوراق الكوتشينة من أكمامها ، وتخرج من صدرها حمامة تطير.

في النهاية تنسحب شيئا فشيئا وسط تصفيق الجمهور وهى ترسل القبلات وتقـول وداعا. التصفيق يستـمر فيتعين عليهـا أن تخرج مرة أخرى وترقص قليلا وتلقى بزهور شعـرها إلى الجمهور وتدق الأرض بقدمها وتخاطب الجمهور قائلة "جمهورى العزيز".

بينما تعد كارولا - مصففة الشعر - أمي للفقرة التالية أخرج أنا إلى الجمـهور ، وأخواتى يعزفن الموسـيقى ويضئن الأنوار ويطفـئنها. أقوم أنا ببعض الحركات البهلوانية حتى تظهر أمى وقد غيرت ملابسها وتسـريحتـها. نحـيى الجمـهـور فى جمـيع الاتجاهات ونبـدأ فقـرة الأكروبات. من قـفزة واحـدة أقع على كتف أمى (تصـفيق). أقف على كتفهـا(تصفيق) وأبدأ الرقص. هى تجرى (صيـحات وتصفيق). سرعـتها تتـزايد. تتوقف فـجأة وتعود إلـى الجرى وأنا فوق رأسـها مرتكزا على قدم واحدة. أحيى الجمـهور الذى يظل صامتا يدعو الله لى فى سره. فـجأة أرتفع وأدور دورة فى الهـواء بقمـيصى الأصـفر وأسقط -سلـيما مـعافى- فى وسط الحلبـة (تصفيـق وضحكات ، ويلقى إلىّ بالأوراق وأوراق الشجر وعلب السجـائر الفارغة. أضواء وموسيقى)

بعـد هذا الفـاصل تأتى لحظة الغناء. المطـربة هى أمى. تلتف بملاءة ملونة ، وتسريـحة شعرها وقـورة. تقف خلف نوافذ جـميلة تنتظر الرجل الذى تحـبه وهى تدخن. الرجل الذى تحـبـه لم يتأخـر كثـيرا. ظهـر بشارب وقـبعة وسلسـلة فى يده. كنت ألفّ السلسلة

وألفّها كـما لو كنت زوج ماريا تريسـا. أمي وأنا مخطوبان ، لكنني غيـور وأثير الغيـرة. أنظر إلى النساء التي تمرّ. أمـي تعاني ولا تدري ماذا تفـعل لاستعادتي. إنهـا لا تستطيع الحياة بدوني وتغني ملـتاعة. يتأثّر الجمهور في الحـال ، وعندما تطلب منهم أن يشاركوها في الغناء - لعلّي ألين - يستجيبون لها.

الجمهور: (اليّ بنظرات مستجدية وهو يغني) أحبها كثيرا يا حبها الجميل. كن لها محبا وهي ستحبك.

لكن أبدا. أنا لا ألين ، وأمي على وشك البكاء بينما تطلب من الناس بيديها أن يغنّوا بصوت مرتفع ، بإحساس.

الجمهـور: (إليّ بصوت مرتفع وبإحساس) عـندما يحب الإنسان حقيقة -كما تحبك هي- من المستحيل أن يعيش بعيدا عن حبيبه.

عندمـا يرى الناس التـعـالي الذي أعامـل به أمي ، الناس الذين يعرفـون تفاصيل حيـاتها داخل وخارج السـيرك -غدا سيـقطعون عنّا التيار الكهربائي إذا لم نكمل المبلغ من حفلـة اليوم- فإنهم لا يفهمون كـيف تسـتـطيع هي تحـمّل كل هذه الآلام. تـقـول لهم أمي "لأن الأحزان كثـيرة ، فعندما يريد حزن ما أن يخـنقني فإنه يصطدم بحزن آخر وتتصارع الأحزان وأنجو أنا".

تنتهي الأغنيات عندمـا نكون جميعا قـد بحّت أصواتنا ، وبينما تتولى كارولا تجهيزي ترقص أمي وتبيع عصير الليمون. تعود ، وقد

تصببت عرقا ، لكى تستعد مرة أخرى. تقول لها الخياطة "آه يا استيلا ، أريد أن أحيك بنفس المهارة التى ترقصين بها. لا أدرى كيف تستطيعين الرقص هكذا" . ترد أمى وهى تريها بعض الحركات "ذلك لأن الرقص يعجبنى جدا يا كارولا. لست متزوجة ، ولذلك أرقص وحدى مع الطفل برقّة ، برقّة" .

نخرج مرة أخرى (تصفيق وتصفيق). أضع منضدة فوق منضدة، وعيناى معصوبتان (الجمهور: آه ، يمكن أن يقع الطفل ، يمكن أن يقع. فلينزلوه من هناك). أبدأ فى الرقص وأنا فوق ، أكاد ألتصق بالسقف. (الجمهور: يا أبانا الذى فى السماء تقدّست). فجأة تطفأ الأنوار وتنهار المناضد وتحدث ضوضاء. (الناس: أضيئوا المكان بالله عليكم ، ألا تسمعون ما يحدث؟) تضاء الأنوار ونظهر أنا وأمى على كرسى والدم يسيل منّا. يحدث صمت مطبق. الناس وقوف لا يتنفسون ، بعضهم يختنق. وفجأة:

أنا وأمى : آه ، آه يا طفلى الجميل ، غنّ ولا تبك.

أقول "هيا ، هيا" ونبدأ فى الغناء والرقص ونحن نصفق.

بعد ذلك يأتى المهرجون: أمى تمثّل دور ترمبولكو ، وأمثّل أنا دور ثاباتيكو. أو تمثّل أمى دور كاتشوتشا وأمثل أنا دور رامون. الناس يعجبها البهلوانات والساحر الذى يأتى بعد ذلك ويخرج الحمام من التمثال ويخرج البيض من جيبه ومن جيبى ، ويتنبأ بالألوان التى

تفكر فيها جدتى وأخواتى ، هذا غير الأعاجيب التى يفعلها باستخدام أوراق الكوتشينة. لعبة واحدة فقط هى التى لا يجيدها وهى نفخ العقد فى الحبل ، وتسقط الزهور من قبعته. بعد أن تنتهى الفقرة تقوم أخواتى وكارولا بمساعدة أمى فى تغيير ملابسها. مقطوعة موسيقية تسلّى الجمهور ، العزف جيد لدرجة أن أخواتى ينظرن ويعدن مبتهجات:

- أمى ، من هم هؤلاء المطربون؟ إننا نراهم مجاملين ونريد أن نتعرف عليهم.

- هل أنتن حمقاوات ؟ إنه أخوكما وهو متنكر ، ومعه أولاد الشارع.

يأتى الآن أكثر ما يعجب الجمهور. تطفأ الأنوار لفترة طويلة ، وعندما يضاء المكان يظهر الأسد. الأسد أشقر وقوى. رأسه فيها أزهار حمراء وصفراء. الأسد له ثلاثة أرجل قوية ، أما الرابعة فهى رجل أمى بحذائها الأخضر. يبدو الأسد عابسا فوق صندوق ، وأنا على الأرض فاقد الوعى لأننى مررت وأنا سكران غير منتبه فتزحلقت على قشرة موز. الآن أنا نائم تماما فاقد الوعى فى وسط الحلبة.

الجمهور: استيقظ ، استيقظ. سيأكلك الأسد ، سيأكلك. ألا ترى أن الأسد سيأكلك؟

أنا لا أستيقظ ، بل أصدر شخـيرا عاليا. إننى نائم تماما. لذلك فإن السُكْر شئ سيئ جدا.

الجمهور: أيها الأسد اخرج ، اخرج من هنا ، اخرج.

ينظر الأسد إليهـم بكراهية ويتقدم وهو يتحـسس بأنفه. إنه منذ ثلاثة أيام لم يتناول طعاما.

الأسد: أممممم. كم كنت أتمنى أن أعثر على طفل نائم!

عندما يرانى يقـول "أمممـمم. . . .ماذا أرى! يالهذا القـميص الأصفر الجميل ! إذا لم تستيقظ سآكلك " .

أنا ( أسـستـيـقظ بهـدوء وأنا أتثـاءب): تأكل من ؟ تأكلنى ؟ يالحماقتك ! أنا لا يأكلنى أحد أيها النمر.

الأسد : صحيح ؟ سترى الآن ! قف عندك.

هذا بالضـبط ما لا أفعله: الوقـوف ، بل آخذ كـرسيـا وسوطا وأدخل على الأسد وأنا أضربه لكى ألـقنه درسا. لا يتعلم ، بل يزأر ويظل يهددنى بأن يأكلنى حـيا. الجمهور يطلب مـنى أن أضربه بشدة وأنا أستجـيب والأسد يزأر. فى إحدى الضربات يأخـذ منى السوط ويرتمى فوقى بقـميصى الأصفـر ونتقلّب فى الحلبة. الناس يصـيحون ويكاد يغمى عليهم من الفزع.

الأسد: طعمه لذيذ. ألا أجد ملحا عند أحد منكم؟

موسيقى وأضواء تطفأ وتضاء ، ويبدأ الدم يسيل منى. عندما يرى الجمهور هذا المنظر يتوقف عن الصياح وينطلق إلى الحلبة. يسحبون الأسد من ذيله ومن شعر رأسه ويحاصرونه وهم متحفزون. لا يقتلونه لأننى أصرخ. جدتى وأخواتى وكارولا يقولون اتركوا الأسد ، اتركوه، إنها أمى متنكرة ، والولد لم يحدث له شئ، لم يجرح. أمى تنزع عنها أدوات التنكر وهى مرعوبة شيئا ما. يصبح شعرها أسودا مرة أخرى. تقول " أنا ، أنا" يهدأ الناس، ويستغل أخواتى الفرصة ليطلبن من الناس ألا يناموا قبل أن يشتروا منهم الحلوى وعصير الليمون. هناك من يشترى ثلاثة أكواب من العصير. على أية حال يظل الناس ينظرون شزرا الى أمى ، ويتعين عليها أن تقول لهم اسمها واسمى واسم القرية وما هو حاصل ضرب اثنين فى اثنين. هكذا فقط يعود الناس إلى أماكنهم ويشترون مزيدا من عصير الليمون.

بعد ذلك يحين موعد الفقرة الاستثنائية. ذات مرة كانت الفقرة الاستثنائية هى فقرة الدجاجة الملونة. أعددنا لها عشا فى وسط الحلبة على منصة وأطفأنا الأنوار ولم نترك سوى لمبة واحدة. جلسنا فى صمت. أطلت الدجاجة الملونة برأسها على استحياء. نظرت فى جميع الاتجاهات ، وعندما اعتقدت أنها بمفردها صعدت على المنصة. جلست على العش ووضعت بيضة كبيرة بصفارين استقرت على

طرفها. عندئـذ أضيئت الأنوار وبدأ الناس يصفقـون بحرارة ، بشكل لم يحدث من قبل. انزعجت الدجاجـة الملونة وجرت لتختبئ خلف الستائر. لكن التـصفيق كان حارًا ومـستمرًا لدرجة أنهـا شيئا فشـيئا أطلت برأسها وهى تشك أن كل هذا التصفيق لها هى. لكن التصفيق كان لها هى بالفعل ، فاحمـرّ وجهها ونظرت إلى جدتى وهى مرتبكة تصطدم إحدى رجليها بالأخرى. خـرجت من مخبأها وسارت حتى منتصف الحلبة حيث حياها الجـمهور وحياها وهى تنصرف. لم يكن الجـمهـور يرغب فى أن تنصرف الدجـاجة أبدا ، فـتصـاعدت حـدة التصفيق ثم جاءت الهتافـات بعد ذلك. كانت الدجاجة مرتبكة تماما فتوقفت. لم تكن تعرف ماذا تفعل ، كانت تنظر فى كل الاتجاهات. كان كل الناس واقـفين يحدّقون فيهـا بأبصارهم وهم يصفـقون لها. حتى جدتى ! فجأة -كما لو كان ممثلة قديرة- صعدت بثقة إلى العش ووضعت بيضة اسـتقرت فوق البيضة الأولـى. التصفيق المدوى الذى حدث بعد ذلك لم تكن الدجاجة تتوقعه. لهذا كانت ترتجف ، وكان العرق يتسـاقط من جبهتهـا. صعدت فوق البيـضة العليا ونظرت إلى الجمهور والدموع فى عينيها. أفردت جناحيها ورفعت إحدى رجليها. أخواتى أحضرن محلولا طبيا يستعمله الناس بعد انتهائهم من التصفيق وبودرة تلك لنفس الغرض.

حينئذ أعلنّا عن انتهاء الفـقرة. خرجنا -كل الفنانين- إلى الحلبة وقدمنا أغنية الوداع وأعلنّا عن حفل الغد الذى يتضمن فقرات مختلفة عن فقرات اليوم. انصرف الناس مسـرورين وهم يتحادثون. بعضهم

بقى لكى يلتقط أوراقا ملونة أو منديل الساحر أو زهرة أو أى شئ آخر كتذكار. عندما انصرف الجميع انصرفنا نحن أيضا ، وفى البيت -بينما كانت أخـواتى يدلكن لأمى ذراعيهـا ورجليها- كانت جـدتى تحصى النقـود ، حصيـلة بيع المشروبات ، وكـانت تتسـاءل هل تكفى لدفع نذرها للقديسة لوثيـا أم أنها ستفقد بصرها تمامـا. بعد ذلك نمنا بقية الليل.

أيقظنا الجيران مبكرا لكى يقدموا لنا التهانى. فى البداية لم تكن حفـلات السيرك تقدم كل ليلة ، وكنـا نقدم الحفلات فى بيـتنا. بعد ذلك كنا نقدم الحفلات كل يوم وفى الشارع أو فى أحياء أخرى ، فقد كانت هناك شائعـات عن اقتراب الحرب ، وكانت المتعـة الوحيدة أمام الناس هى رؤيتـنا ونحن نرقص ونغنى. ولهـــذا عندمـا أخـرج إلى الشارع بقـميصـى الأصفر يصـيح الناس من خلفى ويتشـاجرون لكى يتمكن كل منهم من رؤيتى. إنه القميص الذى يعجبنى أكثر.

- أديلا إلفيرا ، أديلا إلفيرا ، تعالـى بسرعة. استيلا تبكى فى بيت الضابط ويريدون أن يودعوها السجن ، فقد سرق منهم مبلغ.

ردت جدتى وماريبيل وكارمن تريسا وفيلا:

- ماذا تقولين يا امرأة ؟ هل جننتِ؟

انخرطت أخواتى فى البكاء.

- نعم ، نعم. إن السيدة انريكيتا تتهمها.

أسرعـنا إلى بيت الضابط لكى نرى مـاذا يحدث لأمى. كـانت جدتى تتقدمنا ولم تصطدم بشئ.

قالت السـيدة انريكيتـا لأمى التى كانت تبكى وهى جـالسة على كرسى وتخفى رأسها بيديها:

- أنت سارقة. وضعت أمس بيـسو فوق الدولاب وأنت أخذته. لم يختف البيسو من تلقاء نفـسه. أنت سارقة ، وكل الفقراء الجوعى متساوون فى ذلك.

وصلت جدتى وقالت:

- ما هذا "الهباب" الذى يحدث هنا لابنتى؟

- اسمعى أيتها السيدة ، فى بيتى هذا وأمام أولادى لا تستطيعين التفوّه بكلمات غير مهذبة. انصرفى ، اخرجى من هنا.

- هذا "هباب".

- آه .

- انصرفى من هنا واذهبى إلى المنزل!

- لا تستطيع أن تنصرف من هنا .

- قلت لك اذهبى إلى المنزل .

- عندما يأتى زوجى . . . . .

قال أحد أبناء السيدة انريكيتا وهو يشير إلىّ:

- انظرى. إنه يلبس حذائى المكسيكى

- وقد سرقتِ الحذاء المكسيكى أيضا!

قالت لى جدتى:

- اخلع الحذاء وألقه على رأسها

استدارت جدتى وانصرفنا جميعا مع أمى وهى منتحبة.

عندما وصلنا إلى المـنزل أعدّت لنا فيـلاميدا الينســون لكى تهدأ أعصابنا. قالت جدتى:

- لقد فعلتِها

قالت أمى وهى تبكى:

- أنا لم أسرق شيئا ، والحذاء كان فى علبة ستلقى فى القمامة.

- كيف دفعتِ نذر القديسة لوثيا؟

قالت ماريبيل:

- لو أنها سرقت فنعمت السرقة. إنهم يستغلونها.

قالت إليا:

- الآن بالفعل من الأفضل أن تسافر معي إلى هافانا .

- لماذا لا تنشقّ الأرض وتبتلعنا ؟!

## ( ٣ )

متى ستدق الساعة؟ ماذا سيحدث لى الآن فى هافانا؟ يا رب! لابد أن يحدث لى أمر طيب هذه المرة. هذه المرة لابد أن يحدث لى أمر طيب لأول مرة فى حياتى. لا أدرى كم من الوقت مرّ علىّ وأنا مستيقظة ، عصبية ، أنتظر أن تدق الساعة. الساعة ستدق فى الخامسة ، وفى السادسة علىّ أن أكون فى المحطة لأستقل القطار إلى هافانا. أسمع الآن صوت أسنان الطفل. لابد أن عنده تسوس. متى سأصل إلى هافانا؟ وماذا تكون هافانا تلك؟ يا رب أجلس بجوار الشباك حتى أرى المدن والقرى وأعرف الدنيا. يقولون إن المدة سبع ساعات. إذن فالمسافة بعيدة. فى أعماق نفسى أرى ضوءا صغيرا. لدىّ إحساس خاص بأن شيئا جميلا ينتظرنى فى هافانا. لكن لا يجب أن أفكر فى ذلك ، لأن الشخص إذا تخيل أن هذا الشيء الجميل سيحدث فإنه لا يحدث أبدا. أنا مجربة ومتأكدة. لم يخطئ من يقول إن خطط الفقراء مجرد أوهام. لن أفكر فى شئ. يا لهذا الحوار الداخلي! لقد أذهب عنى النوم. إنه القلق بالتأكيد ، وأنا عصبية جدا. لا يفارقنى الشعور بأن شيئا ما سيحدث لى. ما هو؟ عموما أنا مسرورة لأننى سرقت البيسو من بيت السيدة إنريكيتا ولضرورة أن أسافر إلى هافانا. ألم تتهمنى هى بسرقة علبة المربى؟ البيسو أخذته فعلا. يا رب أنت تعلم الخوف الذى شعرتُ به ، لأننى لست لصة. وماذا أفعل لو سُجنت؟ لكننى لم أفكر أبدا أنها ستنتبه لذلك ، فهى كثيرة المال وأنا محتاجة للمال لكى أدفع نذر القديسة لوثيا وإيصال

الكهرباء. كان البيسو مهملا فوق الثلاجة لمدة أسبوع. إن الشراء بالتقسيط هو أسوأ شئ فى الدنيا. كان يجب أن أحكى لها عن قلة حياء الضابط لكى تعرف ممن تزوجت "هل تعرفين حضرتك لماذا يطلب منى كثيرا أن أحضر له القهوة فى المكتب؟ لكى يحاول أن يلمسنى ويستغلنى، لأنه يعرف أننى لا أستطيع أن أعمل فضيحة وأخسر الوظيفة". الناس الأغنياء على خطأ. إنهم يعتقدون أن الإنسان الفقير عليه أن يتحمل ويتحمل. أنا لا. فى كل مرة كنت أعد المائدة كان الضابط يلمس ركبتى أمام امرأته وأولاده، لأننى لم أكن أستطيع الدفاع عن نفسى. لهذا انسكبت منى الشوربة. خسارة أنها لم تحرقه. عموما ما حدث حدث، والآن سأذهب إلى هافانا فى وظيفة جيدة. منذ أن حضرت إليا وقالت إن لديها وظيفة لى فى هافانا وأن الأمر هناك مختلف ظننت دائما أن هذه هى فرصة عمرى. بعد ذلك فقدت الأمل لأن أمى أصرت على عدم سفرى، لكن ها أنت ترى: المكتوب مكتوب، كما لو أن موضوع البيسو حدث منى عن عمد. الآن يجب أن يحدث لى أمر طيب. إذا لم يحدث ذلك فسأموت دون أن أكون قد عشت. هناك أحيان أتمنى فيها أن يحدث إعصار أو فيضان أو شئ يقتلنا جميعا أنا والأولاد. أو أتمنى لو أنهم غير موجودين، لا هم ولا أمى، لو أننى وحيدة فى الدنيا بلا أقارب، دون أحد أكون مسئولة عنه. كنت سأتحرر وأفعل ما يروق لى دون أن يحاسبنى أحد. أنا لم يتركنى أحد أشعر بالسعادة. كنت سأحقق ذاتى. كنت سأسعد، كنت سأشترى لى فستانا أو اثنين. لم أكن سأقضى عمرى فى الكد وكسب لقمة العيش دون أن ألبس حتى قرطا صغيرا. أى ذنب ارتكبته أنا حتى يُكتب علىّ أن أعيش هذه

الحياة وأن أعمل كخادمة دائمـا؟ يا رب سامحنى ، أنا مذنبة. اسمع ما أفكر فيه ، لكن تفهّم لماذا أغضب أحـيانا. مثلا لماذا لا أجد زوجا صالحا كأية امرأة أخرى وأسعد معه؟ انظر مثلا إلى ملابس إليا نفسها، هذا الفستان الذى أهدتنى إياه ، كم هو جميل! لو أن الدنيا استدارت وفى يوم أصبـحت أنا غنية وجاءت السيـدة إنريكيتا تعمل خـادمة فى بيـتى لأنهـا أفلست فلن أقـتصّ منهـا ، لأن قلبـى لا يطاوعنى. أنا ساذجة بالفـطرة ، لكن عندما تنظف البيت سأمـرر قطعة القطن على أرضيـة البيت دون أن أقـول شيـئا ، فـقط لكى تتذكـر . القمـيص الداخلى الجديد لـم أنسه. وضعـته فى أحد أركـان حقيـبة الملابس. يجب أن أحافظ على هذه الحقيبـة جيدا ، لأنها لو تمزقت لما استطعت دفع ثمنها. الخـيط والإبرة والزراير لم أنسهـا. إذا لم يحدث لى شئ هام فى هافـانا يغيّر حـياتى فـماذا أسـتطيع أن أنتظر لى وللأولاد فى المستقبل؟ لا شئ. سأمكث هناك سنة أعـمل فيها لأن أمى عجوز فى الحقيـقة ولا تستطيع أن تربى أولادا مـهما كانوا مؤدبـين ، هذا أعرفه جيـدا. تحدثت مع المدرس لكى يدخل ابنى المدرسة فى العـام القادم. الإنسـان لا يمكن أن يفعل أكـثر من هذا. من المهم أن يتـعلم ، فـهو ولد، أما البنات فسوف يتزوجن من رجـال طيبين يحبونهن ، وأنا لن أتدخل فى شـئونهن أبدا. سمـعت حكايات عن أطباء وأطـباء أسنان كانت أمهاتهم فقيرات لكنهن ضـحين كثيرا وأولادهن اجتهدوا. وهم أطفال كبار كانوا يبيعـون الصحف أو يعملون فى محلات فى الصباح ويذاكرون فى الليل ، وأصبحوا أطباء لديهم سيارات ومشهورين ، بل وعالجوا أمهاتهم من أمـراض تستعصى على العلاج. الولد ذكى لكنه متـبلد بعض الشيئ ونحيف قليـلا . من يدرس يجب أن يأكل لأنه إذا

لم يأكل تلمع جدران مخه ويصبح مـجنونا. سأرسل له محلول اليود من هافانا ، ولابد أن يتناول كل يوم صفار البـيض حتى لو لم يعجبه طعمه. أمي لابد أن تتحسن صحتها. الساعة لا تدق ، لا تدق. ماذا إذا كانت السـاعة تعطلت وفاتني القطار؟ فيـلاميدا تقول إن السـاعة بحالة جيـدة. معجون الأسنان وحافظة النقـود وصورة العذراء ، كل هذا احـتـفظت به. يالكثـرة الـفئـران هذه الـليلة ! ، وأمي لا تحب القطط. آه لو تزوجني رجل طيب يعولـني! آه أيتها الحمـقاء ، لقد فكرت في هذا الموضوع . إذن لـن يحدث. كنت أعلم أنك ستـقعين في الفخ. لكن لن أفكر ثانية فـي هذا الموضوع وربما يمنحني الله هذه النعمة. يا رب يحدث ، يا رب. هكذا تنتهي مشاكلي. أحيانا أحب أن أعد طعامـا لشخص ما ، أن أعتني برجل ، أن أعـدّ له ملابسه ، أتأبط ذراعه لكي يراني الناس ومعي رجل فيحترموني. كلما تقدم لي خاطب تتـحول أمي إلى وحش كاسـر. أتساءل لماذا لا تسـتطيع امرأة مثلـي أن تتزوج؟ لماذا يتعـين عليّ أن أظل أقاسي طوال عـمري؟ أي شخص يمكن أن يحـدث له شئ عارض، إحباط. إنني أحب كـثيرا. الحب هو أعظم شئ. لم أنس صورة أبي لتكبيـرها. وماذا إذا تزوجت في هافانا؟ أعـود متأبطة ذراع زوجي وشـعري مستـرسل لكي أغيظ السيدة إنريكيـتا. لكن دقي يا ساعة ، فمـنذ ساعة وأنا أفكر وأفكر ، وقد مللت وأنت لـست هنا. لو أنني أردت لكنت تـزوجت مرة ثانية. كان يمكن أن أتزوج أنطونيو. كانت حياتي ستختلف. أنطونيو المسكين ذهب إلى الحـرب. يمكن أن يحـدث له أي شئ. هـناك أهوال في الحـرب. الشئ الوحيـد الذي يمكن أن يسـاعـدني في هذه الحيـاة هو

رجل، لكى يصبح أولادى شيئا فى الدنيا ولكى أسعد أنا أيضا. لا أرى أى شئ آخر يمكن أن يحدث. أو معجزة من الله، أن يرعانى الله، أن يرعانا ويستجيب لدعائى، لكن كيف؟ إن الذين يدعون كثيرون. لكن جائز. يمكن مثلا أن أجد يوما ما ديكا ذهبيا داخل إحدى المعلبات أو أن أفوز بجائزة اليانصيب أو أن أكون فى الشارع وأجد مظروفا به نقود كثيرة سقط من شخص كان قد سرقه. لا أود أن يكون المظروف قد ضاع من عامل مسكين. لو حدث ذلك سأشترى بيتا به حمام وماء، سأشترى ملابس وصينى وسألحق الأولاد بالمدرسة وسأشترى لهم الزى المدرسى وأحذية، سأتنفس. لابد أن أفرغ الحقيبة لكى أعرف ماذا نسيت. الفستان الحمالات، فستان الشغل، الجونلة الحمراء والجونلة التى أهدتها إلىّ إليا، الحذاء والبلوزات، كل هذا موجود، ومقص الأظافر. يجب أن أقص أظافرى. من هنا إلى هافانا يجب أن أنام. وكيف عايدة هذه؟ إليا تقول أنها طيبة جدا، لكن يجب أن أراها. خوفى كله من المطبخ، لكن إذا طلبت منى طبخ شئ لا أعرفه أقول لها " "كيف تطبخينه حضرتك؟ أنا لا أريد إعداد الأكلة بطريقة مختلفة فلا تعجبك" " عندها ستشرح لى هى طريقة الطهى وأنا أتعلم دون أن أسأل بشكل مباشر. يجب أن أكون مفتوحة العينين فى هافانا. يا رب أقدر على عمل شئ يجعل أمى تمضى سنواتها الأخيرة فى سلام، على الأقل فى هدوء. أشترى سريرا لها وحدها وأشترى لها جهاز راديو لأن المسلسلات مسلية جدا، ويحزننى أن أراها تلصق أذنيها فى الحائط لكى تسمع راديو جارتنا فيلاميدا. يجب أن تأكل أمى من حين لآخر لحما مفروما، لا أن

تقتطع من أكلـها لكى يشبع الأولاد ، فـهؤلاء لا يشبـعون. ثم إننى مشغـولة بالبنتين ، فقد أصبحـتا الآن فتاتين. يجب أن أفتح أعـينهما حتى لا يخدعهـما أحد. إذا حدث شئ سيتصل خالى أناسـتاسيو بى وبإليا. معه العنوان. لكن لن يحدث أى مكروه ، فالحرب فى الشرق وفى كاماجواى وإذا لم يتدخل الإنسان فى شئ فلا يهم. نحن ، فى أى شئ سنتدخل؟ معى مـيدالية العذراء وستحـمينى. قلقى كله على أنطونيو ، فـعلى أى حال أنا لا أتمنى له السـوء بأى شكل ، بل على العكس وربنا يعلم. أخيرا دقت الساعة ، أخيراً.

"لم تقـولى لى إنه عيـد ميـلادك" . بدلا من أن أركز وأكـتب الرسـالة لأمي والأولاد كانت جـملة عايدة هذه هى التى فى ذاكـرتى وكل هذه القصة الجميلة تسعدنى وتجـعل إحساسى مختلفا. لا تسعنى الحجرة من فـرط السعادة. أرى عايدة -والمظروف الأصـفر فى يدها- وهى تقول لى ذلك. "وكـيف عرفت حضرتك؟" "وصلت برقـية من بلدكم تقول: خالص التهانى بمناسبة عيد ميلادك" "لابد أنها من الأولاد. أرينى" "يجب أن نحتـفل بالمناسبة على أعلى مـستوى" . لم أكن طوال حياتـى فى هذا القدر من السعادة التى شـعرت بها فى هافـانا فى يوم الأحـد فى تلك الـليلة. والآن لا أسـتطيع حـتى أن أكتب. أخاف. كان يجب أن أنهض وأكتب الرسالة. يجب أن تفهم أمى هذه السعادة ومعناها بالنسبة لنا. يبدو أنها خيال. أريد أن أبكى، عندما لـم يعد لدىّ أمل. إيفارسـتو سـيعجب أمـى. لابد أن يحدث ذلك. عندمـا ترى كم هو جاد وطيب ومسئول وعندمـا تعرف نيـته تجاهى. يجب أن أشرح لها ذلك جيدا فى الرسالة. ستقتنع. "اذهبى لشـراء ثلاث دجاجـات ونبيـذ ، ففى يوم الأحـد سأدعـو إيفارسـتو وأجسـتين -وهو صـديق لى تراهنت معـه على شئ- لحضـور عيـد مـيلادك" . عـايدة هائلة. لو أننى أسـتطيع أن أنام ولا أفكر! لكن هذا شئ جميل حـتى فى تذكره. لكن الأمر السئ هو أننى سـأشعر بالنوم غدا. لو أننى استطعت كتابة الرسالة على الأقل! لكن هكذا، بهذا الشـعور ، لا أستطيع. أعـتقد أن معـدتى سترفض الطعـام مرة أخرى. يجب أن أتـعوّد على هذا الشعـور. "الدجاج مطهى بـطريقة رائعة. من الذى أعدّ الطعام؟" كان إيفـارستو يضع بارفان فى تلك

الليلة ، وكان ينظر إليّ باستمرار. لاحظت ذلك. لو أننى تعلمت شيئا من عايدة ، فهذا الشئ هو الطهى. سأشكر لها ذلك ما حييت. "أنت عندك استعداد طبيعى للطهى ، وبما أن كل شئ موجود هنا فستعدين وجبات ممتازة. من الآن فصاعدا سنعد طعام الولائم بأنفسنا". عايدة امرأة مرحة فعلا ، تعرف كيف تستمتع بحياتها. هى رقيقة وطيبة. إننى لسعيدة الحظ لأننى تقابلت معها ، لا مع امرأة أخرى. صحيح أن لها تصرفات لا أرضى عنها ، لكن كل النساء يجب أن يكنّ هكذا. "يا فلاحة ، لك قوام كنت أتمنى لو أن لى مثله. افتحى عينيك. كم كنت سأفعل أنا بقوام وشعر كهذين!". كذب! ، فما تملكه هى شخصيا هى الأناقة والجمال ، ثم إنها تعرف كيف تتزين. يداها تثيران الإعجاب ، فما تنفقه هى على أظافرها وشعرها يكفى لإطعام أى أسرة لمدة أسبوع. لكن الجميل فيها ليس المكياج ، فحتى لو كانت مستيقظة لتوها فهى جميلة أيضا. لا يعيبها إلا أن عجزها نازل قليلا. انظر فيم أفكر. سبحان الله! ما هذه الأشياء التى أتذكرها بدلا من أن أنام ، فغدا يجب أن أقوم بتنظيف البيت كله. فى تلك الليلة كنت رائعة وأنا أرتدى ذلك الفستان الأبيض. العيب الوحيد هو أنه كان ضيقا عند الصدر لأن صدرى كبير. عايدة تعيش حياتها ، لكنها لا تضمر شرا لأحد. إنها تستمتع بحياتها على طريقتها ولا تتدخل فى شئون الناس. لا أحد يستطيع أن ينتقدها. هذه الحفلات التى تقيمها أيام السبت للصديقات والرجال مجرد ابتذال. دائما هناك رجل يمضى معها الليلة. كل مرة رجل مختلف. فى بعض الأحيان يأتون بها فى آخر الليل ويبقون. هذا

ليس شيئا طيبا ، لكننى لا يجب أن أتدخل فى شئ. شأنى هو أن أعمل وأدّخر نقودا. رجال فى غاية الأناقة وسياراتهم فارهة وأصغر منها سنا. ذلك الرجل ذو القميص الأحمر والشعر الأسود كان رائعا، لابد أنه فنان. هى لا تتأثر لذلك. فى الفجر تقول لى "معى رجل فى الحجرة" . فى البداية كان يؤسفنى أنها تعترف. تحضر لهم القهوة وتجلسهم فى حجرة الطعام لتناول الإفطار وتجبرهم على حلق ذقنهم قبل الإنصراف ، لأنها لا يعجبها الرجل الذى يهمل نفسه، ولا يعجبنى أنا أيضا. لو أن أمى تعلم كيف تعيش عايدة لاستدعتنى منذ أول يوم. لكن هذه الأمور لا تؤثر فى الشخص إذا كان هو لا يريد ، وأنا لا أريد. لو أنها تعلم بأمر إليا! خطيبها من أصل زنجى. ربما كان لطيفا ، وربما كان يحبها ، لكن أصله زنجى. خالى أناستاسيو لا يعرف ذلك. فى أول ليلة شعرت بضوضاء الحفلة -أتذكر ذلك- . نزلت لكى أرى ما الخبر. نعم ، لأننى لم أكن أعرف ما تلك الضوضاء. وقفت أنظر من خلف الفاترينة. كان الرجال يراقصون النساء على ضوء خافت وهم ملتصقون. حينئذ لم أدر كيف أنصرف، كنت أرتعد. وانطبقت السماء على الأرض علىّ عندما سمعت صوت عايدة وهى تقول "ماذا تفعلين وأنت مختبئة هكذا يا امرأة؟" "من هذه؟ تعالى شاركينا الشراب" "أنا لا أشرب يا سيدى. شكرا. بعد إذنك يا سيدتى ، سأصعد فى الحال. سامحينى. سمعت الضوضاء ، ولأننى لم أكن أعرف ، نزلت لأرى ما الخبر. إن الضوضاء أيقظتنى" "حسنا ، لا تنصرفى ، تعالى وارقصى. تذكرى أنك إنسانة أيضا" هكذا قالت. "بهذه الأسمال؟" نعم ، لأننى

كنت بملابس النوم. ياللضحكات! وكانوا سكـارى. "ما العلاقة بين الأسمال والرقص؟" "فلترقص مع. . .إيفارستو" "إيفارستو، تعال هنا. ما رأيك في هذه الـفلاحة كـرفيقـة في الرقص؟" "هل تعرف كيف تدق الأرض بقـدميك في الرقص يا إيفـارستـو؟" "ربما كانت تجيد الرقص. إن الفـلاحات تتفوقن أحيـانا". لماذا يفطن أهل هافانا على الفور إلى أن الإنسـانة التي أمامهم فلاحـة؟ "هل توافقين على الرقص معي يا آنسة؟" "آنسة؟ وهل الفلاحة يقال لها آنسة؟". في الحال أعجبني إيفارستو. بمجـرد أن رأيته أحسست بشئ يؤلم معدتي. لكن ماذا كنت أظن؟ لقـد تصرفت بعصبيـة. يقول هو إن أحدا لم يشعر بعصـبيتي. كانت تلك هي المرة الأولى التي أحادث فـيها أحدا طيب الملبس وعلى هذا الـنحو من الأناقـة، ببـذلة كاملة. يقـول إن أحدا لـم يشعر بـأنني كنت مرتبكة. "أنا لا أرقص. شكرا" "هـيا وافقيهم فهم سكارى ولن يتركونا في حـالنا" قال إيفارستو ذلك كما لو كان هو نفسه غير ثمل. "الأمر هو أنني لا أرقص" "قبل أي شئ هيا نتناول كأسا. ماذا تشربين؟" "أنا؟ لا شئ. أو مجرد مرطب. أنا لا أشرب الخمر" "اشـربي" "استيلا، خذي كأس الشـمبانيا هذا. جربيه وارقـصي على الموسيقى التي سأضـعها خصـيصا لك" "هل اسمها استيلا ؟" كم كان إيفـارستو مهذبا معي! "إنه اسم جميل" "مـا هذا المشـروب يا سـيدتي ؟" "إنـه مشـروب". أمـام الناس أخاطب عايدة بكلمـة "سيدتي"، وهذا الاحترام من جانبي أعـجبها كثـيرا. الإنسان يـجب أن ينزل الناس منازلهم، أن يحتـرم الآخرين عندما يكون الاحـترام واجبا. "هيـا، هيا إلى الرقص". لن أنسى

تلك الليلة مطلقا. إن مجرد تذكرها يملؤنى سعادة ، ويجعلنى أشعر كما لو أننى أعيشها مرة أخرى. إن كل ما حدث منذ تلك الليلة كانت بدايته هنا. كل شئ جميل وأنا مطمئنة إلى من حولى. يبدو لى أننى سأبكى فى النهاية ، لأننى لا أعرف مثل هذه الأمور. "إيفارستو ، لا تتعد حدودك فهى خادمتى" "يا لرقصها أيها السادة ، يا لرقصها" "هذا هو الرقص فعلا. لا أحد هنا يجيد الرقص" "انظروا إلى هذه الفلاحة". شرائط الموسيقى أعجوبة. إنها تعمل بالكهرباء ، وهذه أعجوبة أخرى. تأملوا اختراعات الإنسان. "لقد وجدت ضالتك يا إيفارستو". كانت ليلة رائعة. كم استمتعنا! كنت أرقص ولا أجرؤ على النظر إلى إيفارستو ، وكنت أشم رائحته. لقد سخروا منى طوال الليل ، لكننى استمتعت ، ولم يسخروا منى لأنهم أشرار بطبعهم ، بل لأنهم كانوا سكارى وكانوا من أهل هافانا. عندما تأخر الليل انتحى كل زوجين فى جانب وكانوا فى الحقيقة يرتكبون أفعالا ، ومنهم من انصرف. خرجت أنا وإيفارستو نتمشى. لم يفارقنى طوال الليل. آه يا إيفارستو لو كنت هنا الآن تتذكر معى ونضحك سويا على كل ذلك! هل ستأتى غدا ؟ منذ أربعة أيام وأنت لا تأتى. يخيل إلىّ أنه عام كامل. "لم أتجول أبدا تحت هذا الشجر" "إنه جميل". كانت الساعة هى الرابعة صباحا وجلسنا على حافة الرصيف فى البرد لنتحادث. لاحظت أنه ينظر إلىّ بطريقة مريبة ، لكنه احترمنى جدا ، ولم أكن أنظر إليه مباشرة. كان شئ ما يجذبنى إليه. كنت أتحسر وكنت أريد ألا يفطن هو إلى ذلك. كان رجلا مجهولا بالنسبة لى ثم إنه كان من هافانا. من كان يدرينى أنه رجل طيب؟ "هل تعرف إليا

ابنة خالى ؟ إنها صديقة للسيدة عايدة. إنها هى التى رشحتنى للعمل وهى التى أحضرتنى إلى هنا لأننى من الريف ، من محافظة بعيدة ، لاس فياس. سبع ساعات بالقطار. وحضرتك ، ما اسمك ؟" "إيفارستو . لقد ظللت تنادينني بهذا الاسم طوال الليل" "آه ، نعم. هذا صحيح. كم أنا ساذجة ! إن سيدتى دائما تتحدث عن حضرتك" . هذا كذب من جهتى. "لكن يا إلهى ، كيف أتحدث. سامحنى. هذه الزغطة سببها أننى لم أحضر حفلة كهذه أبدا ، وغدا علىّ أن أعمل ، علىّ أن أقوم بتنظيف البيت. يا لحالة الصالة! الآن ستختفى الزغطة. إننى أحب سيدتى جدا. هى طيبة ومتسامحة. أنا ريفية. حضرتك صديقها منذ زمن طويل. هل قلت لى ذلك ؟ إليا ابنة خالى صديقتها أيضا ، وهى التى رشحتنى للعمل لأننى من لاس فياس ، هل تعلم ؟ لكن كيف أتحدث ! ويا للصداع. أعتقد أننى بى رغبة فى التقيؤ. إنها الشبان التى قدمتها لى سيدتى" "اسمها شامبانيا" "هل تعتقد حضرتك أن الشبان هى السبب ؟ يا إلهى! لم أشرب الخمر فى حياتى قط. ذات مرة شربت بيرة ولم تؤثر فىّ. والدى المسكين هو الذى كان يشرب. كم عانينا من جّراء ذلك ! لقد أحضرت صورة لتكبيرها هنا. آه يا سيدى أحلف لك أننى غير ثملة. أحلف أننى لست ثملة بالفعل. أنا امرأة مهذبة ، سيدة بيتى ولدىّ ثلاثة أولاد أقوم برعايتهم. هل حضرتك تشرب كثيرا ؟ أين تسكن ؟ ما هى وظيفتك ؟ حضرتك لا تقول لى شيئا. كم أنت صامت ! ما اسمك ؟" يا إلهى ! كنت أشعر بدوار. لعل إيفارستو يضحك منى الآن. يقول إننى كنت أتصرف كبقرة خائفة أو كببغاء

صغـير. "لكن لا تبك يا استـيلا ، لا تبك ولا تكونى سـاذجة. إن الخمر هى التى سببت لك الأذى. بعد قليل ستشفين. ارفعى رأسك، عرّضـى وجهك للهـواء. هل تحسنت الآن ؟ هل تريدين أن أحـملك إلى الداخل لتتقيئى ؟" "اعذرنى" "تعالى نشرب ماءً. هيا نرى هل بقى شئ من القهوة وستشفين. لا تبك .تقيئى." "إن كل شئ يدور أمامى. احملنى إلى داخل البيت. أعـتقد أننى ثملة. هل أنا ثملة؟ لا تستـغل هذا الوضع من فضلك. أرجـو منك ذلك واستـحلفك بقدرة الله العظمى. لدىّ ثلاثة أولاد ،وأمى عميـاء تقريبا ، ولا أستطيع أن أفقـد هذه الوظيفـة. حضـرتك من هافانا ، لكن لا تكـن شريرا" . تنتابنى رغـبة فى البكاء وأنا أتذكر كل ذلك وكـيف تصرف إيفارسـتو بشكل طيب وكم يـجب أن أحبـه. شـخص آخـر كـان سـيسـتـغل الظروف. . إنه يستحق أى شئ يطلبـه وأنا أثق فيه. لا يجب أن أفكر أكـثر. يجب أن أنـام بعض الوقت. حالتـى واحدة إذا ضـحكت أو بكيت. لو أننى استيقظت من البداية لكنت انتهيت من كتابة الرسالة. كيف حال أمى وأولادى؟ كيف سيستقبلون هذا الخبر؟ كان يجب أن أكتـب الرسالة يوم الإثنين ، لكن ذهنى لم يفـرغ أبدا. هل سيـحب أولادى إيفارستو كأب ، أم أنهم الآن كـبار ؟ عليهم أن يطيعوه. هل الحرب هناك شـديدة ؟ يقال أن الثـوار بدأوا فى الاستيـلاء على قرى لاس فياس. احمنا يا رب ، أنعمت علىّ فـأتمم نعمتك. كانت الدنيا ظلام فى الشارع تحت الشجر وفى حديقة المنزل. الحديقة الجميلة بهذه النافورة التى على هيئة طفل يتبول. "اسمع ، ما هذا؟ هل رآنا أحد؟ لكننا لم نكن نفعل شيئا سيئا ، أليس صـحيحا ؟" كان صبيان زنجيان

يعدوان. ماذا كانا يفعلان فى تلك الساعة ؟ هل كانا يريدان السرقة ؟ مسكينان! هذا بدلا من أن تكون لـهما أم ينامان بجـوارها. أنا أخشى زنوج هافانا. "لا تخافى يا استيلا. كانا زنجيين وانصرفا مسرعين مثل كلب سكب وعـاء" بعـد ذلك ضحـكنا على هذين الزنجـيين اللذين انصرفـا مسـرعين مثل كلب سكب وعـاء ، لأن الكلب الذى يسكب وعـاء ينصرف مـسـرعا هكذا كـالزنجـيين. أفكر فى نفس الشئ. لا أستطيع التوقف. دعنى. فى ذلك اليوم استـيقظت فى الثانية عشرة ، وكانت عايدة قد أعدّت لى الغـداء ، أى حدث العكس. يا للحسرة! "عايدة ، لا تفـعلى بى ما حدث فى الـليلة الماضية" "ومـاذا فعلت بك يا امرأة؟ لا تقولـى إن ذلك لم يعجبك. لقد رقصـت واستوليت على إيفـارسـتـو وملكتـه وحـدك. أنا راهنت" "لا تقـولى ذلك يا عـايدة. أنا لست معـتادة عـلى ذلك. ما هو ذلك الرهان ؟" "أمـر يخـصنى. أنتم فى الريف لا تستـمتـعون بحـياتكم. من المؤكـد أنك تزوجت من أول رجل قـابلك وولدت له طفلين" "ليسـو طفلين بل ثلاثة" "هذا يؤكد ما أقول. السعادة فى الحـياة هى المتعة التى تحملها الإنسانة معـها إلى القبر. ليس هناك شئ آخر. أنا سأنتـحر فى اليوم الذى أفقد فيه قدرتى على الاستمتاع" "يا إلهى! لا تقولى ذلك ولو من باب المزاح" "أعدّى طعاما جيـدا لغداء يوم الأحد القادم. سوف أدعو كلا من إيفارستو وأجستين بمناسبة عيد ميلادك رغم أنه قد فات. عليك أن تستغلى الفـرصة. اشترى بيرة وجمبـرى ومشروب النعناع" "وماذا أرتدى لهذه المناسبة ؟ علىَّ أن أفـصّل فستانا ، لكنى لا أريد أن أسرف ، أم هل يكفينى فستانى ؟" "لا. تعالى هنا. هل يعجبك

هذا القماش؟" "إنه رائع" "خـياطتى ستفصّل لك فـستانا" "لكن كيف سأدفع ثمنه يا عايدة ؟ مـا ثمن القماش ؟" "من فضلك. من الذى تحدث عن النقـود ؟ ما يجب أن تفـعليه هو أن تتصـرفى كالمرة السابقة" . ذهبنا فى ذلك اليـوم إلى الخياطة. كانت عجـوزا سمينة، واستـقبلت عايدة بـحنان بالغ. تركت كل الزبائن وجاءت تهـتم بها. أرى أن هذا نفاق. استقبلتها بكلمـة يا حبيبيى أنا لست آلة ، أنت لا تراعين ظروفى ، مـستـحيل أن يكون الفـستـان جاهزا يوم الأحـد يا حبيبى ، لكن سـأحاول من أجلك ولا تتركينى يا حبيـبيى. خياطات هافانا ماكرات. يأخذن كل ما يمكن أخذه. لو أن الفـستان فصّلته فيلا أو كارولا لعملت من القماش الذى يفيض "روب" للبنات. المهم ، لم تتم الدعـوة يوم الأحـد ، واضـطررت إلى إلقـاء الجـمـبـرى فى القمامة. كلمـا ألقيت طعاما فى القمامـة يصيبنى المرض ، وعايدة لا تريد أن أعطى الطعـام لأى فقيـر. تقول إنهم هكذا سـيأتون كل يوم يطلبون. لم يأت إيفارستو إلى البيت ولم يتصل تليفونيا. فى كل مرة يدق جرس التليفون كنت أجـرى لأعرف ما إذا كان هو الذى يتصل. لكنه لم يتصل. وكـيف كان سيـتصل إذا كان قد سـافر إلى بينار ديل ريو ولم أكن أعـرف؟ كنت أقول لنفـسى "يا لك من ساذجـة ! هل تظنين أن هذا الرجل يمكن أن يفكر فيك ؟ فى اليوم التالى لم يتذكر، مجرد التذكر. لو أنه أراد لجـاء أو لاتصل تليفونيا. لا تتوهمى. أنت مجـرد خادمـة. فلاحـة ميـتة من الفـقر ، وهو رجل من هافـانا ذو مركز" . أخـذت أفقد الأمل لأننى صدمت عدة مـرات فى حياتى. يوم الجمـعة كنت أظن أنه بقـى يومان لكى أراه ، لكن عـايدة جاءت

ومعهـا شخص يتحدث لغـة إسبانية غـريبة وشعره أصـفر. جاءا فى الفجـر ثملين. استمـرت عايدة تحمـمه ساعات بضـحكات أيقظتنى. كانت الجلبة مـسموعة فى نصف أنحاء هافانا. خـرج الرجل وجسمه ملئ بالصابون بينما كنت أعد الإفطار ، وتوقف فى المطبخ وشرب لبنا باردا وهوعار تماما . لم يغير من تصرفه عندما رآنى. قال لى "صباح الخير" ، لكن صـوته كان مبحوحـا. لا أدرى فى أى دولة يتكلمون هكذا ، هل فى ألمانيا أو فـى بلد آخر. ثم ظهرت عـايدة وهى عارية أيضا ومعها فوطة ألقتها عليه. هذا لا يعجبنى إطلاقا. قلة الحياء هذه أمـام الناس دون داع. عندما جلس الرجـل يتناول الإفطار كان عـاريا أيضا ، وشممت رائحته الكريهة رغم استحمامه. كان من ألمانيا أو من بولندا ، وكان بحـارا. مكث أسبوعا ، وعندما انصـرف بكت عايدة وحـزنت. كـانت تلك أول مـرة أراها تبكى على رجل. يبـدو أنهـا أحبته. ياالأعاجيـب الدنيا ! من بين كل هؤلاء الرجال الذين تعرفهم عايدة لا يعـجبهـا إلا ذلك الدميم. لماذا لم تحب الرجل ذا القـميص الأحمـر والشعر الأسود ؟ لم تفـارق حجرتهـا لمدة يومين. فى اليوم التالى ظهرت فى المطبخ وهى متزينة لتخفى تجـاعيد وجهها وقالت لى "تذكـرى أن غدا مـوعد دعـوة الغداء التى حـدثتك عنها. سـأتصل بإيفارستو وأجـستين وسأمرّ على الخياطة" . أنا كـنت قد فقدت الأمل ولم أعرف بعد ذلك شيئا عن إيفارستو. فرحت لأننى كنت قلقة على عايدة المرحة التى لم تعد تفارق حجرتها. آه يا إيفارستو ، هنا رأيتك للمرة الثـانية. هل تتذكـر ؟ جئت بالقمـيص الأزرق ولم تتوقف عن النظر إلىّ. أعـجـبنى حـينذاك شـاربك ولم يكن الرجل ذو الشـارب

يعجبنى. عـايدة تصرفت بطريقة رائعة ، وقدموا لى الهـدايا الجميلة.
لم أفتح علبة الحلوى التى قدمها لى أجستين ، لكى أحملها معى إلى الأولاد ، لأن الحلوى فى علبتهـا لا تفسد. أما البـارفان الذى أهديته لى أنت فلن ينـفد أبـدا. ما أحـزننى هـو أن أمى والأولاد لم يكونوا معى ، لأن الطعـام كان شهـيا. كانت هناك أصناف غـريبة. بكيت. " لماذا تبكى؟ " " الفلاحـات ساذجات " " ماذا تريد يا أجـستين؟ أنا متأثرة. لم أشعر بالسعادة فى حياتى إلى هذه الدرجة أبدا. لم أحتفل أبدا بعيد ميلادى. الحـقيقة يا إيفارستو ، الحقـيقة يا أجستين ، إنكم طيبـون " . بكيت لأننى تذكرت بيـتى ، لكننى لم أقل ذلك. كل هذا الطعام الذى يفيض وربما فى ذلك اليوم نام أولادى دون عشاء. " من الذى طهى الطعـام ؟ " " هى " " هـذه المرأة من ذهب. لا يجب أن تضيع منك الفـرصة يا إيفارسـتو " " هذه الألعاب لا تعـجبنى " " لا تهتم " . بعـد ذلك خرجنا أنا وأنت يا إيفـارستو إلى الشـرفة وجلسنا نشرب البيـرة ونأكل الجمبرى ونتحـدث. تحدثنا فى كل شئ ، وكنت تنظر إلىّ بطريقـة أضـاءت فىّ شعلة الأمل. كـنت أقول لنفـسى " يا ربى. لا يمكن. لا يمكن ، كل هذا الكم من السـعادة غـير معـقول " إيفارستو عمره أربعة وأربعون عاما. يكبرنى بخمسة عشر عاما ، لكن هذا لا يهم. تقول عايدة إنه كـان ملاكما ، ربما بسبب لحـمه الكثيف وذراعيه. سأسـألها عن ذلك. انصرفت هى وأجستين ، ذهبـا يلعبان الكوتشينـة فى بيت لا أدرى من ، وبقينا نحن حـتى الواحدة صبـاحا نتحدث ، وحيـدين فى الشرفة. حينئذ بدأ يحـدثنى بصوت منخفض عن أشياء يبحث عنها فى الحياة وفجأة وجدها -كلها مجتمعة ــفىّ.

فطنت إلى أننى بدأت أحبه وارتبكت، لدرجة أننى كسرت زجاجة. يحدث منى ذلك دائما. كنت مرتبكة لأننى كنت وحيدة فى البيت -عايدة لا تفكر فى عواقب ما تفعله- . لو أن شخصا قليل الحياء هو الذى كان معى ، ماذا كان يحدث ؟ لكن أبدا. كان هو ، وعندما نظرت وجدته أمسك بيدى. لم يكن يؤلمنى شئ، ولكننى كنت أفتقد أمى وأولادى ، وكنت أتصور أننى أسئ الأدب فى هافانا. نزعت يدى. الآن أضحك من كل ذلك. يا لكل هذا الفكر الذى داهمنى ! إننى أضحك وأنا بمفردى. كم هو جميل التفكير فى كل ذلك ! هذه الأشياء تجمع بين السعادة والحزن. لقد أحببت حجرتى هذه وحكيت أشياء للجدران. ليت هذه الحجرة حجرتى فعلا. كنت أريد أن أقول لإيفارستو إنه أخطأ فى تقديره لى وأننى لست واحدة من تلك النسوة اللاتى عرفهن واللاتى لا يرفضن المداعبة. كنت أريد أن أقول له أن ينصرف لأن صاحبة البيت ليست موجودة وأن يحترمنى وألا ينظر إلىّ مادام لا يعرف كيف يتعامل مع امرأة محترمة. لكن كيف أقول له كل ذلك إذا كان هو لم يتجاوز حدوده ؟ أخذ يدى بين يديه بالفعل ، لكن لم يزد عن ذلك. لم يكن بمقدورى أن أقول له شيئا إلا بعد أن جذبنى وقبلنى بالقوة ، لأننى لم أكن أريد. لقد ضربته ، ذلك المسكين. "أنا امرأة محترمة ، هل تسمع ؟ لدىّ أولاد وأسرة أرعاها. لقد أخطأت فى تقديرك لى وتريد أن تستغل وجودنا بمفردنا. لكن عليك أن تحترمنى ، فلست امرأة ممن تغازلهن ثم تنصرف" . لكننى ارتميت فى أحضانه واعتذرت له وأنا أبكى كالبلهاء. مسكين. لقد أزعجته. بدأ يلمسنى وأنا أقول له لا . لم أشأ أن أقضى معه تلك

الليلة ، فقد كان عليّ أن أحتاط للأمر. الرجال لا يريدون إلا هذا ، وأنا لن أكسب شيئا لو وافقت ، فلن يحترمنى هو أبدا بعد ذلك ، وربما كانت عايدة لا يعجبها أن أدخل فى هذه العلاقة بدون إذنها. عندما يكون الإنسان فى بيت غير بيته يجب ألا ينسى ذلك. وماذا يحدث لو أن حظى كان سيئا وحملت ؟ ماذا يحدث لو أن نيته معى لم تكن حسنة ولم يكن يريد إلا التسلى ؟ طبعا يجب أن أفكر فى كل ذلك وأن أكون حازمة. لن يحدث أبدا. إذا كان هو مهتما بى فعليه أن يواصل الإلحاح. على أى حال فقد افترقنا. ثم بعد ذلك ، ماذا فعلت يا إيفارستو ؟ بدأت تأتى بكثرة كل يوم تقريبا وتتصل بى تليفونيا. كنت أنتظرك بصبر وبأمل. لا أدرى كيف تحملت هذه الأيام التى لم تأت فيها ولم تتصل. ربما لهذا لم تكن صحتى على ما يرام وانتابنى الفكر. بعد ذلك جاء فى تلك الليلة وذهبنا إلى مكان ما مع عايدة وصديقكم. لم أكن قد رأيت هافانا جيدا. كنت قد رأيت فقط الحى الذى يقع فيه البيت يوم أن وصلت. المكان الذى رأيته عبارة عن أضواء وأضواء وإعلانات وإعلانات وإعلانات. كانت الإعلانات تطفأ وتضاء. فى هافانا هناك أضواء وإعلانات مضاءة لا تدع الإنسان يفكر فى النظر إلى نجوم السماء. ويا للزحام! لا أدرى من أين يأتى كل هؤلاء الناس وكيف تتسع البيوت لهم. هذا المكان عبارة عن كافيتريا أو كباريه وأريد أن أذهب إليه مرة أخرى مع إيفارستو. سأقول له ذلك. عليه أن يصطحبنى إلى هناك بمفردنا.

" سيرى جيدا. لو سرت بشكل طبيعى لما فطن أحد إلى أنك فلاحة " هكذا قالت عايدة فشددت قامتى. جلسنا ، وكان الندلاء

يعرفون عـايدة. كانوا أصدقاءها. قالت إنها تريد مـشروبا لا أدرى ما هو ، وقالت لهم يحضروا لى نفس المشروب. قلت نعم وإن المشروب يعجبنى جدا ، وضحكنا. أسـفت على حال النادل لأنه بالتأكيد ظن أننا نسخر منه بسبب ربطة العنق التى كانت تخنقه. ذلك المسكين كان يجب عليه أن يعمل بينما يتسلى الآخرون وينادون عليه من كل ركن. الشخص الذى ورمت قدماه لا يجدى فى هذا العمل. لن أشرب أكثر لأننى فرطت فى الليلة الســابقة بسبب الشـرب. يقولون إن المرأة التى تدمن الخمر تكون أسوأ حـالا من الرجل. وأنا قد ورثت هذه الصفة. عندما كنت أنظر إلى إيفـارستو كنت أرى رأسين وأربع عـيون. كنت أضــحك ، وكنت أتحـسر. انخـرطت فى البكاء. أنـا أعالج أى أمـر بالبكاء. أشيـاء كثيـرة تمر الآن بذاكرتى. بعد ذلك رقـصنا ورقصنا ، وكـانت الموسيـقى مـؤثرة. كنا نرقص بسـرعـة ، منفصـلين أحيـانا وملتصقين أحــيانا أخرى. كان إيفارســتو يطلب منى أن أفعل ذلك لو كنت أحبه. بعد ذلك انتـحى بى جانبا ووضع وجهى بين يديه وطلب منى ذلك. أراك يا إيفارستــو وعيناى مغمضـتان كأنى أرى الآن يديك وجسدك. قلت لى "أريد أن أتزوجك" كنت أظن أنك تكذب وأنت تقول لى هذه الكلمات ، ومكثت صامـتة ، ففى تلك اللحظات كنت أتساءل عما إذا كـان يليق بى أن أكون معك فى كافيتـيريا أو كباريه ، وكنت أتذكر أولادى الذين ليس لهم فى الدنيا غيـرى. سمعتك تقول "مـا هو ردك يا استـيلا ؟ إنه عـرض بالزواج" "آه يا إيفـارستـو ، سأعـتنى بك كثيـرا ، سأغسل لك مـلابسك ، سأعدّ لك الحـمام ، سأطرز لك المناديل. سأعتنى بك كثيرا كثيرا. أنت إنسان طيب جدا ،

وأنا أرغب فى أن أعتنى بك" . "يمكنك مساعدتى فى التجارة.
عندى ورشة سيارات ، لكن تعجبنى تجارة الجلود. ستتعلمين ،
وستساعديننى فى البيع. سنحضر الأولاد وأمك" "الأولاد ثلاثة ،
لكنهم ليسوا مشاغبين. بنتان وولد" تحادثنا كثيرا وفكرنا فى المستقبل،
لكن من حين لآخر كنت تطلب منى شيئا. عندما وصلنا إلى المنزل
افترقنا ، ومثلت أنت دور من ينصرف. نامت عايدة ، ورجعت أنت.
أنا أعرف أننى لو كنت طلبت الإذن من عايدة لوافقت ، لكننى لم
أفعل ، لأن فترة تعارفنا لم يكن قد مر عليها أكثر من شهر ، وبيت
الآخرين هو بيت الآخرين. عندما حدث بيننا كل شئ ، تخيلت
أننى أنام فوق سحابة ، ولم تكن لدى قدرة على مجرد
التفكير. تولدت لدى رغبة فى أن تكون فوق صدرى أزهار ندية كثيرة،
وتذكرت أولادى وهم يعدون فى الحديقة يطاردون الفراشات ،
وتذكرت نفسى أيضا وأنا أغنى فى بيتنا الريفى كما كنت أفعل من
قبل. ذلك أننى كنت سعيدة. كنت أنت أيضا سعيد ، وكنت صامتا.
لم تكن تتحرك ، وكنت أسمع صوت السيجارة وهى تحترق. عانقتك
من جديد. يا لجرأتى ! الآن أعرف مضمون الرسالة التى يجب أن
أرسلها إلى أمى. أمى العزيزة: أنا سعيدة جدا لأن الحظ السعيد
جاءنى ، وقد ساعدنى الله. وجدت رجلا عندما تعرفينه سترين أنه
رجل طيب. يريد أن يتزوجنى. عمره أربعة وأربعون عاما ، ولديه
بيت كبير وجميل يقع فى الحى الهادئ ، بعيدا عن المرور الكثيف.
ليس عاليا. لن تضطرى إلى صعود درجات سلم كثيرة. هو يريد أن
تأتوا جميعا. قولى لى ، هل استلمت النقود التى أرسلتها لك ؟

لا تقلقى علىّ. أنا بخير ، وكل يوم أصلى وأتوسل إلى العذراء ألا تصل الحرب إلى المدينة وألا يحدث لكم مكروه. عايدة أهدت إلىّ فستانا جديدا ، ولدى هدايا للأولاد. إيفارستو -وهذا هو اسمه- رجل جاد ومحترم ، ويرسل لكم تحياته. لك عندى قطعة قماش سوداء وقصاقيص رمادية يمكن أن تعملى منها بلوزة. ها أنا قد فكرت فى مضمون الرسالة. لماذا لا أقوم وأكتبها ؟ كم الساعة الآن ؟ لا. يجب أن أنتظر إيفارستو ، فربما يريد أن يضيف شيئا. الآن لا يجب أن أفعل شيئا دون أن يعرف. غدا -أقصد اليوم ، فالساعة قد تعدت الثانية عشرة بالتأكيد- لابد أن يأتى إيفارستو. هذه الأيام الأربعة التى مرت دون أن يأتى لا أستطيع تحملها. ربما اضطر إلى السفر إلى بينار ديل ريو بسرعة كما حدث فى المرة السابقة ولهذا لم يخطرنى. لن أكون امرأة غيورة. لن أسئ الظن ، لكن ليأت بسرعة. ما يجب أن أفعله هو أن أدع القلق جانبا ، أن أهدأ ، فقد ودعنى سوء الحظ. وهكذا إما أن أنهض وأكتب الرسالة وإما أن أنام. واحدة من اثنين يا استيلا ، واحدة من اثنين ، فلا يجب أن تفقدى عقلك.

يخيل إليَّ أن هذا الرجل ليس نائما ، بل يستغل الزحام فى السيارة لكى يلتصق بى. أنا لست بلهاء. الحمد لله أن عايدة استطاعت أن تحصل لى على تذكرة مع هذا السائق صديقها ؛ لأن السائقين لا يريدون التوجه نحو الريف بسبب الحرب ، وأنا لم يكن بوسعى أن أبقى دقيقة أخرى فى البيت. يا إلهى ! كان يجب علىّ أن أشك فى الأمر ، أن أفهم أنك كنت تلعب بى. أنت لا تعاملنى بطريقة حسنة أبدا. أنا عصبية ، عصبية. هذا أفضل ، هكذا أراقب هذا الرجل. فليعرف أننى مستيقظة ، مستيقظة فلا يخطئ. الحمد لله أن معنا هذا الرجل العجوز والمرأتان. هل أوشكنا على الوصول إلى محطة لاس فياس ؟ هل سيفتشوننا مرة أخرى ؟ هل صحيح أن أحدا لا يستطيع أن ينتقل بين بلاسيتاس ولاس فياس ؟ ماذا أفعل إذا لم أستطع الوصول إلى البيت ، وأنا لا أعرف أحدا فى بلاسيتاس ؟ لدىّ رغبة فى أن أعانق أمى وأولادى ، فى أن أكون مع أسرتى. أنا أعتقد أن السيارة أسرع من القطار. والحمد لله أن الجو ليس حارا ولا باردا.

- سيدى ، سيدى ، هل حضرتك نائم ؟ لا ، فأنت تتحامل علىّ. افسح قليلا من فضلك.

نائم ! كما لو كنت أنا ساذجة ! لقد تعلمت كثيرا فى هافانا. الآن نعم قد تعلمت كل شئ. إنه يتصنع. عندما ظننت أن باب السعادة قد انفتح لى يحدث لى كل ذلك. كيف كانت ستشعر أمى لو

أننى أرسلت الرسالة ؟ الأم أم دائما. ورأيها صائب دائما. إن الشيطان يعرف كثيرا لأنه عجوز ، لا لأنه شيطان. الأمر كله سببه حظى التعيس. والآن أتساءل مرة أخرى: هل يمكن أن يحدث شئ فى الدنيا ينقذنى وينقذ أولادى ؟ إن أملى الأخير قد ضاع. ضاع إلى الأبد. لا يمكن أن يحدث شئ. ليس عندى أمل فى شئ الآن. الآن على الأقل أستطيع أن أستمتع بالهدوء. أتخيل وأتخيل ، ولا أرى حلا لوضعنا. أنا قد انتهيت. تبقى البنتان. ربما يكون حظهما أفضل من حظى. وسأفعل أنا معهما ما فعلته أمى معى: المراقبة المتواصلة ؛ لأن الإنسان لا يتعلم أبدا إلا إذا صُدم. لم يأمرنى أحد بالتسكع بهذا الشكل. الذنب ذنبى لأننى ساذجة ، فأنا أعرف تعاستى وحظى السيئ. قالت لى عايدة : "سأحفظ لك الوظيفة لمدة شهر" "اكتبى لى بمجرد وصولك وبخط واضح. لو احتجت إلى نقود قولى لى" عايدة ليست شريرة. هى لا تعرف الحياة الحقيقية. أعرفها أنا التى لم أفارق الريف. هى تعتقد أنه يمكن اللعب بأى شئ للتسلية. أنا لست حانقة عليها. لا أعتقد أنها فعلت ما فعلت بدافع الشر. طوال الليلة الماضية وأنا أفكر فيه ، ككل ليلة ، وأنا أتساءل لماذا لم يعد وأقول إنه فى بينار ديل ريو. بينار ديل ريو ! عندما قمت لأشرب ماءً حتى أنام، هل كنت أعتقد أننى سأسمع صوته الواضح وهو فى البيت ؟ محال. هل كنت أحلم ؟ كان صوته بالفعل فى حجرة عايدة ، وكان صوتها. ماذا كان يفعل فى تلك الساعة ؟ "إيفارستو ، كفى ، لقد كسبت الرهان ، وقد دفعت لك ما أردت ، لكن الآن لا تأت إلى هنا

مرة أخرى طالما هذه البنت موجودة. دعنى أتحايل للتخلص منها. أنت لا تدرك مدى الحسـرة التى أشعر بهـا تجاهها ، فقد داعـبت الأحلام والآمال. يبدو أنك لكى تكسب الرهان قد وعدتهـا بالقصور والضياع وأنها قد صدقـتك. بالأمس قرأت علىّ رسالة كتبتـها لأمها ، وأنا لا أتحمل هذه الأمور. أنا قـد أحببتهـا كثيرا ، ولا أستـطيع أن أفعل بها ذلك. لم أكن أتخـيل أن الأمور سـتصل إلى هذا الحـد. لا تأت مرة أخرى" آه أيتها السيارة اللعينة ، إما أن تصلى ، وإما أن أنام ، وإما أن أموت. أنت لا تدركين شعورى .

## ( ٤ )

بمجرد أن سـافرت أمي إلى هـافانا تحولـت أختاى إلى آنـستين. إنهمـا تطبخان وتغـسلان وتؤنباني وتخـرجان جدتي إلـى الفناء لتشم الهواء. هما اللتان تستعيران الشئ الذى لا يوجد بالبيت ، وهما اللتان تعرفـان مقدار الملح أو الثـوم الذى يجب أن نعطيه للجـارة إذا جاءت تطلبه. إنهما تقتصدان فى استعمال الكهرباء ، وتقدمان الطعام لجدتى أولا ثم لى. لا تتشاجران الآن على غـسل الأوانى ولا تتنافسان على ارتداء الفستـان الأجمل أو على أكل قشر الأرز. لا تجتـمعان الآن مع البنات الأخريات للرقص ؛ لأن الرقص يهلك الأحـذية ، ولا تلعبان مع الأولاد الذكور. تجلـسان على باب البيت تراقـبان كل مـا يحدث وتحكيانه لجدتى كى تتسلى. تذهبان إلى الدكـان ، كما لو أنهما لا يحزنهما حجم الديون الكبير المتراكم ، وتقولان لصاحب الدكان : إن أمى ستـرسل كل النقود خلال الأسـبوع القـادم. يقول بائع اللبن : "دمهما خفيف" وأنه نعم سيصـبر مرة أخرى إلى نهاية الأسبوع. أما الذى يحصّل فـاتورة الكهرباء فـهو لا يستـمع إلى حكاية أن أمى فى هافانا ، لكن أختاى تحتفظان له بالقهوة وعندما يصل تتصنعان الظرف وتقولان إن جدتنا مريضة وأننى مريض وأننا الاثنان نستهلك كثيرا من النقـود فى الأدوية. على أى حال فـإن جدتى تنتـفض عندما تسـمع صوتهما وهما تخرجان الأكـواب المرسوم عليها زهور من سحارتها - وهى الأكواب التى أهداها إليـها جدى فى يوم زفـافهما- وتخـرجان

الأطباق التى اشترتها فى عيد الزواج الأول والطبق الصينى الكبير ، وجدتى تتركهما تغسلان زجاجة المصباح ، والزجاجة أكبر عمرا منا نحن الثلاثة مجتمعين ولا يصنع مثلها الآن لأنها من أيام زمان. فى يوم الأحد أهدت جدتى إحدى أخواتى خاتمها وهى طفلة وأهدت الأخرى قرطها ، وأوصتهما بألا تضيع منهما هذه الهدايا أبدا لأن القرط كان هدية من جدتها هى ، أما الخاتم فينتمى إلى إحدى الجدات القديمات ، ثم إن القرط والخاتم لا يزالان جديدين. أحيانا يذهبان بعد الظهر -وهما متشابكتا الأيدى- إلى بيت جدى أناستاسيو لكى يكتب لنا رسالة إلى أمى أو لكى يقرأ لنا رسالة أرسلتها أمى ، وذلك لأن حكاية أن يتركنى المدرس ألتحق بالمدرسة لم تكن صحيحة.
لا يهم أن تأتى أختاى بعد المغرب أو أن يشاهدا فاترينات المحلات لحظة ، فقد أعدّتا الطعام وأعدّتا ملابس الخروج لى وتركتاها فوق السحارة. أى شخص يسألهما عن جدتى تجيبانه "لا يا سيدى ، جدتى ليست قابلة" ويدعوانه إلى الدخول. حتى الآن تنامان فى نفس السرير ، واحدة رأسها هنا وواحدة رأسها هناك ، مثل البنت فى الكوتشينة. وعندما يصل ابن مرثيدس تضحك إحداهما كثيرا ، وإذا مرّ صبى الجزار على دراجته تتبادل أختاى الغمز فى أحد الأركان.
كبرت أختاى. ستكونان مثل أمى. بالأمس قال لهما صاحب الدكان كلاما وقحا فجاءتا إلى المنزل تبكيان ، والآن علىّ أنا أن أقوم بشراء طلباتنا. ذات مساء دخلت إلى حجرتهما فوجدتهما أمام المرآة وهما تلبسان حذاء أمى وتضعان أحمر شفاه وانفجرتا فى الضحك. فى ذلك اليوم تعلمتا إعداد أكلة جديدة: حلوى بالشيكولاتة. أختاى

تنظران إلىّ بشكل مـخـتلف. لا تريدان أن نستـحم نحن الثـلاثة فى طشت واحد كـما كنا نفعل دائمـا. أختاى لم تعدا أخـتاى. علىّ أن أجد صحبة أخرى.

ذات يوم استـيقظت أختـاى مبكرا أكثر من عـادتهما ، وشـبّكتا أيديهما وخرجتا على أطراف أصابعهمـا لشراء الخبز. أنا رأيتهما جيدا لأننى كنت مستيقظا أفكر فى أمى وفيما تفعله فى هافانا. عندما عادتا - على أطراف أصـابعهمـا أيضا- فـاجأتانى وعـيناى مفـتوحـتان. "انهض للعمل وسنقول لك شيئا : لا يمكن إقامة السيرك بعد الآن" أنا تصـرفت كمـا لو أن الكلام ليس موجـها إلىّ. كـانت نظراتهـما كنظرات الكبـار ، ولو أنهما وضـعتا زهورا على شـعرهمـا لسقطت الزهور. قالتا شيئا لجدتى بصوت خفيض فوضعت جدتى يديها على رأسها وأشارت بعـلامة الصليب كثيرا وذهبت إلى تمثال الـقديسة لوثيا وأشعلت له شـمعـة. "الآن يجب أن نستدعى اسـتيـلا. فى الظهر تمشطان شعركمـا وتذهبان إلى بيت أناستاسيو لكى يكـتب لها برقية. يا إلهى!" بعد ذلك جلسـت على كرسيهـا صامتـة تفكر ، وأخذت أختاى فى العمل بجـد وهما صامتتان ، وكانـتا تتبادلان النظرات من حين لآخر. لو أنهما فى لحظة ما ليس لديهما ما تفعلانه كانتا تذهبان وتجلسان كل واحدة منهما إلى جانب من جدتى وكانتا تساعدانها على إتمام ثلاث أو أربع تسبـيحات على مسـبحتها. كـانت جدتى ترتدى ملابس سوداء وكانتا ترتديان ملابس رمادية. تحول البيت، تدريجيا إلى نصف مظلم وامـتـلأ بهمـسـاتهن. قـررت أن أذهب وأشكوهن إلى السيـدة فيلاميـدا العجوز ، فهى أكـثر الناس وعيـا فى الحى. عندما

سمعت جدتى حركتى قالت لى "أنت قد عرفت أنه لا يمكن إقامة السيرك بعد اليوم. ابحث لك عن لعبة أخرى ، ولتبق دائما فى البيت وإما لا تلعب وتلتزم الهدوء" أوقدت العجور فيلاميدا هى الأخرى شمعة للقديسين وأمسكت هى الأخرى بمسبحتها فى يدها. الفرق بين مسبحتها ومسبحة جدتى هو أن مسبحة فيلاميدا بيضاء وكاملة العدد. أخذتنى إلى نهاية المطبخ ووضعت فى يدى قطعة خبز بالزيت ونظرت عبر النافذة والأبواب قبل أن تقول لى بصوت هامس أن أعطيها أذنى لكى أسمع ما تقول ، فليست أختاى سيئتين لكن ساعة الجد قد حانت وعلينا أن نرسل فى طلب أمى. قالت "الحرب على وشك الوصول إلى المدينة. ستصل بين لحظة وأخرى. الحرب نفسها" ألم أكن أعلم؟ نعم كنت أعلم. هذا يجب أن نقوله حتى للأطفال ، لأننا جميعا يجب أن نكون مستعدين لأسوأ الاحتمالات ، لأى شئ. علينا أن نكون مؤدبين وأن نبقى داخل البيت. إذا كنت فى الشارع أو كنت ذاهبا إلى الدكان لأشترى شيئا ورأيت شرطيا أو حارسا فعلىّ أن أتجنبه وأن أعود مسرعا إلى البيت. إنهم عصبيون لدرجة أنهم لا يتحملون أن ينظر إليهم أحد. ثم أوقدتْ شمعة أخرى للقديسين وأعطتنى قطعة أخرى من الخبز بالزيت ، مع أن القطعة الأولى كانت لا تزال فى يدى لم أذقها. "اذهب مباشرة إلى بيتكم واسمع كلام أخواتك فقد كبرن الآن" لقد كبرت أختاى بالفعل. جدتى تأمرهما بالمشى حافيتين داخل البيت وهما يحملان لوحا من الخشب. تقول إنها فعلت ذلك مع أمى وأن هذا هو السبب فى أن أمى ترقص جيدا وفى أن قوامها معتدل. تقول إنهم هكذا

فعلوا معها  هى ومع أختها وأن أحسن شئ كان يعجب جدى فيها هو طريقة مشـيها. هذا شئ رائع للنساء. عندمـا خرجت لكى أعود إلى البيت نظرت إلى الشـارع فوجدته خاويا ، ورأيت كل أبواب الـبيوت مغلـقة. لم أر حتى قـططا أو كلابا أو حـماما فـوق الأسطح. ربما خرج شخص مـا من بيته وطرق باب بيت آخر ففتـحوا له فى الحال. كانت الحركات تتم بسرعة كما لو أن أحدا لم يخرج. أنا لست متأكدا من أننى رأيت أحدا. فى إحدى هذه المرات رأيت كما لو أن مارييل خرجت من بيتها وعبـرت إلى الناحية الأخرى ودخلت إلى بيتنا. من المحتمل أن تكون هذه تخيلات من جانبى ، وقد تشكَّلت هكذا ثلاث حلقات من الناس فى آخـر الشارع. ذهبت إلى آخر الشـارع لأطمئن على عبـاد الشمس. كنت أريد التـوجه إلى بيـتنا ، لكننى ذهبت إلى مكان عـباد الشـمس ، وعندما وصلت رأيتـه بين شجـيرات الخـروع والأعشاب التى نَمَتْ بجواره فـأخفته. لقد غطته تقـريبا. إنها ليست أشجارا ذات أوراق عـريضة جدا وجذوع ضعـيفة - لأن هذه الأرض ليست كـأرض الريف- لكنها شـجيـرات خروع. هنا لا يوجـد حتى خُمس الأشـجار التى كانت هناك. لكننى على أى حـال عندما أرى الزهور  لا أتركها. عندما أرتدى القميص الأصـفر أفضّل السير بجوار الزهور الحمراء ، لـكننى لا أجرؤ ولا أفعل سوى السـير بجوار زهور الكونديمور ، وهى حمـراء أيضا لكنها لا تعـرفنى. الحقيـقة هى أننى سوف أرى عباد الشمس بالفعل. أعتقد أنه قد شاخ أو أنه مريض ولا ينظر الآن إلى الشمس. لا تقترب منه النحلة أبدا ولا الفراشة ، وأرى أنه لا ينفض عن نفسه التراب ولا دخان المدفأة. كم أتمنى أن أنظفه ! ،

أن أنظفــه قطعة قطعــة بعناية شديدة ، وأن أجلس كــل فترة بــجواره أصفرّ وأمسك بقطعة قماش فى يدى ، قطعــة قماش بيضاء تجعل عباد الشمس يتمنى أن أنظفه بها. لكنه لا يطلب ذلك منى ولا يسألنى عن أمى - التى لم تكن تأتى أبدا إلى آخر الفناء - ولا عن جدتى ولا عن أخواتى ولا عن أحــد. ولا يسألنى عن السيــرك. يالروعة المنظر وأنا أقول بصوت عال "ادخلوا ياسادتى. تفضلوا" وأقول بصوت عال إن هذه هى آخر حــفلة فى الحى ، بصوت عــال لعل عبــاد الشمس يسمعنى فــيجرى إلى الحلبة. بعــد ذلك ، فى أى فقرة أشترك فــيها -حتى فى فقرة الأسد الخطيــرة - أمرر نظرى على الجمهور لعلى أرى عباد الشمس بينهم. لا أراه ، ومن الجائز أنه يخاصمنى. أحيانا أذهب إليه وأنا أرتدى قــميصى الأصــفر أو وأنا أرسم شــاربا ولا يهتم بى ، كمــا لو لم أكن أنا. يبدو لى أنه لا يخاصــمنى أنا بالذات بل إنه لم يعد يتكلم ، لأن شيئا ما يحزنه. آه لو ذكر لى ذلك الشئ ، فأنا مثل جدى ، وفى بعض الأحــيان أقوم بــأعمال الســحر. حينئــذ أتحدث بصوت عال ، وحــيدا ، عما حــدث فى السيرك. أحضر مــعى كلبة فيلامــيدا الصغيــرة وأحكى لها عن كل ما حدث فى الســيرك. الكلبة الصغيرة تنظر إلىّ وهى ترغب فى البكاء كعهدها دائما. وعندما أنتهى تولينى ظهرها وتنصــرف. لا يهمنى ذلك ، فمــا أريده هو أن يسمع عباد الشمس الحكاية بأى شكل. هل سيــسمعها ؟ أنا أحكى بصوت عال إلا إذا جاءت إحدى الجارات لكى تنشر غسيلها ، لأنها بعد ذلك ستقول لجدتى أن تعطينى مشروبا يــهدئ أعصابى ، وجدتى ستعطينى المهــدئ. ذات يوم أعطتنا جــدتى - لى ولإخــوتــى- دواءً ضــد

الطفيليات. لم يكن أحد منا يريد أن يشربه وكادت أختاى أن تبكيا. صاحتا "لا يا جدتى. لا يا جدتى" جاءت ماريا تريسا لترى من هذا الذى يسئ معاملتنا وليس معنا سوى عجوز عمياء وأمنا فى هافانا. أخذت زجاجة الدواء، وكانت على وشك أن تسقينا إياه بنفسها. توقفت فجأة وقالت "آه صحيح. كيف يحبون هذا الشراب؟ إنه زيت شعر" فى تلك الليلة لم تشعل جدتى شمعة وزنها كيلوجرامين للقديسة لوثيا، بل شمعة واحدة طويلة.

عندما وصلت فى هذه المرة إلى آخر الفناء كانت الشمس قد قفزت لتوها على الجدار الطينى الذى يحيط بالفناء، وكانت تضئ الأوراق الخارجية لشجر الخروع. كان ضوؤها جميلا، أصفر فاقعا لونه. ركزت الانتباه ورأيت كثيرا من شجيرات الخروع قد نبتت لتوها. هذه الشجيرات ذكرتنى بشجيرات أخرى، ربما لأن الفراشة الصفراء مرت بسرعة. من المؤكد أنها ذاهبة لموعد هام ولا تستطيع أن تتوقف لتسلم علىّ. فجأة لم أجدنى واقفا أمام شجيرات الخروع هذه، بل أمام شجر الخروع الذى أحببته دائما، ذى الأوراق الكبيرة التى تشبه المظلات والتى كنت أنظر إلى الشمس من خلالها. لم أجد نفسى واقفا أمامها فى يوم عادى - لأنه لو كان يوما عاديا لما أضاءت الشمس بلون أصفر خفيفا ولما أضاءت الجو والأرض والشجيرات ولما كانت الحشائش ندية -. كان يوما شبيها بذلك اليوم فى الصباح. مكثت أنتظر. من المحتمل أن تعود الفراشة وأن تقول لى إن شخصا ينام مختبئا بين أشجار الخروع. بل عادت الفراشة وأخبرتنى. كانت الفراشة صفراء تلمع، تشبه زهرة فوق زهرة، تشبه أمى وهى فى

الحديقة ، تشبه شيئا لا نظير له. رفعت الفراشة رأسي وقالت "لا تغضب مني وانظر إليّ. إنني أنا صديقتك. متى سنتجول معا فوق البيت ؟ متى سنحلق عاليا ؟ " كنت سأبتسم وسأقول لها " الآن حالا". قالت "الآن لا يمكن. هناك رجل بين أشجار الخروع يناديك. إنه يناديك ويناديك" كان هناك رجل بين شجيرات الخروع يناديني. ماذا سأقول له عندما أراه فوق الحشائش وبه ثلاثة جروح في صدره وفي عروقه الزرقاء التي تشبه الأنهار في ذراعيه القويتين؟ "أمي في هافانا" تقدمت دون خوف. هناك زهرة ضعيفة شاحبة تعيش بالكاد بين الأحجار قالت لزميلتها عندما رأتني "هذا هو ملكنا". سرت وأنا أنحّي أوراق الخروع عن طريقي ، وأخيرا أصبحت وجها لوجه لا أمام الرجل الجريح بل أمام عباد الشمس الذي نظر إليّ في عيني وقال "هذه هي الحرب التي كان هو يتحدث عنها. في هذه الحرب سيأتي هو" الآن عليك أن تنهض مع جيشك ومع أطفال آخرين وتسير في الدرب. "متى ؟ في أي لحظة ؟" "لا أدري. سيقول لك هو بنفسه. إنه على وشك الوصول. الحرب على وشك أن تبدأ" مكثنا نتبادل النظرات ونتذكر كل شئ ، كل ما يجب عمله. شعرت أن صدري ينتفخ. شعرت برغبة في أن أنادي "أيتها الزهور" ، شعرت برغبة في أن تمر السحب على مهل في السماء ، في أن يمتد ظل الأشجار لكي يملأ الأفق ، أن تتوقف العصافير في السماء ، أن تمشي الأشجار ، أن يداعبنا نسيم الصباح ، أن تصطف حولي الفراشات والدبابير والأشجار الكبيرة وشجيرات الخروع والأزهار وكل الطيور. سرت في اتجاه بيتنا وعلمت في تلك اللحظة

أننى يجب أن أمشى دائما بالقميص الأصفر وألا أنظر يمينا أو شمالا. دخلت وجلست بجوار المائدة وسألت عما إذا كانوا قد طلبوا استدعاء أمي بالفعل. عندما رأتنى جدتى وماريا تريسا -وكانتا تتبادلان الحديث همسا فى أحد الأركان- انتفضتا رعبا. قالت ماريا تريسا "يا ولد ، قل إنك أنت. لقد أفزعتنا" قالت ذلك ثم صمتت. قالت إحدى أخواتى "ماذا به ؟ إن عينيه تلمعان" قالت الأخرى "لقد أضاء البيت" ، لكنهم لم يقولوا شيئا عندما ارتديت القميص الأصفر النظيف المكوى. لم يقولوا شيئا كذلك عندما عدت إلى جوار المائدة وظللت أنظر وأنظر عبر النافذة.

الآن أفهم أن غموض أهل الحى ليس وليد اليوم بل هو من قديم الزمان. نعم ؛ لأنهم خلال حفلات السيرك الأخيرة كانوا يصفقون بلا حماس ، إذ كانوا يراقبون ما حولهم ، والكثيرون منهم كانوا ينصرفون قبل انتهاء الحفلة. ظننت أن ذلك كان بسبب غياب أمى. لكن لا ، فقد كانت أختاى تقلدانها جيدا وكانت ميزتهما أنهما اثنتان. ظننت أن ذلك بسبب أن القميص الأصفر قد تمزق ، ولم يكن ذلك هو السبب أيضا. الآن أفهم لماذا كانت الشوارع خالية خلال تلك الأيام وأن هناك رائحة تفوح فى كل الجهات. إنها رائحة الخطر، رائحة المجهول ، رائحة المستقبل ، رائحة الحرب. لهذا كنت أخرج مرتديا قميصى الأصفر ولم يكن يحتفى بى أحد ، لم يكن أحد ينظر من النافذة إلا امرأة عجوز كانت تأمرنى بأن أعود إلى بيتى بسرعة. قلت لنفسى "غير ممكن" وسررت لأننى علمت أن الكثيرين يراقبوننى من خلال حديد النوافذ ويغمضون أعينهم لكى يروا حفلات

السيرك بعين الخيال. الآن أفهم السبب. إنها الحرب. ولو أننى ركزت الانتباه لأدركت أنه لا توجد ضوضاء فى الحى ، ذلك لأنه لا أحد يتحرك أو يتكلم داخل البيوت. إن الناس يجلسون أو يدخلون المطابخ أو الحجرات. ليست هناك عربات فى الشارع ولا باعة متجولون. إذا كان شخص ما فى الشارع صدفة والتقى بشخص آخر أو إذا التقيا أمام بيت أو إذا تصادف وجودهما كلٌ أمام بيته فإنهما لا يتحادثان بل يتبادلان النظرات. أقصى ما يفعلانه هو أن يتفوها بكلمات لا يفهمها إلا هما. يشيران إلى حيث القرى الأخرى ويقول أحدهما "فى الليلة السابقة" ويرد الآخر "وماذا ؟" "النهاية" أو "استسلموا فى الحال. هؤلاء الناس ليست عندهم مبادئ" أو "حتى الآن يقاتلون. انصت وستسمع صوت الطلقات". يقولان كل ذلك همسا ، وإذا اقترب منهما شخص ما فإنهما يلتزمان الصمت إلى أن يعرفا من هو ، وحينئذ يتحدث الثلاثة همسا وباختصار أو يدخل كل منهم إلى بيته. أحيانا يقولون لأحد الأطفال "قف هنا ونبهنا إذا جاء أحد. عندئذ تصفّر أو تنادى على صديق لك". وحيث يوجد جهاز راديو يلتف حوله ثلاثة أشخاص أو أربعة يستمعون إليه وهو شبه مغلق. أحيانا يبدو أن جهاز الراديو يقول شيئا هاما لا يملكون معه إلا إطلاق صيحات الفرح ، وتأخذ المرأة سلتها وتذهب إلى بيت الجارة التى ليس عندها راديو لتطلب منها شيئا ، وبعد لحظة قصيرة تسمع هناك صيحات الفرح. وفى أحيان أخرى يرفع الناس أذرعتهم إلى أعلى يلوحون بعلامة التهديد.

الآن نعم ، أعرف أن كل ذلك يحدث وأنه استمر فى الحدوث منذ أيام. الأشخاص الوحيدون الذين يسيرون فى الشارع -كما لو كان ملكهم ، اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة- هم الحراس. حراس كثيرون موجودون الآن فى المدينة ليلا ونهارا ، وهناك عربات تنقل الحرس من مكان إلى آخر فتثير الغبار. إذا مروا ليلا أسمع جدتى تحصيهم: "سبعة ، ثمانية ، تسع عربات. يا إلهى!" عندما يرى الناس الحرس قادمون يبدأون فى الحديث عن السيرك أو عن أنهم يجب عليهم أن يغتسلوا أو أن يفعلوا شيئا ما فى البيت. الأمهات يدخلن أولادهن البيوت ويغلقن الأبواب. على أى حال يدخل الحرس إلى بيت ما -دون دعوة- وهم يركلون الباب بأقدامهم. عندما يفتح لهم الباب يفتشون كل شئ ، يقلبون كل شئ رأسا على عقب. لا أحد يذهب على الفور لرؤية ما حدث أو لمعرفة ما إذا كانوا قد اعتقلوا شخصا ما، بل يذهب الناس بعد فترة ، بعد ثلاث أو أربع ساعات. فى بعض الأحيان يقول الجيران لشخص ما "عليك أن تهرب بأسرع ما يمكن" وهذا شئ آخر يحدث: أهل المدينة فى هذا الحى ينزحون. الرجال ينامون ليلا فى بيوتهم ثم لا يصبحون وهم فيها ، كما لو أنهم لم يوجدوا قط. لا أحد يسأل عنهم ولا يفتقدهم أحد. اختفى من حينا زوج ماريبيل وابن فيلاميدا وأخوة كارولا الاثنان وصبى الجزار. ويأتى لتحصيل فاتورة الكهرباء الآن رجل عجوز. منع الناس أولادهم من الذهاب إلى المدرسة ، ولا يرسلوننا الآن لشراء طلبات ، ولا يريدون إلا أن يبقى كل واحد منا فى فناء بيته. كل الأولاد أصبحوا مطيعين ويمشون على أطراف أصابعهم وهم متحفظون.

يحذروننا من أن نقـول أى شئ مما نسمعه وإلا أكلت الفـئران ألسنتنا.
نحن لا نعـرف أى شئ عن أى شئ ولا من هو فلان ولا أين يعـيش ترتان. كل ذلك، كل ذلك من أجل الحـرب، الحـرب التى تقتـرب منا، الحرب التـى على وشك أن تندلع، وأمى فى هافانا. أصـبحت السمـاء رمادية. كما لو أن هناك سكاكين فى الجـو. لا أحد يريد أن يتنفـس. كل الناس ينتـظرون أن تبـدأ الحـــرب. أن تبـــدأ بين لحظة وأخرى.

مكثت جـالساً بجوار المائدة أنـظر من النافذة وأفكر فى الأشـياء التى أفكر فيها، أشم، أنتظر. جدتى وأخـواتى يراقبون، يستقبلون الجارات ويتـهامسـون معهن. نحن الأربعـة نتمنى. نتـمنى أن ينفتح الباب وتظهر أمى وقـد عادت. أنا أتخيل أنها سـتأتى مرتدية بلوزة بيضاء. أحيانا نظل جميعا بلا حـركة، مترقبين، منتبهين إلى صوت جلبـة نتوهم أنهـا حـدثت. بعد ذلك يـتضح أنه لم يحـدث أى شئ فنستأنف نشاطنا العادى. هناك دائما شمـعة تشتعل أمام تمثال القديسة لوثيا. تسألنى أختاى "ألا تخـاف ؟" يسألانى ذلك وهما ممسكتان بعضـهما بعضــا وترتديان ملابس حمراء. أجـيبهمـا "لا". كان من الممكن أن أجيبهما بعبارة "من ماذا ؟". لأننا، مم نخاف بالضبط ؟ لا ندرى. إلى أن تأتى الحـرب فنحن لا نعـرف مم نخـاف لأننا لا نعرف ما هى الحرب. لكننى أعتقد أننى خائف، أننى أشعر بشئ من الخوف، الخوف من شئ ما. ربما كان ذلك الانتظار الذى لا ينتهى. قالت لنا جدتى إن الحرب ليست لـعبة، هى آخر شئ فى الدنيا. هى نفســها لم تشـهد حربا، حـربا حقـيقيـة، لكن أمهـا رأت حربين:

واحدة استمرت أربع سنوات والثانية استمرت عشر سنوات وأنها اشتغلت كما يشتغل حمار الحرث. تقول إن هذه الحرب -رغم ذلك- ستكون أسوأ كثيرا ، فالأسلحة الآن ليست مثل أسلحة زمان ، فالإسبان كانوا يحاربون بالبنادق وكان الكوبيون يحاربون بالسيوف. كان الإسبان أشرارا ، أشرارا جدا ، لكن هؤلاء الناس أسوأ. لقد تحولوا إلى مجانين وقتلة ولابد أن الله سيرسل عليهم عذابا كبيرا بسبب كل هذا الظلم. لم يعد هناك مفر من القتال ، لكنهم مسلحون. إنهم مجرمون ولا يهمهم قتل الأبرياء ، ومن المؤكد أنهم سيرسلون الطائرات لكى تقصفنا كما فعلوا فى الشرق. الشئ السيئ فى كل ذلك هو أننا -جدتى وأختاى وأنا- أبرياء. قضوا على الناس فى الشرق ، لكن ذلك لم يفدهم فى شئ فهم يخسرون. وكما لو كانت نذورها قليلة نذرت جدتى نذرا آخر. نصحتنا فيلاميدا أن نشترى كاكاو وبسكويت وملحا ولبنا مكثفا. قالت جدتى "إن أول ما ينفد فى الحرب هو الملح ، والملح هو الأهم" ، وقالت ماريبيل إنه لابد من أن نعمل ملجأ. بعد أن سمعتها أختاى قامتا بإحضار كل المراتب من على الأسرة ووضعتاها فوق المائدة وعملتا منها ملجأ. فوق كل ذلك وضعتا المخدات والأجولة ثم الطشت وبه ماء. هذا شئ طيب ، فالرصاص والقنابل ستبرد إذا ما غطست فى الماء ولن تقتلنا. دخلنا كلنا تحت الملجأ انتظارا لقدوم الطائرات. لم يكن أحد منا قد رأى الطائرات أبدا ولا حتى جدتى ، لأن الطائرات لا تعبر من هنا. لم نكن قد رأينا الطائرات حتى فى الأفلام ، لأننا لم نكن قد رأينا أفلاما. لكننا سنتعرف على الفور على الطائرات بمجرد وصولها.

قالت لنا ماريبيل : إن الشئ الوحيد الذى ينقذنا من الحرب هو الملجأ، أما إذا كنا فى الخلاء فعلينا أن نحتمى تحت شجرة أو أن نمشى عكس اتجاه الطائرة .

كان كل شئ مظلما فى الملجأ. لم نكن نرى أنفسنا. كانت الدنيا أكثر ظلاما لأننا الآن لا نفتح الأبواب ولا النوافذ وأصبحنا نغطى الشيش. كان الملجأ يتسع لنا بالكاد وما زالت أمى لم تأت بعد. بعد ذلك لم يكن المكان مظلما لأننا أدخلنا تمثال القديسة لوثيا ، وأوقدت لها جدتى شمعة شاحبة. قمنا بتسخين الكاكاو على نار الشمعة. كانت جدتى تدخن سجائرها وكانت تشعل السيجار من الشمعة وهى تخفى النار بكلتا يديها. بحيث أن الطائرات لن تعرف أبدا أين نختبئ ونحن نصلى. ومن كثرة المكث فى الظلام رأينا. رأينا كل شئ. أخواتى ينظرن إلىّ بين الحين والحين ، وأحيانا تنظر إلىّ جدتى ، وأحيانا تنظر إلىّ الدجاجة الملونة. الشئ الذى لا ينظر إلىّ هو تمثال القديسة لوثيا. وأنا أنظر إليهم جميعا. جدتى استعادت فجأة هوايتها فى الحكايات بصوت منخفض جدا. إنها تتحدث عن الأعاصير والعواصف وفيضانات الأنهار وحكايات من زمن أن توفى ناس من عائلتها ، والأشياء التى فعلتها السيدة فلورندا لكى نغادر الريف ، وحكاية الضباب الذى لفّ هذه المدينة ذات مرة فى يوم كانوا ينتظرون فيه قطارا يقل فرقة سيرك. تقول إنه نفس الضباب الذى يغطى المحطة الآن. أنا أصغى إليها لأن ذلك يعجبنى ، وأتمنى أن تبدأ فى تمشيط ضفائرها ، لكن ضفائرها الآن قد بهت لونها ولا تكاد تكفى لعمل

لفة واحدة حول رأسها. الشئ الآخر الذى أفعله هو التفكير فى عباد الشمس وهو فى الفناء ، وفى شجر الخروع وفى الفراشة الصفراء وفى الرجل الجريح. وبما أننا لا نخرج من المخبأ فلدىّ وقت لكى أتذكر كل شئ. لكى أتذكر كل شئ ثلاث أو أربع مرات. لقد فكرت فى النخلات خمس مرات حتى الآن. أتذكر نفسى وأنا أتحدث مع الأزهار ، وهى توافق على ما أقول ومستعدة للسير ورائى لاستهلال عهد جديد ولزرع الأعلام ولحرق جذور القصب. لكن علينا أن ننتظر. الشئ الوحيد الذى يمكننى أن أفعله هو أن أظل منتبها إلى أى صوت كبير أو صغير وأن أحاول معرفة هل هو صوت عباد الشمس أو صوت الفراشة الصفراء أو صوت الرجل الجريح أو صوت أمى وهى تقرع الباب بخفة وهدوء ونحن نجرى لنفتح لها لتدخل بسرعة البرق وتلجأ إلى المخبأ. كانت العجوز فيلاميدا هى التى جاءت ملتفة بملاءة، وكان أنفها أطول من أى وقت مضى "سيهاجمون المدينة بين لحظة وأخرى. إن الحرس يستعدون. لن يتجاوز الأمر غدا. هل سأرى ابنى ؟" قالت جدتى "ولم تصل بعد استيلا. هل دمروا الكبارى ؟ يا إلهى يا إلهى" .

هكذا جاء دورنا أخيرا. علينا أن ننتظر طوال الليل لأن فيلاميدا تقول إن الهجوم يتم دائما فى الفجر. لن نستطيع النوم هذه الليلة. لن نستطيع أن نغمض أعيننا ولا لحظة. خاصة أنا، لأننى أريد أن أرى الحرب منذ البداية. عادت فيلاميدا وقالت إن الذى سيقود الهجوم هو

القائد الذى اسمه بدرو أنطونيو "به ثلاث جروح فى صدره ، وذراعاه فيهما عروق زرقاء كبيرة" هناك قصص أخرى تروى عنه بصوت منخفض جدا ، همسا. إنه من أشهر المتمردين. شخص ثائر جدا. تقول النسوة العجائز إن هجومه يبدأ دائما فى الفجر وينتهى دائما قبل الظهر وأنه - بعد ذلك وهو منتصر- يصعد على حجر مرتفع أو على نخلة ويبتسم ويجمع الشعب المحرر حوله فى أجمل شارع ويلقى خطابا. بمجرد سماع كلماته يشفى المرضى ويستعيد العجائز شبابهم وتتحسن حالة الشوارع ويقرر الخطاب الزواج. هذا ما تقوله العجائز، ويقولون إن شخصا هكذا فقط هو الذى يستطيع أن يحرر مدينتنا بضبابها القديم الكثيف الذى يغطى محطة السكة الحديد والذى تعيش فيه حمامات رمادية ، وحتى لو كان والد الحمام أبيضا فإن الحمام الصغير يخرج رماديا. تقول جدتى إن هذا صحيح وإن كل ما يقولونه عنه صحيح أيضا ، إن بدرو أنطونيو يغطى أصابعه شعر كثيف وبه شامة على جبهته وأسنانه صغيرة. إنه قادر على فعل المعجزات ولا شك فى ذلك. لابد أن قديسا ما يساعده وينير له الطريق. إنه يرتدى الزى الأخضر ويطلق لحيته. يتكلم قليلا لكنه ينظر كثيرا ، ومن بريق عينيه يعرف الناس ما يحدث. يصطفّ الرجال ويتحولون إلى جنود له. إن بدرو أنطونيو نفسه هو الذى سيهاجم مدينتنا غدا ، ونحن فى حاجة ماسة إلى الحرب لأن كل شئ هنا رتيب وحزين والناس لم تعد تضحك حتى فى حفلات السيرك. أخيرا سيحدث شئ حقيقى هنا. هاجم الثوار القرى الأخرى وحرروها. إلا هذه المدينة. لقد حرروا قرية ثولوتيا مرتين. إن هذه المدينة هى أحوج ما تكون إلى حرب ، نظرا للملل الذى خيم هنا منذ

أن توقفنا عن إقـامة حفـلات السيرك. وأمى لـم تصل بعد. أمى لم تصل. لهذا لم تبدأ الحرب.

أفضل شئ هو أن يكون الإنسان سوبرمان كما يحدث فى مسرح العرائس. لأننى لو كنت سـوبرمان وتحرش أحد بأخـواتى أو قال لهم صاحب الدكان الكلمة النابيـة التى قالها لهم لكنت أخلع عنى ملابس الشخصية الثانية وأمتلك القوة والشجاعة. وفى يوم آخر يكون الناس يضعون ديناميـت لتفجير الكوبرى فأطيـر وأرى بعينى أن ذلك كمين معـد للمـتمـردين وهم قادمـون فى الطريق فأذهب بسـرعة وأحـمل الكوبرى وأحلق به عـاليا ثم أهبط وأضعـه فوق رابية حـيث لا يوجد خطر. أحضر كوبرى آخر يمر عليه الثوار. بعد ذلك أعيد كل شئ كما كان والحـرس لا يعرفـون ما فـعلت. أو يكون الثوار سـائرين وعلى وشك الوقوع فى كمين فأصل أنا وأعطّـل مدافع دبابات الجيش بقوتى وأصهر طلقـات الرصاص بعينى وأقذف الطائرات فى البحـر. يحيينى الثوار ويقدمون لى الهدايا. يقول الجيش "ماذا يحدث هنا ؟ إن شيئا غريبـا يحدث هنا" يرسلـون قوات أخرى ودبابات وطائـرات وسفنا ورشاشات ويقول الثوار إنهم لا يسـتطيعون عمل أى شئ إذا لم أظهر أنا. لكننى أظهـر فى اللحظة الأخيرة التى تـشتد فـيها الحـاجة إلىّ. أدخل فى باطن الأرض ، وأخرج ومعى حمم بركـانية ملتهبة. أصنع سدا بين الفريقين لا يخترقه الرصاص. أجعل الحمم تنصب على الجهة التى فيها الحراس وتصيب الطائرات فى الهواء وتغطى الدبابات. أعمل دوامات للسـفن فى البحر لكى تغرق. كـسب الثوار الحرب وصفـقوا لى. أمى تحييهم وتقول لهم إنها أمى ويقرعون الباب.

"هل يقرع أحد الباب؟" نظرنا جميعا إلى بعضنا البعض. "هل سمعت يا بنى ؟ هل سمعتن يا بنات ؟ هل سـمعت يا قديسة لوثيا" نعم سمعنا جمـيعا وقد مدت الدجاجة الملونة رأسهـا. قرعوا الباب. إنهم يقرعـون الباب مرة أخـرى. رائحة الزهور وصلت حتى المخـبأ. قرعوا البـاب مرة أخرى لكن برقّة لا تكاد تشـعر أحدا. "معقول ؟ هل هى استـيـلا ؟ يا إلهى" هل هى أمى ؟" إنهـا أمى والزهور فى شعرها. أمى بعينها وقد وصلت مثلجة من هافانا، بحقائبها لا بحقيبة واحدة وقد وقـفت فى منتصف الصالة مبتـسمة وذراعاها مفـتوحان. قـالت "ها أنذا" ، لكننا لم نخـرج لاستـقبـالها. فـقط نظرنا إلى بلوزتها الـبيضـاء والجونلة الجديدة. خـرجت جدتى أخـيرا ووصلت حبوا إلى حيث تقف أمى. اضطرتها إلى الانحناء وعادتا معا حبوا إلى المخبأ. كنـت وأخوتى فى زاوية من المخبأ. تنظر إلينا أمى وتـبتسم. تنظر إلينا وتنظر. تبتسم وتبتسم. حتى عانقناها نحن الثلاثة. رائحتها جمـيلة. وهى تضـحك. قالت جـدتى "صمـتا" وتحـركت المائدة. "أحـضرت لكم أشـياء كـثيـرة" لكن رائحة أمى جـميلة. "كـيف جـرؤت يـا ابنتى ؟ هل هنـاك ثوار على الطريق ؟" "هـل تريدين كاكاو ساخنا يا أمى ؟ نحن الذين أعددناه دون أن يلسعنا" "أنتما ؟ أصبحتمـا آنستين. هاتوا أذوق. دعونى أراكما. لقد كبـرتما. شعركما طويل. كـيف تصرفـتما ؟ هـل ساعدتمـا أمى ؟ تعاليـا قبلانـى مرة أخرى. ياالجمالكما" أختاى تضـحكان وجدتى تقول "صمتا". أمى تنظر إلىّ وحـــدى. كل نظرتهـا لى ولا أدرى لماذا لـيس مـعى الدف

الصغـير فى يدى. سنتـعانق. الآن حـالا. جدتى تقـول "استـيلا ، بهدوء. لا يجب عمل ضوضـاء" أمى تعانقنى. ولدها الحبيب. هل تصرفت بشكل لائق؟ هل تشاجرت؟ هل أكلت جيدا؟ هل كبرت ؟ تضمنى إلى صدرها ونظل هكذا ، لأننا فى تلك اللحظة نفسها نسمع صوت أول طلقة. بدأت الحرب. الحرب بعينها.

جاء صوت الطلقة الأولى وبدأت الحرب. "بوم . بوم" لم نكن قد سمعنا صوت طلقة من قبل إلا فى مسلسل مونكادا. زجاج البيت هو الآخـر لم يكن قـد سمع صـوت طلقـات ، ولا المرآة. توقـفت أنفاسنا وتشـابكت أيدينا ، وكان الزجاج يهـتز ويهتز. صـوت الطلقة يذهب بعـيدا فى الشارع ويلف ويلـف. لقد نجونا من هذه الـطلقة . بينمـا جدتى تصلى "بوم" نسـمع صوت الطلقـة الثانيـة. أقوى من الأولى. فـوق رؤوسنا بالضـبط. ربما داخل البـيت أو تحت السـرير. دخلنا نحن الخمسة دفعة واحدة فى المخبأ وقلوبنا تدق. تسأل القديسة لوثيا "مـاذا حدث ؟" وتوقد لها جـدتى شمعـة. "إنها الحـرب" "يا إلهى!" "بوم بوم" صوت طلقات مجـتمعة. يخيم ظلام الليل. إنه الفجر أم أنه الصـبح ؟ الطلقات كل طلقة وصوتهـا. كل الطلقات فوق سطح المنزل. جـدتى تخلط بين صوت الرصاص والرعد فـتقول " يا قديسة باربارا يا مباركة. فليحمنا الرب" تقول أمى "لقد بدأت الحـرب" وتصلح من وضع الزهور على شـعـرها. فى الخارج كـان صـوت الطلقـات يغطى كـل شئ. لا يسـمح لأحـد أن يفكر أو أن يتكلم. لا يسمح إلا بـسماع الطلقـات. إنها طلقات شـديدة. البيت

يهتز. الزجاج يرتج. المرآة ، المدينة بكاملها ، القديسة لوثيا. فى الناحية الأخرى من الجدار هناك من ينادى ويقول "إنهم الثوار" الثوار ! الثوار يهاجمون المدينة. أخيرا سيحدث هنا شئ مختلف. سيحررون المدينة. يقول الصوت نفسه "لا يطل أحدكم إلى الشارع مهما كانت الأسباب. ابقوا تحت السرير ولا توقدوا المواقد. كلوا كاكاو جافا. اخلطوه بلبن مكثف ، لكن احترسوا حتى لا يختنق الأولاد" أنا والحمد لله أرتدى القميص الأصفر وأمى تضع زهورا فى شعرها. جدتى وأختاى يرددن دعوات بسرعة فائقة لا أفهم منها إلا "المسيح الذى فى بطن أمه" ، وأفكر فى عباد الشمس وفى الخروع وفى الأعشاب وفى الرجل الجريح وفى الزهور التى أتخيل أنها تنظر إلىّ وأنها تريد أن تكلمنى. لم أكن أتخيل أبدا أن إطلاق الرصاص يكون بهذا الشكل. لكن آذاننا تأخذ فى التعود وقلوبنا تأخذ فى التعود. أنا وأمى نتبادل النظرات لأننا نعرف -الآن فقط نعرف - أن الحرب ليست فى المخبأ ولا حتى فى فناء البيت. بل فى الشارع ونحن قابعون هنا ولا نرى شيئا بعد أن انتظرناها طويلا طويلا. هذا غير معقول ! وخرجت أعدو وأصبحت فى الشارع فى عز الحرب . لا يوجد شئ. لا أرى أحدا ولا كلابا ولا قططا ولا دوامات على الناصية. فقط إطلاق الرصاص. عصافير المدينة والفراشات والصراصير والذباب وفرس النبى وكل ما له أجنحة يحوم مذعورا فوق البيوت. ربما لو ذهبت إلى آخر الشارع أرى الحرب ، لكن شخصا ما يملؤنى عبيرا ويأخذنى من أذنى ويدخلنى المخبأ من جديد. تقول جدتى عندما ترانى "يا لقوة أعصاب هذا الولد !" وتسألنى

أختاى "هل قتلوك ؟" تسألنى جدتى وهى باكية "ماذا رأيت يا وجه الماعز ؟" "لا شئ. لم أر شيئا. الحرب لا تُرى ، بل تُسمع". نصغى. نعم ، إنها تسمع. يا للضوضاء! أقوى من صوت الرعد والعاصفة. من حين لآخر يخيل إلينا أن شيئا ثقيلا يوشك أن يقع فوق رؤوسنا رغم المخبأ ، ونشعر ببرد يدخل إلى أرجلنا. برد بارد جدا. هذا هو الجانب السئ فى حرب كهذه ، فى حرب فى هذه المدينة الصغيرة والإنسان طفل. ماذا سيحدث بعد هذه الحرب ؟ الحرب : ما فائدتها ؟ تقول جدتى "سينتهى الظلم". نواصل الاستماع إلى صوت الطلقات ونحن فى صمت. نسمع ونسمع. لم أشعر قبل ذلك أننى صغير. بعد لحظة شعرنا بالملل. نامت الدجاجة الملونة ، وتذكرت أمى أن حقائبها لا تزال واحدة منها فى وسط الصالة والأخرى فى الشارع ، وهى الحقيبة التى بها النقود. "فى الشارع ؟ مع وجود هذا العدد من اللصوص ؟" أحضرت لنا هدايا. أمى تتخلص من جدتى وأخواتى اللاتى يجذبنها من ملابسها ، وتخرج حبوا. "استيلا ، يا بنت. دعى هذا" تعود أمى ومعها الحقائب ولمبة الجاز والفانوس ودورق اللبن والصندوق الذى يحوى متعلقات جدى وحذاؤها الأخضر والمرآة والمقص ومخدة لكى تجلس عليها جدتى ومخدة أخرى تضع عليها رأسها وأوراق تبغ. "قلت أستغل فرصة الخروج من المخبأ" تحضر كاكاو ساخنا أيضا ، لكننا لا نريد أن نشرب. تفتح أمى الحقائب وهى تقول "انظروا ، هذه الحرب لا يدرى أحد كم تستمر. قد تستمر يومين أو أسبوعا ، والآن ربما تسقط قنبلة على الموقد". تمرّ الأشياء من يد إلى أخرى: حذاء

جدتى المـريح وقماش لأخـواتى وجورب لى وأطبـاق ألمونيوم كـالتى عندنا لكن جـديدة ، ناموسـية ، فـساتين رمـادية وسوداء ، أشـرطة للشعـر. وتعلن عن أشيـاء أخرى كـثيـرة -بصوت خفـيض لا يكاد يسمع- موجودة فى الحقيبة الأخرى. نرى كل ذلك ونقيس ونقبّل أمى ولا نكاد نشعر بإطلاق الرصاص الذى اشـتد. وجدنا نوعا جديدا من البسكويت. استيقظت الدجاجـة الملونة فانتبهت جدتى وقالت "إذا لم ينتصـر الثوار ننام كلنا على بطوننا وألقى أنا حـولكم وعلى صدوركم صلصة طماطم حتى إذا ما جـاء الحراس يقتلون الناس نجونا". قالت أمى "وهذه الملاءة للسرير الصغير" "دعك من هذا يا استيلا. الشئ الذى يجب أن تفعليـه هو الدعاء ، الدعاء الكثـير فهـو يساعد كثـيرا ويخلص الإنسان من الهـموم" ثم قالت لإحـدى أخواتى "وأنت ، لماذا لا تصلـين مع أخـتك ؟" "لأننـى ليس مـعى صـليب" "وأنا مسبحـتى تنقصهـا ثلاث حبـات". فى تلك اللحظة قرعـوا الباب. الجرس !! "هل نرش على أنفسنا صلصـة الطماطم ؟" "أنا كارمن تريسا" "يا للجرأة يا ابنتى! يا لفـزعنا ويا لشدة إطلاق الرصاص!" "لقـد استـولى الثـوار على المدرسة" "المدرسـة ؟" "الآن ؟" "هكذا بســرعة ؟" "ولماذا ؟" "يجب أن يـستـولوا على كل شئ" قدمنا لهـا الكاكاو. لم تكن كارمن تريسـا تعرف أنه ساخن فـشربت بسـرعة واضطررنا إلى الـنفخ فى لسانهـا لأنهـا لو شربت مـاءً باردا فسوف تنتفخ معدتهـا. قالت "لقد فاض النهر" "لماذا ؟ مع أنه لم تهطل أمطـار" "ذلك بسـبب إطلاق الرصـاص. لـقـد أزهرت كل النباتات ، وقـد أصبح ابن ماريا الأصمّ يســمع الآن". سألت أمى

"ومن الذى يقود الهجوم ؟" "اسمعوا صوت الرصاص. يا لشدة الصوت ! بدرو أنطونيو" "بدرو أنطونيو ؟" "وكيف صوت الرصاص ؟" "انتبهوا جيدا. اسمعوا صوتا شبيها بالموسيقى بعد كل انفجار. عندما يكون الصوت هكذا يكون بدرو أنطونيو هو الذى يقود الهجوم" "إذن فقد نجونا". فتح الباب وأطلت ماريسول "لقد استولوا على الكنيسة" "الكنيسة ؟ وهل يجب الإستيلاء على الكنيسة أيضا ؟" عبر الحائط كنا نسمع صوت فيلاميدا "اقتصدوا فى الكيروسين. لقد انقطع النور" "أهل الشرق يطلقون كلمة كيروسين على الضوء الباهر" "أنا لا أفهم لماذا لا يبقى أهل الشرق فى الشرق". قال زوج ميكائيلا "لقد دمروا الكوبرى. الآن لا يستطيع الحراس إرسال تعزيزات" عبر الحائط الآخر سمعنا صوت العجوز فيلاميدا "يا إلهى. اسمعوا صوت الرصاص. لقد انكسرت كل الأكواب الزجاج" انصرفت كل من ماريسول وكارمن تريسا. عادتا فى الحال. "لقد دخلوا مبنى البلدية". قالت كارمن تريسا "استسلم العمدة وقال إنه لا يمانع" قال زوج ميكائيلا "لقد اعتقلوه". قالت ميكائيلا "عليه الآن أن يدفع ثمن كل أفعاله" لم تعد أمى تستطيع أن تصبر أكثر من ذلك. عدلت من وضع الزهور على شعرها وخرجت من المخبأ ، لكن علىّ أنا أن أبقى هنا. علىّ ألا أتصور أننى سأخرج ، بل علىّ أن أساعد بالدعاء. توقفت أمى عند الباب ونصف جسمها داخل البيت والنصف الثانى فى الخارج. تأملت المنظر وتحادثت مع النسوة الأخريات ومع الرجال الذين كانوا فى بيوتهم يطلون أيضا من ناحية ما وهم يختبأون والرصاص فوق رؤوس الجميع

والطيور والهوام تتساقط من السماء كما لو كانت مطرا. "ادخلى يا استيلا". قالت أمى "إنهم ينادون على الطائرات باللاسلكى. سيقصفون المكان بالطائرات لأن الحرس ينهزمون على ما يبدو" "يا إلهى احمنا" "ما معنى اللاسلكى؟" بدأ نور الفجر يتضح، تتخلله طلقات الرصاص، وأمى تركتنى أقف بجانبها. قالت كارولا وهى تطل من نافذة بيتها "اعتقلوا كل الخونة" "اقتادوهم إلى السجن" "إنهم ثلاثة من البيض وواحد أسود. فيهم نونييث. من كان يصدق؟" "لكن نونييث ليس أبيضا ولا أسود. إنه أسمر" "أسمر؟ نونييث ليس أسمر، بل أبيض" "أشعلوا النار فى مصنع التبغ، ومحلات مودا اشتعلت من نفسها" "تقول خوليا إن أمبروسيو العجوز واقف على الناصية ومعه سيف يهاجم النباتات وأن الصدفة هى التى جعلت الرصاص لا يصيبه" "أراد فيليثيانو أن يدخله إلى بيته لكنه لم يستطع". سيشرق نور الفجر. "لقد فجروا كوبرى آخر. الآن لا يمكن أن تصل تعزيزات من بلاثيتاس ولا من مانيكاراجوا" "الآن يهاجمون المعسكر. المعسكر نفسه. إن الثوار لا يهابون أحدا" "المعسكر؟ هيا، فليصلِّ الآن كل الناس وأنت أيضا أيها العفريت. اترك أمك العنيدة وتعال لتصلى" "الساعة الآن السابعة" "وهذا الضجيج ما هو؟ ما هو يا إلهى؟" الطائرات. الطائرات. طائرة كبيرة وطائرتان صغيرتان. "تعالى يا استيلا، تعالى" "يا رب يا رب ينتهى هذا على خير. يا رب لا يموت إلا أشخاص قليلون" تجرى أمى وتضيف كمية أخرى من الماء على الطشت الذى فوق المخبأ وتدخل كارمن تريسا وتقول "لقد وصل

ثوار آخـرون" تنصرف. تدخـل كل من كارولا وبريجـيـدا وخوليـا والعجوز فيلاميدا وميكائيلا. تتسائل جدتى "و من أين يخرج هؤلاء الثوار الكثيرون ؟" "إنهم أبناء وأزواج وأخوة ناس كثيرين" تسأل فـيلامـيدا "وابنى ، هل رآه أحـد ؟" "لا" "أنا أظن أننى رأيت صـبى الجـزار" "صمـتـا يا أخـتى" إن الثـوار يطلقـون النار على الطائرات ، والطائرات تقـصف الثوار. "ولماذا لا يخـتبـأون خلف شجرة أو خلف عمود نور ؟" "مدد يا عذراء الرحمة. ليصب الثوار أهدافهم بدقة" "إنهم يصـيبون أهدافهم بدقة" "لتكن الدقـة أكثر" الطائرة الكبيرة ترمى دخانا وإحدى الطائرتين الصغيرتين تغادر خلفها. الطائرة التـى بقـيت هى الأخطر. "أنا أعـرف الـنذر الذى يجب أن أقدمه: لن أمسّ التبغ بعد ذلك. خـذوا عقب السيجارة هذا. ألقوه" المعسكر على وشك السقوط فـى أيدى الثوار بين لحظة وأخرى. قالت أمى "انظروا ، انظروا. واحـد من الثـوار يمشى فى الشارع" قـالت ماريســول "وهناك واحد آخر" قالت كـارمن تريسا "انظروا ، هناك اثنان فـوق ذلك السطح" قال واحـد من الثوار "ادخلوا بيـوتكن يا سـيداتى" مـيكائيلا وزوجـها الحـالى جـاءا مسـرعين "لقد سـقط المعسكر. لقد سقط المعـسكر" "من الذى قال ؟" "واحد من الثوار وهو يقفز فى آخر الشارع" "لقد رفعوا الراية البيضاء ، الراية البيضاء علامة الاستـسلام" صاح الثوار وهم فى سيارتهم العـسكرية الكبيرة "ليبق الجميع فى بيوتهم" "اسمـع أيها الضابط ، من الصعب القتال فى هذه المدينة ، فـأهلهـا لا يصـبـرون" الناس يطـلون ويطلون من الأبواب والنوافذ وعلى ألواح خـشب ينزعون منها المسامـير. أنا أيضا

أطلّ. أطلّ كثيرا وكذلك أمى. كل الناس موجودون الآن خلف الأبواب أو بجوار النوافذ ، مستعدون للخروج إلى الشارع. لا ينتظرون إلا الإشارة. حتى أختاى قد جاءتا بجوارى ونحن فى بيت ماريا تريسا ، لا أدرى منذ متى ، لكنهما كانتا وراء كل الناس مستعدّتين للخروج جريا. انتهى صوت الرصاص. فى البداية لم نفطن لذلك. كنا نمشى على أطراف أصابعنا متيقظين. أمى هى التى ذكّرتنا "وصوت الرصاص ؟" الجميع ينصت. صاح الناس "انتهى ضرب النار" وأحدثوا جلبة داخل البيوت. "هل يمكننا أن نخرج ؟" "لم يقولوا نعم" "ولم يقولوا لا" "يجب أن نكون مطيعين" صمتنا وخيّم الصمت الكامل. الصوت الوحيد الموجود هو صوت الناس وهى تستمع. سمعنا صوت الأبواب والنوافذ تفتح. الناس كلها تتأمل الشارع. فجأة رأينا ضوءا مختلفا ينير كل شئ. ظهر النور من خلف الأسطح وملأ الشارع ثم هو الآن فى كل مكان ، يجعل النهار أكثر وضوحا. إنها العلامة.

صاح الناس "إيييييه" وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصراعيها وألقى الناس بأنفسهم إلى الشارع وأذرعتهم مفتوحة والمناديل فى أيديهم. صاح الناس وتقافزوا وهم لا يدرون إلى أين يسيرون:

- لقد استسلموا. لقد نجونا.

- فاجأنا مقدم الحرية ولم نزين المدينة بعد.

- أحضروا الزهور وأكاليل الغار والصور والأشرطة الملونة والرايات والأجراس. استدعوا عازفى الموسيقى.

- اخــرجوا. الآن يمكنكم الخــروج والرقص والضحك وعــمل إضراب عام. اخــرجوا ومعكم نقود للدواء والتبرعــات للحرب. اليد فى اليد. انظروا إلى الثوار. عانقوهم. المسوهم. قبّلوا لحاهم. قدموا لهم الغذاء والكساء والهدايا.

- هيا اقفزوا وارقصوا ، فقد تغيرت الدنيا تماما.

كل الناس والبيوت وأعمدة التيــار الكهربائى قفزت ورقصت من الفرح ولم تستطع كبح جماحها.

كانت النساء أول من خرج وقد صبــغن شفاههن ووضعن شرائط فى أعناقــهن وملأن أيــديهن بالزهور وهن يصــرخن ويصرخن. لقــد دفعن أمــامهن الرجال والأطفال والعــجائز. أمامــهن كلهن كانت أمى تتقدم الصفوف بجونلتهــا الحمراء التى بدت كشعلة تتحرك هنا وهناك وبحذائــها الأخضــر ، وقد تزينت كــما لم تتــزين من قبــل. أخواتى ارتدين على عجل ملابس جديدة جاءت من هافانا. ربطت كل واحدة منهما شريطا على خصــرها وأعطت الطرف الآخر من الشريط لجدتى لكى تتبعهما -ودجاجتها الملونة تحت إبطها- دون أن تصطدم بأحد. بعدهن خــرجنا نحن ، وأنا الآن موجود فــى الشارع أقف على رجل واحدة مرتديا قميصى الأصفــر ، أتأمل كيف تبتسم النساء وهن يسرن فى رفــقــة الثــوار دون أن يكونوا أزواجــهن أو إخــوتهن. ولا أحــد يلومهن، بل على العكس يدعونهن إلى اصطحــاب الثوار إلى البيوت وتقديم الحلوى والفطائر لهم وإعطائهم علب اللبن الجاف لاســتعمالها أثناء السفر. أرى الرجال يصافحون الثــوار ويعانقوهــم ويتبادلون معهم

الربت على الأكتاف. ينظرون إلى البنادق ويريدون أن يتعلموا كيف تضرب. أما نحن الأطفال فقد وضعنا حول أعناقنا الأطواق والأساور، وكانت العجائز ينتقلن من مكان إلى آخر ومعهن الطعام الساخن ولم يكنَّ يرتدين الملابس السوداء أو الرمادية كعادتهن ، بل جونلات واسعة زاهية الألوان. يحدّثن النساء سرا فيصغين ويذهبن مسرعات إلى بيوتهن ويعدن وقد ارتدين جونلات واسعة حمراء فاقعة أو خضراء أو زرقاء أو صفراء أو بيضاء ناصعة أو مطبوع عليها ثلاثة أو أربعة ألوان. فجأة امتلأت القرية بالأعلام وأكاليل الزهور والرايات والأساور والقبعات والشمسيات والزهور التى يحملها كل الناس فى أيديهم أو يضعونها فى رؤوسهم أو فى ملابسهم أو فى سلال. كانت العجائز والنسوة المتزوجات أو الأرامل معهن زهور كبيرة ، أما الآنسات وصغيرات السن فكنّ يحملن زهورا صغيرة خفيفة اللون. ثم جاءت الفراشات والعصافير من كل صوب. كانت الفراشات والعصافير تقف فى مكان ما ثم تطير فوق رؤوسنا فتنزع الطاقية عن رأس أحد الثوار. وكانت الفراشات تخلط بين القبعات وعباد الشمس. وجاءت النحلات والدبابير أيضا ، لكنها لم تكن تلسع أحدا. الثوار أطول قامة من كل الناس ، يرتدون الزى الأخضر ويبتسمون ، صدورهم عارية لكى نرى أطواق البذور حول أعناقهم. منهم من أطلق لحيته ومنهم من حلقها. كلهم مبتسمون ، وكلهم يرتدى الزى الأخضر وكلهم مبتسمون ، يدعوننا إلى أن نذهب إلى الحديقة. الاحتفال لم ينته بعد ، بل سيبدأ. يجب أن نحتفل بالنصر، بالكفاح ، بالانتصار ، ببداية عهد جديد. إنه يومنا وعلينا أن

نستمع إلى كلمات القائد والنشيد الوطنى والخطاب الهام. أطعنا وذهبنا. ذهبنا وأطعنا. فى الحال ملأنا الشوارع. لا تكاد الشوارع تكفى. ملأنا الأرصفة أيضا. بعد ذلك وقفنا فى مداخل البيوت . الثوار يأتون معنا وهم خضر. يبدون كأنهم أعشاب متحركة. عندما كانت الأعشاب الحقيقية تراهم كانت تقفز إلى الشارع وتأتى إلى الحديقة وتبدو كأنها ثوار. كنا نريد أن نصل بسرعة فعدونا لكى نحتل أفضل الأماكن. بعضنا كان يمشى فوق أسطح المنازل قفزا فيحطم أغصان الشجر. الآن وصلنا. نحن الآن فى الحديقة ، والمكان لا يتسع لنا. بعضنا احتل الشرفات المجاورة. ملأناها ولا يزال المكان لا يتسع لنا. صعدنا فوق أسطح المنازل وفوق الأشجار ثم وقف بعضنا فوق بعضنا الآخر. لا يزال الناس يتوافدون والثوار يتوافدون والأشجار تتوافد. كنت أنا وأمى متشابكى الأيدى طوال الوقت. التقينا بأخوتى وجدتى "إيبيه إيه" أخواتى يسألن "هل رأيتم صبى الجزار؟" تجيب أمى "صبى الجزار ؟ أى صبى الجزار؟" جدتى تعانق أحد الثوار وتدعو له أن يباركه الله. يجيب الثائر "آمين يا سيدتى" ، ويخطف منها الدجاجة الملونة ليعمل بها مرقة وهو يقول "شكرا جزيلا". ترد جدتى "لا ، لا" وتستعيد دجاجتها "هذه لم تعد تنفع" يبتسم الثائر وينصرف. أمى تنظر فى كل الاتجاهات. كل الناس تنظر إلى جميع الاتجاهات وتبتسم. لم أر فى حياتى الناس مسرورة هكذا ولم أر أناسا كثيرين هكذا. أظن أن هناك بعض الأشخاص من القرى الأخرى. أرى الناس يزينون بيوتهم وأرى النساء يضعن الزهور والأعلام والزهور. من أين جاءت كل هذه الزهور ؟

ولماذا تنظر إليَّ النساء وهن مسرورات؟ النساء ينادين على أمى لكى تساعدهن ولكى تغسل معهن الأبواب والشبابيك وتكنس الشارع وتوقد الشموع وتعدّ الماء بالصابون لكى يعمل منه الأطفال فقاقيع كبيرة لامعة ذات سبعة أو ثمانية ألوان. أمى تذهب وأنا خلفها. أرى النجارين يعدون منصة لكى يلقى عليها الخطاب وتختا لفرقة الموسيقى. العازفون يجرون التجارب ويلمعون آلاتهم لكى يكون لها بريق عند التقاط الصور. الثوار يتوافدون. لا يتوقفون عن التوافد. يزيد عددهم فى منتصف الحديقة. لا يعرف أحد من أين يجيئون . هم مبتسمون ، جائعون ، شاحبون، قذرون ، ضاحكون وسعداء. هم سعداء عندما يصلون ويصطفون واحدا وراء الآخر وصفا وراء صف. فى الأمام يقف الملتحون وأمامهم من لحيتهم سوداء ثم يقف الآخرون وهم مسلحون. وأخيرا يقف من ليسوا ملتحين ولا مسلحين، وفى آخر الصفوف جدا يقف الثوار الصغار. بين هؤلاء كانت أختاى تبحثان عن صبى الجزار. الناس تصفق لهم دون أن يكونوا قد فعلوا شيئا ، ويقفز الناس لكى يتمكنوا من رؤيتهم بشكل أوضح. يحملون أولادهم على أكتافهم. أنا وأمى تسلقنا شجرة ، وتسلقت جدتى وأختاى شجرة أخرى. رأيناهم والأعلام فى أيديهم وتأثرنا. أناس كثيرون وثوار كثيرون. الحديقة كلها الآن مهيأة وهم مصطفون بشكل صارم. فوق رؤوسنا جميعا وفوق رؤوسهم وفوق الحديقة وفى سماء المدينة تحلق الفراشات والنحل والعصافير وفراشات الليل التى جاءت لتشاهد ما يحدث. هناك حمام على منصة الخطاب وفوق أكتاف الرجال ، وهناك فراشات فوق رؤوس النساء وقد انتصف

النهار تماما. لهذا كنا جميعا نـتلألأ. فُتحت الشمسيات الأولى ثم كل الشمـسيات. أصـبحنا تحت ظل واحـد ، وتناقل الناس خبـر أن قائد الثـوار سيـأتى بين لحظة وأخـرى. قـائد الثوار هـو رائد اسمـه بدرو أنطونيو ، وسيلقى الخطاب الذى يجب أن يلقيه والذى ننتظر سماعه. يصنع المعـجـزات. هذا مـا ننتظـره. لهـذا جاء إلـى هنا كل المرضى والأولاد غيـر المؤدبين والنساء اللاتى هجـرهن أزواجهن. كل الناس. نريد أن نرى. القائد سيصل. سيصل بين لحظة وأخرى. نحن ننتظره. بل قـد وصل بالفـعل. وصل ! وقـفنا على أطراف أصـابعنا ونظرنا ناحية الشارع. الثوار أيضا نظروا. أمى أيضا نظرت. نعم ، نعم لقد وصل. لا ، لم يصل. إعلان خاطئ. خبر غير صحيح. إنه حتى لن يأتى من هذا الشارع ، بل من الشارع الآخر. لا يكون قد جاء إلا إذا سمـعنا صوت جلبة كبـيرة هناك ، بعيدا. الآن جـاء. الآن قد وصل بالفعل قائد الثوار مستقلا عربة جـيب مكشوفة ، يتبعه عدد من الثوار يستقلون عـربات جيب مكشوفة وسيـارات عسكرية كبيرة وصـغيرة ، وبعضهم يمتطى الجـياد والبعض الآخر يأتى سيـرا على الأقدام يحمل الأعـلام وباقـات الزهور فى أيديهم والأجـراس فى سـروج الخـيل. وهناك مئات بل آلاف من الفراشات والعصافير وفراشات الليل والنحل تذهب لاستقبالهم. فتحت الجماهير طريقا وسط الشارع ونظرت إلى آخر القرية. كلنا كنا ننظر إلى نفس المكان ونحن واقفون على أطراف أصـابعنا. أصلحت النسـاء من هندامهن ودفـعت العـجائز الآنسـات الصغـيرات لكى يـقفن فى الصـفوف الأولى. الرجـال استفـادوا من كونهم أطـول من النساء. الثـوار ظلوا واقفين فى هيـئتهم العـسكرية

الصارمـة. أنا أنظر وأسمع وأشم وأنا أرتدى قمـيصى الأصفـر وحتى الآن لم نر عربة الجيب المكشـوفة ولا حتى سمعنا صـوتها. لم نسمع سوى صوت الضوضاء والأناشيد وتصفيق النساء فى المكان الذى تسير فيـه العربة وأعلم أن كل هؤلاء الناس الذين يصـفقون يسـيرون وراءه وهم يغنون ويصيـحون. ها نحن قد حيـيناه ولوّحنا بالمناديل والأعلام والقبعات ، لكن دون أن نراه. نحن الآن فى صمت. فجأة "إيه إيه إيه" نعم إنه هو. إنهم هم. ارتفعت صيحاتنا إلى السماء كما لو كنا نعيش أحلى لحظات السيرك لأنه قد جاء بالفعل. أنظر إليه. انظرى يا أمى. انظرى يا جدتى. انظروا يا أخواتى. انظروا كيف تتلألأ النجوم على جبـهته. انظروا إلى عـروق ذراعه المنتـفخة. الناس كلهـا تصفق بحرارة إلا البـعض الذين ظلوا ينظرون مشـدوهين ونسوا أن يصفـقوا ولم يتذكروا إلا أخيرا. أسرفت النسـاء فى التصفيق وفى هز رؤوسهن فانتـشر عبـير الأزهار فى الجو بقـوة. عطرت كل شئ ولمعت الألوان أكثر من أى وقت مضى. وشقشقت العصـافير ، حتى تلك العصافير التى لا تشقـشق. حلقت الفراشات فى الجـو. تقافز الناس وصـاحوا وحيـوا وقالوا "مع السـلامة". كنا نقول "انظـروا. انظروا" حتى رأيناه بالفعل أمـامنا والنجمة على جبـهته. حينئذ لم نسـتطع حتى أن نصـفق أو أن نقفـز ، بل نظرنا ونظرنا إلى قـائد الثوار وهو مـبتـسم وشعره يداعبه النسيم . كان يبتسم بطريقة لم تحدث من قبل فى القرية كانت يده إلى أعلى والمسدس فى خـاصرته والحمام يقف على كتـفيه الشمس تتوهج وكذلك بريق عينيه كـان أكثر نحافة من الثوار الآخرين كان يسـير ببطء. ببطء متناه حـتى لا ننسى مطلقا وحـتى نستطيع أن

نقول دائمـا أننا رأيناه وأننا كنا هنا تحت وهج الشمس. رأيناه يسـير. رأينا ثوارا آخـرين يسيرون بـجواره وهم ملتـحون كانوا يلوحـون لنا ويبتسمـون مثله. من عيونهم جميعـا كان يخرج كل هذا الضوء الذى ينير النهـار. كانت الناس صامتـة تقف على أطراف أصابعهـا. كانوا فقط يستمعون وينظرون وينظرون. فجأة انطلق صوت الموسيقى "بوم بوم بوم" تصفيق وهتافات أعجـبتنى جدا. صاحت كارولا "عاشت الحرية. فليحيا الاستقلال عاش الثوار عاشت كوبا الحرة نعم للثورة، لا للانقـلاب" ارتفـعت كـل الأعـلام كل الزهور كـل الرايات كل القبعـات كل الشمسيات الألعاب النـارية الرقص المنفرد. أنا لم أسمع فى حياتى تصفيقـا هكذا ولا هتافات هكذا ولم أر الناس تقفز هكذا. الثوار منظرهم جميل قائد الثوار يرفع يديه عاليا شعره يطير فى الهواء المسدس فى خاصـرته وهو يبتسم الشـمس تركز ضوءها على كتـفيه. يبتسم كـما لم يبتسم أحد من قبل فـى هذه المدينة يسير ببطء، ببطء شديد والحمام على كتفيـه كل الناس تجرى فى اتجاه آخر الشارع. مرة أخرى نراه يسير وهو أكثر نحافة وشـحوبا من بقية الثوار ويده مرفوعة إلى أعلى جرينا مـرة أخرى إلى ناصية أخرى ورأيناه يـسير ببطء وهو أكثر نحافة وشحوبا من الثوار الآخرين ويده مرفوعة إلى أعلى وشعره يطير فى الهـواء الشمس تلمع على كـتفيـه عاش الاستـقلال. إنه يمر والنجمة على جبهته إنه يبتعد. وفى اللحظة الأخيرة، قبل أن يختفى وسط الجماهير، التـفت قائد الثوار إلى الوراء ونظر إلى أمى والزهور تغطى شعرها وهى واقـفة على حافة الرصيف ومـعها علم تلوح به. قفزت أمى وقفزت أنا. قالت "إنه أنطونيو، إنه أنطونيو". نظرت

إليّ لكى تتأكد أنها لم تكن بمفردها حين رأته. أنا أيضا رأيت العروق المتفـخة التى كانت تتـدلى فى ذراعيه كروافـد الأنهار. الآن نذهب. الرجال مع النساء. كل شاب مع خطيـبته. الثوار مع البنات. الألعاب النارية. الآن فـهـمت. نعم. الزهور تنظـر إليّ. الدبابيـر تنظر إليّ. كانت الفراشـات تنظر إليّ ثم حزمت أمرها فى النهاية. سـتأتى. لقد رأوه. والصف الذى يجب أن نشكله ، ألا أتذكر ؟ هل تتذكر الجيش الذى يجب أن نعـده ؟ يجب أن ننضم إلى أطفـال آخرين والشـعلة متـقدة فى أيدينا ونتجه إلـى الغرب لكى ندعو الجيـوش الأخرى إلى الثورة. يجب أن نحرق جذور القصـب. يجب أن نبدأ عهدا جديدا. كل الأزهار ، كل الأطفـال والفـراشات والـدبابير والنـخل وأشجـار الخروع وكل الطـيور وكل الأشجـار والناس يرقصـون ويستـمرون فى الرقص فى الشـوارع وأمام البـيوت وداخل البـيوت وفـوق الأسطح. كلهم يحكـى ما حـدث وأنهم قـد رأوه يمر من أمـامـهم ويرقـصـون ويرقصـون والألعاب النارية. هذه هى الإشـارة ، هل تتذكر؟ حـينئذ كنا سنشكل صفا وجـيشا. لم يتنبه أحد ولم أنتـبه أنا. وأمى التى كانت ترقص بمفردها فـوق مقعد لم تنتـبه إلى خيوط الضـباب وهى تلفنا. كانت خيـوط الضباب تقودنا إلى المحطة القـديمة. ها نحن قد وصلنا إلى هنا ونحن نرقص. "عـاشت الثورة. عـاش الاستـقلال. عـاش القائد" لا نتوقف عن الرقص ومعنا الأعلام وأطواق الزهور. لا أحد يستغرب أن ضباب المحطة العتـيق لم يعد موجودا. رأينا قطارا أخضر ، فـاقع الإخضـرار ، أمام المحطة. قـال الثـوار "انظروا إلى القطار" قالت جدتى "آه لو ظهرت باقة زهورى وذلك الفستان الذى ضاع منى!"

الموسيقى لا تتوقف. القطار تغطيه الطحالب الخضراء الناعمة والزهور الصغـيرة. الرياح تهب رقـيقـة على من يرقص حول القطار. الـنساء -وقد ارتدين جونلات واسعـة ملونة- يقبّلوننا نحن الأطفال مودعين ويقدمن لنـا الزهور والشعلات والشـموع والأعـلام وباقات الزهور. رويدا رويدا يمتلئ القطار بنا ، بكل الأطفـال وكل الزهور وكل الطيور والأشجـار ، لكن السائق غير مـوجود. هذه لعبـة ، أليس كذلك ؟ الثوار يبتـسمون ويستمرون فى إدخـال الأطفال ويدخلوننى. أنظر إلى أمى وإلى أخواتى وإلى جدتى ودجـاجتها الملونة حـتى لا يظهر أحد. حينئذ تعزف الموسيقى وتطلق الألعاب النارية ويبتعد الناس عن قضبان القطار. يسمعون صوتا يهز الجميع: صوت القطار. وينطلق الدخان من القاطرة. تصفيق. يبدأ القطار فى الاهتزاز. تتلألأ السماء أكثر من ذى قبل. القطار يقرّب الأرض أكثر والأرض تهتز. الضوء يبرق والمطر يتساقط والروائح تعطّر الجو. تهـب الريح ويتحرك القطار. أجرى إلى النافـذة ، وبين بحر مـتـلاطم من الرؤوس والقبـعـات أكتـشف أمى وجدتى وأخـواتى. هن الأربعة واقفـات على حجر يبـحثن عنى بين أطفال كثيرين يطلون من نافذة القطار. كل الناس يبحثون عن أولادهم وأنا فى هذه النافـذة. ها هى أمى وها هى جدتى. أقـول "إيه إيه". يقعن من فـوق الحجر ويعـدن إلى الصعود فـوقه. نقول لبـعضنا إلى اللقـاء. إلى اللقـاء. نقول لبـعـضنا إلى اللقـاء وإلى اللقـاء وينطلق القطار. مع السـلامة يا جـدتى مع السلامـة يا أمى . مع السلامـة يا أخواتى. مع السـلامة أيتهـا الدجاجة الملونـة. أنا ذاهب. أنتم باقون هنا. لن أكون مـعكم ثانية. يحيـيننى. أراهنّ يبتعدن وهن يتـحركن

فوق الحـجر ويلوحن بمناديل حـمراء ويصغـرن. لا تبكين ولا تحزنّ. قلن لى مع السـلامـة. هذا ما كنت أنـتظره دائما. مـا كـانت تنتظره حديقـتى. هذا ما أمـر به الرجل الجريح. مـا كان يقـوله دائما عـباد الشـمس. إنها حـياتى. أن أنتـقل من بلد إلى بلد ، أقـدم حفـلات السيرك أو أحارب. أن أفعل الأعاجيب. أن أوقظ الناس بأى شكل ، بأن أزرع أشجار الخروع. مع السلامة. سأعود راكبا حصانا وسنذهب لنبيع الأزهار فى الحديقة وأيدينا متـشابكة. الآن لا أكاد أميّز أسرتى. القطار يزيد من سـرعتـه ويزداد اخضـرارا. نمر الآن على آخر بـيوت المدينة وعلى الأرض الزراعـية. أجلـس على المقعـد وفى يدى عبـاد الشمس الأصفر. أحتضنه وابتسم. عبر النافذة أرى سحابا يلمع.

# المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

# المشروع القومى للترجمة

| | | |
|---|---|---|
| ١ - اللغة العليا (طبعة ثانية) | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| ٢ - الوثنية والإسلام | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ٣ - التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقى جلال |
| ٤ - كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كاريتنكوفا | ت : أحمد الحضرى |
| ٥ - ثريا فى غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٦ - اتجاهات البحث اللسانى | ميلكا إفيتش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| ٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكى |
| ٨ - مشعلو الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| ٩ - التغيرات البيئية | أندرو س. جودى | ت : محمود محمد عاشور |
| ١٠ - خطاب الحكاية | جيرار جينيت | ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى |
| ١١ - مختارات | فيسوافا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| ١٢ - طريق الحرير | ديفيد براونيستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ١٣ - ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٤ - التحليل النفسى والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| ١٥ - الحركات الفنية | إدوارد لويس سميث | ت : أشرف رفيق عفيفى |
| ١٦ - أثينة السوداء | مارتن برنال | ت : بإشراف / أحمد عتمان |
| ١٧ - مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوى |
| ١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| ١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة | جورج سفيريس | ت : نعيم عطية |
| ٢٠ - قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح |
| ٢١ - خوخة وألف خوخة | صمد بهرنجى | ت : ماجدة العنانى |
| ٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد على الناصرى |
| ٢٣ - تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ٢٤ - ظلال المستقبل | باتريك بارندر | ت : بكر عباس |
| ٢٥ - مثنوى | مولانا جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٦ - دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧ - التنوع البشرى الخلاق | مقالات | ت : نخبة |
| ٢٨ - رسالة فى التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| ٢٩ - الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الديب |
| ٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه - كلود كاين | ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب |
| ٣٢ - الانقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية | أ. ج. هوبكنز | ت : أحمد فؤاد بلبع |
| ٣٤ - الرواية العربية | روجر آلن | ت : حصة إبراهيم المنيف |
| ٣٥ - الأسطورة والحداثة | بول . ب . ديكسون | ت : خليل كلفت |

| العنوان | المؤلف | المترجم |
|---|---|---|
| ٣٦ - نظريات السرد الحديثة | والاس مارتن | ت : حياة جاسم محمد |
| ٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها | بريجيت شيفر | ت : جمال عبد الرحيم |
| ٣٨ - نقد الحداثة | آلن تورين | ت : أنور مغيث |
| ٣٩ - الإغريق والحسد | بيتر والكوت | ت : منيرة كروان |
| ٤٠ - قصائد حب | آن سكستون | ت : محمد عيد إبراهيم |
| ٤١ - ما بعد المركزية الأوربية | بيتر جران | ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد |
| ٤٢ - عالم ماك | بنجامين باربر | ت : أحمد محمود |
| ٤٣ - اللهب المزدوج | أوكتافيو باث | ت : المهدى أخريف |
| ٤٤ - بعد عدة أصياف | ألدوس هكسلى | ت : مارلين تادرس |
| ٤٥ - التراث المغدور | روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين | ت : أحمد محمود |
| ٤٦ - عشرون قصيدة حب | بابلو نيرودا | ت : محمود السيد على |
| ٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٤٨ - حضارة مصر الفرعونية | فرانسوا دوما | ت : ماهر جويجاتى |
| ٤٩ - الإسلام فى البلقان | هـ . ت . نوريس | ت : عبد الوهاب علوب |
| ٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير | جمال الدين بن الشيخ | ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى |
| ٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية | داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى | ت : محمد أبو العطا |
| ٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى | بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل | ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش |
| ٥٣ - الدراما والتعليم | أ . ف . ألنجتون | ت : مرسى سعد الدين |
| ٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح | ج . مايكل والتون | ت : محسن مصيلحى |
| ٥٥ - ما وراء العلم | چون بولكنجهوم | ت : على يوسف على |
| ٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمود على مكى |
| ٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى |
| ٥٨ - مسرحيتان | فديريكو غرسية لوركا | ت : محمد أبو العطا |
| ٥٩ - المحبرة | كارلوس مونييث | ت : السيد السيد سهيم |
| ٦٠ - التصميم والشكل | جوهانز ايتين | ت : صبرى محمد عبد الغنى |
| ٦١ - موسوعة علم الإنسان | شارلوت سيمور - سميث | مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى |
| ٦٢ - لذّة النّص | رولان بارت | ت : محمد خير البقاعى . |
| ٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) | آلان وود | ت : رمسيس عوض . |
| ٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى | برتراند راسل | ت : رمسيس عوض . |
| ٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٦٧ - مختارات | فرناندو بيسوا | ت : المهدى أخريف |
| ٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى | فالنتين راسبوتين | ت : أشرف الصباغ |
| ٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين | عبد الرشيد إبراهيم | ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى |
| ٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية | أوخينيو تشانج رودريجت | ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد |
| ٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى | داريو فو | ت : حسين محمود |

| | | |
|---|---|---|
| ٧٢ – السياسى العجوز | ت . س . إليوت | ت فؤاد مجلى |
| ٧٣ – نقد استجابة القارئ | جين . ب . توميكنز | ت حسن ناظم وعلى حاكم |
| ٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر | ل . ا . سيمينوڤا | ت : حسن بيومى |
| ٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية | أندريه موروا | ت . أحمد درويش |
| ٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى | مجموعة من الكتاب | ت عبد المقصود عبد الكريم |
| ٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣ | رينيه ويليك | ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٧٨ – العولمة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية | رونالد روبرتسون | ت · أحمد محمود ونورا أمين |
| ٧٩ – شعرية التأليف | بوريس أوسبنسكى | ت · سعيد الغانمى وناصر حلاوى |
| ٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع» | ألكسندر بوشكين | ت · مكارم الغمرى |
| ٨١ – الجماعات المتخيلة | بندكت أندرسن | ت · محمد طارق الشرقاوى |
| ٨٢ – مسرح ميجيل | ميجيل دى أونامونو | ت . محمود السيد على |
| ٨٣ – مختارات | غوتفريد بن | ت خالد المعالى |
| ٨٤ – موسوعة الأدب والنقد | مجموعة من الكتاب | ت عبد الحميد شيحة |
| ٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية) | صلاح زكى أقطاى | ت عبد الرازق بركات |
| ٨٦ – طول الليل | جمال مير صادقى | ت أحمد فتحى يوسف شتا |
| ٨٧ – نون والقلم | جلال آل أحمد | ت . ماجدة العنانى |
| ٨٨ – الابتلاء بالتغرب | جلال آل أحمد | ت إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٨٩ – الطريق الثالث | أنتونى جيدنز | ت · أحمد زايد ومحمد محيى الدين |
| ٩٠ – وسم السيف (قصص) | نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية | ت · محمد إبراهيم مبروك |
| ٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق | بارير الاسوستكا | ت محمد هناء عبد الفتاح |
| ٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر | كارلوس ميجل | ت : نادية جمال الدين |
| ٩٣ – محدثات العولمة | مايك فيذرستون وسكوت لاش | ت · عبد الوهاب علوب |
| ٩٤ – الحب الأول والصحبة | صمويل بيكيت | ت فوزية العشماوى |
| ٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى | أنطونيو بويرو باييخو | ت سرى محمد محمد عبد اللطيف |
| ٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة | قصص مختارة | ت : إدوار الخراط |
| ٩٧ – هوية فرنسا (مج ١) | فرنان بروديل | ت بشير السباعى |
| ٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى | نماذج ومقالات | ت : أشرف الصباغ |
| ٩٩ – تاريخ السينما العالمية | ديڤيد روبنسون | ت : إبراهيم قنديل |
| ١٠٠ – مساءلة العولمة | بول هيرست وجراهام تومبسون | ت إبراهيم فتحى |
| ١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج) | بيرنار فاليط | ت · رشيد بنحدو |
| ١٠٢ – السياسة والتسامح | عبد الكريم الخطيبى | ت عز الدين الكتانى الإدريسى |
| ١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء | عبد الوهاب المؤدب | ت : محمد بنيس |
| ١٠٤ – أوبرا ماهوجنى | برتولت بريشت | ت . عبد الغفار مكاوى |
| ١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع | جيرارجينيت | ت عبد العزيز شبيل |
| ١٠٦ – الأدب الأندلسى | د ماريا خيسوس روبييرامتى | ت . أشرف على دعدور |
| ١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر | نخبة | ت : محمد عبد الله الجعيدى |

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى مجموعة من النقاد ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه چون بولوك وعادل درويش ت . هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى حسنة بيجوم ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون ت . ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكليود ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد سادى پلانت ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع وول شوينكا ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف ت سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر بث بارون ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنبل ت . بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى ت . محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت ت . منيرة كروان
١٢٣ –الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نينل الكسندر وفنادولينا ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب چون جراى ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديڤى ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة ڤولڤانج إيسر ت عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب صفاء فتحى ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن سوزان باسنيت ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة مايك فيذرستون ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا طارق على ت . طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة بارى ج. كيمب ت : أحمد محمود
١٢٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا كينيث كونو ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية چوزيف مارى مواريه ت كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف إيڤلينا تارونى ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال ريشارد ڤاچنر ت . مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار هربرت ميسن ت · أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديريك لايدار ت · عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة كارلو جولدونى ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث　　كارلوس فوينتس　　ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء　　ميجيل دي ليبس　　ت . على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة　　تانكريد دورست　　ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)　　إنريكي أندرسون إمبرت　　ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس　　عاطف فضول　　ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية　　روبرت ج. ليتمان　　ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)　　فرنان برودل　　ت . بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى　　نخبة من الكُتاب　　ت　محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة　　فيولين فانويك　　ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت　　فيل سليتر　　ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر　　نخبة من الشعراء　　ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى　　جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو　　ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين　　النظامي الكنوجي　　ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)　　فرنان برودل　　ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية　　ديفيد هوكس　　ت　إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة　　بول إيرليش　　ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني　　اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا　　ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة　　يوحنا الآسيوى　　ت . صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١　　جوردون مارشال　　ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)　　چان لاكوتير　　ت : نبيل سعد
١٦٥ -- حكايات الثعلب　　أ . ن أفانا سيفا　　ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل　　يشعياهو ليڤمان　　ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور　　رابندرانات طاغور　　ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة　　مجموعة من المؤلفين　　ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية　　مجموعة من المبدعين　　ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق　　ميغيل دليبيس　　ت　بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد　　فرانك بيجو　　ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس　　مختارات　　ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال　　ولتر ت . ستيس　　ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء　　ايليس كاشمور　　ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية　　لورينزو فيلشس　　ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية　　توم تيتنبرج　　ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف　　هنرى تروايا　　ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث　　نخبة من الشعراء　　ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب　　أيسوب　　ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد　　إسماعيل فصيح　　ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي　　فنسنت . ب . ليتش　　ت : محمد يحيى

| العنوان | المؤلف | المترجم |
|---|---|---|
| ١٨٢ – العنف والنبوءة | و . ب . ييتس | ت : ياسين طه حافظ |
| ١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما | رينيه چيلسون | ت : فتحى العشرى |
| ١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام | هانز إيندورفر | ت : دسوقى سعيد |
| ١٨٥ – أسفار العهد القديم | توماس تومسن | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل | ميخائيل أنوود | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٨٧ – الأرضة | بُزُرْج علَوى | ت : علاء منصور |
| ١٨٨ – موت الأدب | ألفين كرنان | ت : بدر الديب |
| ١٨٩ – العمى والبصيرة | بول دى مان | ت : سعيد الغانمى |
| ١٩٠ – محاورات كونفوشيوس | كونفوشيوس | ت : محسن سيد فرجانى |
| ١٩١ – الكلام رأسمال | الحاج أبو بكر إمام | ت : مصطفى حجازى السيد |
| ١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ١٩٣ – عامل المنجم | بيتر أبراهامز | ت : محمد عبد الواحد محمد |
| ١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى | مجموعة من النقاد | ت : ماهر شفيق فريد |
| ١٩٥ – شتاء ٨٤ | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ١٩٦ – المهلة الأخيرة | فالنتين راسبوتين | ت : أشرف الصباغ |
| ١٩٧ – الفاروق | شمس العلماء شبلى النعمانى | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ١٩٨ – الاتصال الجماهيرى | إدوين إمرى وآخرون | ت : إبراهيم سلامة إبراهيم |
| ١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية | يعقوب لانداوى | ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد |
| ٢٠٠ – ضحايا التنمية | جيرمى سيبروك | ت : فخرى لبيب |
| ٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصارى |
| ٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٢٠٣ – الشعر والشاعرية | ألطاف حسين حالى | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم | زالمان شازار | ت : أحمد محمود هويدى |
| ٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات | لويجى لوقا كافاللى – سفورزا | ت : أحمد مستجير |
| ٢٠٦ – الهيولية تصنع علمًا جديدًا | جيمس جلايك | ت : على يوسف على |
| ٢٠٧ – ليل إفريقى | رامون خوتاسندير | ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف |
| ٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى | دان أوريان | ت : محمد أحمد صالح |
| ٢٠٩ – السرد والمسرح | مجموعة من المؤلفين | ت : أشرف الصباغ |
| ٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى | سنائى الغزنوى | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٢١١ – فردينان دوسوسير | جوناثان كلر | ت : محمود حمدى عبد الغنى |
| ٢١٢ – قصص الأمير مرزبان | مرزبان بن رستم بن شروين | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر | ريمون فلاور | ت : سيد أحمد على الناصرى |
| ٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع | أنتونى جيدنز | ت : محمد محمود محى الدين |
| ٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢ | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم | مجموعة من المؤلفين | ت : أشرف الصباغ |
| ٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان | صمويل بيكيت | ت : نادية البنهاوى |
| ٢١٨ – رايولا | خوليو كورتازان | ت : على إبراهيم على منوفى |

| | | |
|---|---|---|
| ٢١٩ - بقايا اليوم | كازو ايشجورو | ت طلعت الشايب |
| ٢٢٠ - الهيولية فى الكون | بارى باركر | ت : على يوسف على |
| ٢٢١ - شعرية كفافى | جريجورى جوزدانيس | ت رفعت سلام |
| ٢٢٢ - فرانز كافكا | رونالد جراى | ت : نسيم مجلى |
| ٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر | بول فيرابنر | ت السيد محمد نفادى |
| ٢٢٤ - دمار يوغسلافيا | برانكا ماجاس | ت . منى عبد الظاهر إبراهيم السيد |
| ٢٢٥ - حكاية غريق | جابرييل جارثيا ماركث | ت . السيد عبد الظاهر عبد الله |
| ٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى | ديفيد هربت لورانس | ت · طاهر محمد على البربرى |
| ٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر | موسى ماريا ديف بوركى | ت · السيد عبد الظاهر عبد الله |
| ٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن | جانيت وولف | ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن |
| ٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد | نورمان كيمان | ت . أمير إبراهيم العمرى |
| ٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر | فرانسواز جاكوب | ت مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٢٣١ - الدرافيل | خايمى سالوم بيدال | ت : جمال أحمد عبد الرحمن |
| ٢٣٢ - مابعد المعلومات | توم ستينر | ت . مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٢٣٣ - فكرة الاضمحلال | أرثر هيرمان | ت طلعت الشايب |
| ٢٣٤ - الإسلام فى السودان | ج. سبنسر تريمنجهام | ت فؤاد محمد عكود |
| ٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١ | جلال الدين الرومى | ت · إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٣٦ - الولاية | ميشيل تود | ت · أحمد الطيب |
| ٢٣٧ - مصر أرض الوادى | روبين فيدين | ت : عنايات حسين طلعت |
| ٢٣٨ - العولمة والتحرير | الانكتاد | ت . ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد |
| ٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى | جيلارافر - رابوخ | ت . نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق |
| ٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار | كامى حافظ | ت صلاح عبد العزيز محمود |
| ٢٤١ - فى انتظار البرابرة | ك. م كويتز | ت . ابتسام عبد الله سعيد |
| ٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض | وليام إمبسون | ت . صبرى محمد حسن عبد النبى |
| ٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١ | ليفى بروفنسال | ت : مجموعة من المترجمين |
| ٢٤٤ - الغليان | لاورا إسكيبيل | ت : نادية جمال الدين محمد |
| ٢٤٥ - نساء مقاتلات | إليزابيتا أديس | ت : توفيق على منصور |
| ٢٤٦ - قصص مختارة | جابرييل جرثيا ماركث | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر | وولتر أرمبرست | ت : محمد الشرقاوى |
| ٢٤٨ - حقول عدن الخضراء | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٢٤٩ - لغة التمزق | دراجو شتامبوك | ت : رفعت سلام |
| ٢٥٠ - علم اجتماع العلوم | دومنيك فينك | ت ماجدة أباظة |
| ٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢ | جوردون مارشال | ت بإشراف : محمد الجوهرى |
| ٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية | مارجو بدران | ت . على بدران |
| ٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية | ل. أ. سيمينوفا | ت : حسن بيومى |
| ٢٥٤ - الفلسفة | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٥ - أفلاطون | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت · إمام عبد الفتاح إمام |

| | | |
|---|---|---|
| ٢٥٦ - ديكارت | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة | وليم كلى رايت | ت : محمود سيد أحمد |
| ٢٥٨ - الفجر | سير أنجوس فريزر | ت : عُبادة كُحيلة |
| ٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى | نخبة | ت : ڤاروچان كازانچيان |
| ٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢ | جوردون مارشال | ت بإشراف : محمد الجوهرى |
| ٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود | زكى نجيب محمود | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٦٢ - مدينة المعجزات | إدوارد مندوثا | ت . محمد أبو العطا عبد الرؤوف |
| ٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن | چون جريبن | ت · على يوسف على |
| ٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة | هوراس / شلى | ت · لويس عوض |
| ٢٦٥ - روايات مترجمة | أوسكار وايلد وصموئيل جونسون | ت لويس عوض |
| ٢٦٦ - مدير المدرسة | جلال آل أحمد | ت · عادل عبد المنعم سويلم |
| ٢٦٧ - فن الرواية | ميلان كونديرا | ت : بدر الدين عرودكى |
| ٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢ | جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١ | وليم چيفور بالجريف | ت : صبرى محمد حسن |
| ٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢ | وليم چيفور بالجريف | ت . صبرى محمد حسن |
| ٢٧١ - الحضارة الغربية | توماس سى . باترسون | ت شوقى جلال |
| ٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر | س. س. والترز | ت · إبراهيم سلامة |
| ٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط | جوان آر. لوك | ت · عنان الشهاوى |
| ٢٧٤ - السيدة بربارا | رومولو جلاجوس | ت محمود على مكى |
| ٢٧٥ - ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً | أقلام مختلفة | ت : ماهر شفيق فريد |
| ٢٧٦ - فنون السينما | فرانك جوتيران | ت : عبد القادر التلمسانى |
| ٢٧٧ - الچينات الصراع من أجل الحياة | بريان فورد | ت : أحمد فوزى |
| ٢٧٨ - البدايات | إسحق عظيموف | ت . ظريف عبد الله |
| ٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية | فرانسيس ستونر سوندرز | ت · طلعت الشايب |
| ٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر | بريم شند وآخرون | ت : سمير عبد الحميد |
| ٢٨١ - الفردوس الأعلى | مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى | ت : جلال الحفناوى |
| ٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية | لويس ولبيرت | ت : سمير حنا صادق |
| ٢٨٣ - السهل يحترق | خوان رولفو | ت : على البمبى |
| ٢٨٤ - هرقل مجنوناً | يوريبيدس | ت : أحمد عتمان |
| ٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى | حسن نظامى | ت . سمير عبد الحميد |
| ٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٢ | زين العابدين المراغى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى | أنتونى كينج | ت : محمد يحيى وآخرون |
| ٢٨٨ - الفن الروائى | ديفيد لودج | ت : ماهر البطوطى |
| ٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى | أبو نجم أحمد بن قوص | ت · محمد نور الدين |
| ٢٩٠ - علم الترجمة واللغة | جورج مونان | ت : أحمد زكريا إبراهيم |
| ٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١ | فرانشسكو رويس رامون | ت : السيد عبد الظاهر |
| ٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢ | فرانشسكو رويس رامون | ت : السيد عبد الظاهر |

| | | |
|---|---|---|
| ٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى | روجر آلان | ت : نخبة من المترجمين |
| ٢٩٤ – فن الشعر | بوالو | ت . رجاء ياقوت صالح |
| ٢٩٥ – سلطان الأسطورة | جوزيف كامبل | ت : بدر الدين حب الله الديب |
| ٢٩٦ – مكبث | وليم شكسبير | ت : محمد مصطفى بدوى |
| ٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية | ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى | ت ماجدة محمد أنور |
| ٢٩٨ – مأساة العبيد | أبو بكر تفاوابليوه | ت : مصطفى حجازى السيد |
| ٢٩٩ – ثورة التكنولوچيا الحيوية | جين ل. ماركس | ت : هاشم أحمد فؤاد |
| ٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١ | لويس عوض | ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين |
| ٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢ | لويس عوض | ت . جمال الجزيرى ومحمد الجندى |
| ٣٠٢ – فنجنشتين | جون هيتون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٣ – بـوذا | جين هوب وبورن فان لون | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٤ – ماركس | ريـوس | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٥ – الجلد | كروزيو مالابارته | ت صلاح عبد الصبور |
| ٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ | چان – فرانسوا ليوتار | ت : نبيل سعد |
| ٣٠٧ – الشعور | ديفيد بابينو | ت . محمود محمد أحمد |
| ٣٠٨ – علم الوراثة | ستيف جونز | ت . ممدوح عبد المنعم أحمد |
| ٣٠٩ – الذهن والمخ | انجوس چيلاتى | ت : جمال الجزيرى |
| ٣١٠ – يونج | ناجى هيد | ت محيى الدين محمد حسن |
| ٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى | كولنجوود | ت : فاطمة إسماعيل |
| ٣١٢ – روح الشعب الأسود | وليم دى بويز | ت أسعد حليم |
| ٣١٣ – أمثال فلسطينية | خايير بيان | ت عبد الله الجعيدى |
| ٣١٤ – الفن كعدم | جينس مينيك | ت : هويدا السباعى |
| ٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى | ميشيل بروندينو | ت :كاميليا صبحى |
| ٣١٦ – محاكمة سقراط | أ. ف. ستون | ت : نسيم مجلى |
| ٣١٧ – بلا غد | شير لايموفا – زنيكين | ت : أشرف الصباغ |
| ٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة | نخبة | ت : أشرف الصباغ |
| ٣١٩ – صور دريدا | جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس | ت حسام نايل |
| ٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج | مؤلف مجهول | ت محمد علاء الدين منصور |
| ٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢ | ليفى برو فنسال | ت : نخبة من المترجمين |
| ٣٢٢ – التأريخ الغربى للفن الحديث | دبليوجين كلينباور | ت خالد مفلح حمزة |
| ٣٢٣ – فن الساتورا | تراث يونانى قديم | ت : هانم سليمان |
| ٣٢٤ – اللعب بالنار | أشرف أسدى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٣٢٥ – عالم الآثار | فيليب بوسان | ت : كرستين يوسف |
| ٣٢٦ – المعرفة والمصلحة | جورجين هابرماس | ت . حسن صقر |
| ٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة | نخبة | ت . توفيق على منصور |
| ٣٢٨ – يوسف وزليخة | نور الدين عبد الرحمن بن أحمد | ت : عبد العزيز بقوش |
| ٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد | تد هيوز | ت : محمد عيد إبراهيم |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت | مارفن شبرد | ت : سامى صلاح |
| ٣٣١ - عندما جاء السردين | ستيفن جراى | ت : سامية دياب |
| ٣٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى | نخبة | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ٣٣٣ - الإسلام فى بريطانيا | نبيل مطر | ت : بكر عباس |
| ٣٣٤ - لقطات من المستقبل | آرثر س. كلارك | ت : مصطفى فهمى |
| ٣٣٥ - عصر الشك | ناتالى ساروت | ت : فتحى العشرى |
| ٣٣٦ - متون الأهرام | نصوص قديمة | ت : حسن صابر |
| ٣٣٧ - فلسفة الولاء | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصارى |
| ٣٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند | نخبة | ت : جلال السعيد الحفناوى |
| ٣٣٩ - تاريخ الأدب فى إيران جـ٣ | على أصغر حكمت | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٣٤٠ - اضطراب فى الشرق الأوسط | بيرش بيربيروجلو | ت : فخرى لبيب |
| ٣٤١ - قصائد من رلكه | راينر ماريا رلكه | ت : حسن حلمى |
| ٣٤٢ - سلامان وأبسال | نور الدين عبد الرحمن بن أحمد | ت : عبد العزيز بقوش |
| ٣٤٣ - العالم البرجوازى الزائل | نادين جورديمر | ت : سمير عبد ربه |
| ٣٤٤ - الموت فى الشمس | بيتر بلانجوه | ت : سمير عبد ربه |
| ٣٤٥ - الركض خلف الزمن | بونه ندائى | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٣٤٦ - سحر مصر | رشاد رشدى | ت : جمال الجزيرى |
| ٣٤٧ - الصبية الطائشون | جان كوكتو | ت : بكر الحلو |
| ٣٤٨ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١ | محمد فؤاد كوبريلى | ت : عبد الله أحمد إبراهيم |
| ٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة | أرثر والدرون وآخرين | ت : أحمد عمر شاهين |
| ٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية | أقلام مختلفة | ت : عطية شحاتة |
| ٣٥١ - مبادئ المنطق | جوزايا رويس | ت : أحمد الأنصارى |
| ٣٥٢ - قصائد من كفافيس | قسطنطين كفافيس | ت : نعيم عطية |
| ٣٥٣ - الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية) | باسيليو بابون مالدونالد | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ٣٥٤ - الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية) | باسيليو بابون مالدونالد | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ٣٥٥ - التيارات السياسية فى إيران | حجت مرتضى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٣٥٦ - الميراث المر | بول سالم | ت : بدر الرفاعى |
| ٣٥٧ - متون هيرميس | نصوص قديمة | ت : عمر الفاروق عمر |
| ٣٥٨ - أمثال الهوسا العامية | نخبة | ت : مصطفى حجازى السيد |
| ٣٥٩ - محاورات بارمنيدس | أفلاطون | ت : حبيب الشارونى |
| ٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة | أندريه جاكوب ونويلا باركان | ت : ليلى الشربينى |
| ٣٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة | آلان جرينجر | ت : عاطف معتمد وآمال شاور |
| ٣٦٢ - تلميذ باينبرج | هاينرش شبورال | ت : سيد أحمد فتح الله |
| ٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقى | ريتشارد جيبسون | ت : صبرى محمد حسن |
| ٣٦٤ - حداثة شكسبير | إسماعيل سراج الدين | ت : نجلاء أبو عجاج |
| ٣٦٥ - سأم باريس | شارل بودلير | ت : محمد أحمد حمد |
| ٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب | كلاريسا بنكولا | ت : مصطفى محمود محمد |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٦٧ – القلم الجرىء | نخبة | ت : البرّاق عبد الهادى رضا |
| ٣٦٨ – المصطلح السردى | جيرالد برنس | ت : عابد خزندار |
| ٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ | فوزية العشماوى | ت : فوزية العشماوى |
| ٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية | كليرلا لويت | ت : فاطمة عبد الله محمود |
| ٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢ | محمد فؤاد كوبريلى | ت : عبد الله أحمد إبراهيم |
| ٣٧٢ – عاش الشباب | وانغ مينغ | ت : وحيد السعيد عبد الحميد |
| ٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه | أمبرتو إيكو | ت : على إبراهيم على منوفى |
| ٣٧٤ – اليوم السادس | أندريه شديد | ت : حمادة إبراهيم |
| ٣٧٥ – الخلود | ميلان كونديرا | ت : خالد أبو اليزيد |
| ٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين | نخبة | ت : إدوار الخراط |
| ٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤ | على أصغر حكمت | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٣٧٨ – المسافر | محمد إقبال | ت : يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٣٧٩ – ملك فى الحديقة | سنيل باث | ت : جمال عبد الرحمن |

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٦٣٧ / ٢٠٠٢

# ملك فى الحديقة

المجلس الأعلى للثقافة



تتحدث الكتب التى تتناول أدب كوبا بالتحليل عن سنيل باث فتصفه بأنه "كاتب من الطراز الأول رغم أنه شاب" ، ذلك لأن كل أعماله التى نشرها فازت بجوائز محلية أو دولية ، وبالرغم من ذلك فإن كاتبنا له رأى غريب فى أعماله ؛ فهو يقول فى تواضع صادق إنه لا يدرى إن كانت أعماله تستحق النشر أو لا ، رواية "ملك فى الحديقة" – على سبيل المثال – امتدحها الجميع فى كوبا وفى خارجها ، وفازت بجائزة النقاد فى كوبا ، لكن سنيل يقول إنه لا يدرى سبباً لهذا الاحتفاء .

وتحدثنا رواية "ملك فى الحديقة" عن معاناة أسرة ريفية فقيرة فى كوبا فى عهد ما قبل ثورة ١٩٥٩ ، والمؤلف يروى الأحداث من وجهتى نظر : وجهة نظر الطفل ذى الخيال الواسع، ووجهة نظر الجدة التى تتسم بالواقعية الشديدة . الطفل الذى [illegible] اسماً يسمع لغة الزهور والدجاجات وعب[illegible] والفراشات والبغلة ... إلخ ، وروايته الخيال[illegible] تتعارض تعارضاً شديداً مع الواقع المؤلم [illegible] المجتمع الكوبى قبل الثورة .

Un rey en el jardín

Senel Paz

الغلاف: أمين الصيرفى